أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة ١٩

رسالة الإصلاح

والواقع الاجتماعي للإمام علي عليه السلام

تأليف
عذراء مهدي حسين العذاري

الكتاب الفائز على المرتبة الثامنة في مسابقة السفير للإبداع الفكري

رسالة الإصلاح

والواقع الإجتماعي

للإمام علي عليه السلام

اسم الكتاب: رسالة الاصلاح والواقع الاجتماعي للإمام علي عليه السلام.

تأليف: عذراء مهدي حسين.

الغلاف: نجاح الدجيلي.

الإخراج الفني: ميثم بحر.

الطبعة: الأولى.

الكمية: ١٥٠٠ نسخة.

الناشر: أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به.

سنة الطبع: ١٤٣٤هـ ، ٢٠١٣م.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لأمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به

www. masjed-alkufa.net

رسالة الإصلاح

والواقع الاجتماعي للإمام علي عليه السلام

تأليف

عذراء مهدي حسين العذاري

الكتاب الفائز على المرتبة الثامنة في مسابقة السفير للإبداع الفكري

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله الذي لم يُشهِد أحدا حين فطر السماوات والأرض، ولا اتّخذ مُعينا حين برأ النسمات، لم يشارَكْ في الإلهية ولم يُظاهَر في الوحدانية) والصلاة والسلام على سيد الرسل طه، وعلى آله الغر الميامين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين، الى قيام يوم الدين.

إنّ في اتخاذ الإمام علي (عليه السلام) لمدينة الكوفة مقرّاً للخلافة الإسلامية وعلى مدى أكثر من أربع سنوات - جعل منها محطّ أنظار المسلمين وغير المسلمين في كل بقاع المعمورة كما كانت العيون مسلطة على مدينة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) من قبل، وهكذا كلُّ عواصم العالم تستقطب الأنظار؛ لكونها المركز السياسي الذي يدير دفة البلاد وما يتبعه من آثار اخرى كالأثر العلمي والديني والعسكري والتجاري وما الى ذلك.

وهذا هو حال الكوفة إبّان حكم الإمام علي (عليه السلام) من ٣٦ - ٤٠ هجري، وبعد هذا التأريخ إلى عدة قرون ترك أثره الواضح على الحضارة الاسلامية ، فما تذكر الكوفة إلّا ويذكر معها التأريخ الكبير والحافل بكثير من الأحداث الجسام، يعود جلّها إلى عهد الإمام عليّ (عليه السلام) بشكل مباشر أو غير مباشر.

و من يسلط الضوء على العصور التي تلته فسيرى أنّها أيضا محملة بكثير من الأحداث، ولهذا نشاهد - وعلى مرّ التأريخ والى يومنا هذا - عشرات بل مئات العناوين التي كتبت في الكوفة وعلى مختلف الصُعُد.

وفي هذا السياق - وضمن فعاليات مهرجان السفير الثقافي الثاني الذي تقيمه أمانة مسجد الكوفة استذكاراً لدخول سفير الإمام الحسين مسلم بن

عقيل(عليهما السلام) إلى مدينة الكوفة في الخامس من شوال من سنة ستين للهجرة حاملاً رسالة أبي الأحرار الإمام الحسين (عليه السلام) - فقد أطلقت الأمانة جائزة مسلم بن عقيل للإبداع الفكري بمختلف المجالات، ومنها التأليف حيث حصدت الجائزة سبعة عشر كتابا في المحاور التي حددتها اللجنة، ومنها أثر الإمام علي (عليه السلام) على واقع الكوفة، وقد الف في هذا المجال تحديداً أربعة كتب منها الكتاب الذي نحن بصدد الإشارة إليه وهو كتاب (رسالة الاصلاح والواقع الإجتماعي للإمام علي عليه السلام) للعلوية عذراء مهدي العذاري والذي حصل على المرتبة الثامنة من بين الكتب العشرة الأولى التي أوصت اللّجنة العلمية بطبعها، وقد تصدت الأمانة متمثلة بالشوون الثقافية بالإشراف على تصميم الكتاب وإخراجه وتصحيحه، ومن ثم الإتفاق على طبعه ونشره لتعم الفائدة والنفع بالجهد الكبير الذي بذلته المؤلفة مشكورة.

وبعد ما لمسناه من نجاح كبير حققته الجائزة في عامها الاول، سواء في التأليف أو التحقيق أو في الرواية و القصة و المسرحية والمقالة والشعر أو في الخطابة والتلاوة وحفظ القرآن أو على مستوى المعارض التي أُقيمت على هامش المهرجان كمعرض الخط والزخرفة الاسلامية ومعرض الصّور الفوتوغرافية ومعرض الكتاب، فقد قررت الأمانة وأعلنت استمرار المسابقة للأعوام القادمة إن شاء الله تعالى.

وحتى يسلط الضوء بشكل دقيق على أحداث هذه المدينة التي اتسمت بالولاء لأهل البيت (عليهم السلام) ومنذ تأسيسها، فقد حُدّد القرن الأول الهجري أمام الباحثين والمفكرين الراغبين في المشاركة بالمسابقة للمهرجان الثالث، وسيطلق في كل عام بإذنه تعالى قرن من الزمن وفي كل المجالات، ولا يخفى ما لهذه المسابقات من أثر فاعل في خلق حالة من التنافس الشريف بين الطاقات الكامنة في العلماء والأدباء والمفكرين والفنانين وتنمية الطاقات الموهوبة من الشباب.

إنّ لقاء المشاركين في الفعاليات آنفة الذكر خلال الندوات والمؤتمرات واللقاءات الجانبية فيها من النفع الكبير الذي يعم الجميع من خلال تلاقح الأفكار واستمزاج الآراء والأذواق والإنفتاح على العالم ليصل صوت المبدعين من أبناء دجلة والفرات الى ربوع العالم من جديد - وليعود مسجد الكوفة المعظم من جديد - بفضل همة أبنائه المؤمنين - الى سابق عهده يوم كان منارا للعلم والمعرفة منذ أن وطئت ترابه أقدام صحابة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) أو في عهد ولي الله الأعظم الإمام علي (عليه السلام) الذي أسس على تربته أول جامعة إسلامية تعنى بتعليم القرآن والحديث والتفسير والفقه والسيرة والنحو والخط والقضاء وغيرها من العلوم الدينية ومن ثم الأثر الهام الذي تركته الستان ببركة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) ووجوده الميمون في جامع الكوفة ليخرج للإمة الإسلامية مئات العلماء وفي مختلف العلوم.

في الختام أشكر الله سبحانه وتعالى على نعمائه التي لا تعد ولا تحصى، ومنها توفيقه لنا على هذه الخدمة الشريفة في هذا المكان المقدس وأن يكون لعملنا ثمار نافعة أينعت بعد أن سقتها أيدي العاملين على خدمة المكان بماء الولاية والمحبة والإخلاص، داعيا لهم وللّجنة التحضيرية واللجنة العلمية واللجان الفرعية، والعلوية الفاضلة السيدة عذراء العذاري، ولكل من ساهم في خدمة المهرجان ونقله بصورته المشرقة الى العالم بالتوفيق وقبول الأعمال وأن يحشرنا جميعا مع محمد وآل محمد، إنّه نعم المولى ونعم المجيب.

السيد موسى تقي الخلخالي
أمين مسجد الكوفة والمشرف العام على المهرجان
الجمعة غرة جمادى الآخرة ١٤٣٤ هجري

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين أبي القاسم محمد (صلّى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين) وبعد...

نقفُ تصاغراً وننحني إجلالاً وإكباراً لأطلالات المجدِ والكبرياء المتجسّد عبر لهيب الألق، وعنفوان المجد الصارخ، والذي لا زال ومنذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، يعبقُ كالورد والياسمين، في كلّ أنحاء الحياة، ومفاصل الوجود.

الحياة التي لولا (علي) لم تكن، والوجود الذي لولا (علي) لم يكن.

(علي) هذه الأطروحة، التي لا تُفهم وهذا اللغز المُحيرُ الذي لا تُفكُ رموزه وهذا الشموخ والعنفوان الذي أعتلى صرح الآداب والعلوم والثقافة والتاريخ والأخلاق ببديع خُطبهِ وروائع حكمه وجودةِ أمثاله.

نقفُ تصاغراً أمام إلهامات فكرهِ المتوحّد، تعترينا رغبة الإكتشاف، وتحتوينا طموحات البحث والإستقصاء فنحاول أن نغرف قطرةً من أنهار إبداعه الرقراق بالفكر والعلم والأدب.

وها نحن ذا أمام أطروحة النهج (نهج البلاغة) الذي لا تحتويه الأطروحات ولا تقعُ على تعريفهِ وتفصيلهِ أضخم الكتب والموسوعات.

نقف محاولين تكوين أطروحة فكرية عن رسالة الإمام الإصلاحية، هذه الرسالة التي أستنفذ بها الإمام طاقاتهِ وقدراتهِ وإمكاناتهِ في سبيل تهيئتها للمجتمع وتقريبها للامة عبر الخطاب والرسائل والكتب والحكم والأمثال، ولعل الخطاب أبرز وأبلغ تلك الوسائل في التواصل بين الإمام والمجتمع، حين أعتمدها الإمام كورقة تبادُل وتجاوب وأستمرار بين الطرفين.

إنّ رسالة الإمام الإصلاحية لا يمكن حصرها في فترةٍ معينة من حياة الإمام أو

خلافته التي أستمرت لأربع أو لخمسِ سنواتٍ لأنّ الإمام ومنذ أن بُعثَ النبي، وحتى أن قضى نحبه (عليه السلام) كان يعمل ويجاهد في سبيل الإصلاح. إلاّ أنّ فترة خلافة الإمام كانت فترة مهمة جداً من فترات حياتهِ الشريفة، فترة مليئة بالعمل والجدّ والإجتهاد، في سبيل التطوير والإصلاح والتغيير، قضاها في الكوفة مُتّخذاً منها قاعدة للإصلاح والجهاد حيث المُساندة الجماهيرية والدعم الشعبي من قبل أهالي المجتمع الكوفي، وسوف نتناول هذه المسيرة الإصلاحية، وعبر خمسة فصول:

الفصل الأول: ينصبُ في دراسة الواقع الإجتماعي، للأمّة الإسلامية، وسوف نُثبت فيه حاجة المجتمع إلى الإصلاح والتغيير بعد أن أنحرفت التجربة عن مسارها الصحيح، وخصوصاً بعد وفاة الرسول ورحيله عن الأمة، وسوف ندرس مظاهر الإنحراف العقائدي قبل خلافة الإمام وبعد خلافتهِ (عليه السلام)، وسوف نتناول دراسة هذا الإصلاح كواقع نظري في الفصل الثاني حيث ينقسم هذا الفصل الى مبحثين الاول في نظرية الاصلاح العقائدي، والثاني في نظرية الإصلاح النفسي.

أمّا الفصل الثالث فيتناول دراسة الإصلاح السياسي للإمام بين الواقع النظري والواقع العملي التطبيقي، وسوف يدرس الفصل الرابع:- رسالة الإصلاح الإقتصادي وتنصبُ هذه الرسالة في توجُهين: الأول نظري والثاني تطبيقي عملي، هذا فضلاً عن دراسة ملامح ورسالة الإصلاح والجهاد في الفصل الخامس والأخير.

إنّ أوّل مدرسة إصلاحية، أنبثقت عن مسجد الكوفة المُعظّم وبقيادة المصلح الأوّل والمُفكّر العملاق عليُ ابنُ أبي طالبٍ (عليه السلام). هذه المدرسة لم تكن لتتحدّد رسالتها في زمان أو مكان معين فلا يمكن تضييق حدودها بحدود الكوفة أو زمانها بزمان خلافة الإمام الذي لم يتجاوز الخمسة أعوام بل هي رسالة عالمية أنفتحت على الإنسانية جمعاء وتناولت الإصلاح بمختلف جوانبهِ ومتعلقاتهِ

فتشكلت نظرية إصلاحية شمولية عالمية. تتناول التغيير من الباطن إلى الظاهر. ومن أهم أهدافها وغاياتها هي صناعة الإنسان، الإنسان الصحيح الكامل المثالي فضلاً عن توفير مبادئ ومتطلبات الحياة المثالية الكريمة عبر تهيئة الأجواء الحياتية (الروحية والنفسية والسياسية والإقتصادية) المناسبة وسنحاول جاهدين تسليط الأضواء على ملامح هذه الرسالة محاولين الإيجاز قدر الإمكان مع أستيفاء حدود ومديات هذه الرسالة، وبما هو ضروري لشموليتها وعالميتها.

وسوف نعمل على دراسة الإصلاح كنمط عملي واقعي تطبيقي فضلاً عن دراستهِ كنظرية ومبدأ وفلسفة، وعبر مناقشة الخطب، والنصوص العلوية وإستقصاء ما فيها من أفكار تتعلّق بمختلف جوانب الإصلاح وجواهرهِ (الروحية والأخلاقية والساسية والإقتصادية).

تمهيد

الإصلاح من واقع الإسلام:

الإصلاح عموماً هو إحداث تغيير وإيجاد تطوير لمستوى معين إلى مستوى أفضل وأرقى وأكمل، ومن وضع معين إلى وضع آخر يشهد له بالتحسين والتطوير.

ومن هنا كانت النظرة العامة للإصلاح واحدة إلاّ أنها تختلف بإختلاف البيئة الإجتماعية والظروف الدينية والفكرية والتشريعية والسياسية والأقتصادية.

أذن فرؤية الإصلاح كمشروع وكتطبيق وكرؤية وكفلسفة تختلف بإختلاف البُنى التكوينية للمجتمعات الإنسانية. وهذه المقاييس أو المكاييل هي من أوجدها البشر ووضعها الواضعون على مرّ العصور. أمّا المقياس الإلهي للإصلاح فهو واحد وهو إصلاح واحد يتناسب مع كلّ العصور ومع كلّ المجتمعات ومع كلّ البشر.

فمنذ أن خلق الله البشر وأسكنهم أرضه وأرتعهم خيرات الطبيعة وأمّدهم بالفكر والثقافة والعلم والدين كانت الرؤية الإلهية للحياة رؤية واحدة منذ ذلك الحين وإلى يومنا الحاضر، هذه الرؤية تتلخص في كون الحياة هي مركب وهي إنسجام بين المكونات المادية والمكونات المعنوية وهي نظام مُنَظم من الله في سبيل تكامل الإنسان وإنّ التشريع والقانون ما وجد إلاّ لخدمة البشر وتنظيم الأمور الحياتية وصولاً إلى الكمال المنشود. وإنّ هذا القانون الإلهي ما جاء إلاّ في سبيل تحقيق العدالة الإلهية في حكم المجتمعات الإنسانية. ولو أنّ المجتمع الإنساني توافق مع هذه الأحكام الإلهية وخضع لها بدافع الثقة والإطمئنان بثواب الله، ما كانت هناك حاجة للعقاب وما كانت هناك ظُلامات إجتماعية، وما كانت هناك دوافع ونزعات شيطانية وشريرة تعتري الذات البشرية.

أما البشر الذين خرجوا عن هذه الرؤية الإلهية خرجوا عن هذا النظام الإلهي خرجوا عن أطُر الدين، خرجوا عن إرادة الله التي لو أنقاد لها البشر لكفاهم الكثير من المعوقات والانثلامات والآهات والإنحرافات.

ومن هنا كانت مقاييس الإصلاح والنظرة إليه والتجاوب معهُ تختلف من مكان إلى مكان ومن بيئة إلى بيئة ومن مجتمع إلى مجتمع ومن دينٍ إلى دين ومن عصرٍ إلى عصر لأن هذه العناصر خرجت عن الرغبة الإلهية، وعن القانون الإلهي خاضعة لقوانينها الوضعية ورغباتها الآنية واتجاهاتها العاطفية المحكومة بنزعاتها ومصالحها الشخصية. متناسية حُكم الله الذي يحتوي الإنسانية جمعاء بغطاء الحقيقة الإلهي الذي يُعادل بين الناس يُعادل بين كُلّ شيء ويُعطي حقّ كلّ شيء.

منحرفين عن الخط الواضح الذي وضعه الله للبشر حيث كان الحكم العادل والإطروحة الكاملة، والتطوير الشامل على يد الرسالة الإلهية الإسلامية السمحاء. ولو أنضوى العالم الإنساني بُكلّ مجتمعاته تحت راية الإسلام لكانت الرؤية الإجتماعية واحدة ولكانت أحكام الإصلاح واحدة ولكان المقياس والمكيال واحداً.

وبمرور الزمن أصبحت نظرة العرب إلى الإصلاح تختلف إختلافاً كبيراً عن نظرة الإسلام للإصلاح ذلك لأنّ ظروف المجتمع الإسلامي مختلفة عن ظروف المجتمع الغربي ولأنّ بيئة المجتمع الإسلامي تختلف عن بيئة المجتمع الغربي، ولأنّ البنية التكوينية والتشريعية للمجتمع الإسلامي ليست هي البنية التكوينية والتشريعية للمجتمعات الغربية وجاءت رؤية الإسلام للإصلاح الإجتماعي رؤية مختلفة رؤية نابعة عن تطوّر فكري عن تطورٍ حضّاري عن تطور ثقافي أرتفع بالإنسان والمجتمع الإنساني عن أطواره الجاهلية إلى أطوار متقدمة.

عالج هذا التطور الفكري الحياة الجديدة في مختلف جوانبها وبرؤية شمولية تواكب كلّ الأمور ولذا كانت رؤية الإسلام للإصلاح الاجتماعي رؤية مستمدة

من منطلق الثوابت الأساسية للشريعة الإسلامية معالجاً الحياة من واقع هذه الشريعة حيث تقترن الأصول النظرية بالوقائع العملية وتلتقي النظرية بالعملية الأيدلوجية وتستمدُ الأسسُ العلمية والعملية من واقع الحكمة النظرية الإسلامية ذات الخصائص والثوابت غير القابلة للتغيير والتبديل مع مرونة في التفرع بالأستناد على الإجتهاد والتطور الفكري الذي يتطوّر بمرور الزمن وبما يتوافق مع الشريعة ولذا يُعدُ امتداداً لها لا تنافياً معها.

ولهذا كانت لهذه الرؤية روح تطورّية تحتفظ بالقوام الأصيل مع تهذيب جديد وتطوير أجتهادي يضمن سلامة الشريعة مع شكل أمتدادي لها يضمن تطوريتها مع سلامة أصولها لذا كان الإصلاح من واقع الشريعة الإسلامية مختلفاً كُلّ الإختلاف عن أنظمة الإصلاح العالمية الأخرى ولأنّ الإصلاح في ضوء الإسلام ينظرُ نظرة شمولية، تمتد في كل جوانب الحياة، وتنبع من الباطن إلى الظاهر، ومن الظاهر إلى الباطن فهو لا يعترف بالإصلاح الظاهري فقط بل بالإصلاح الباطني الجذري معتمداً في هذا على فكرة أنّ الإنسان والمجتمع الإنساني لا يصلحان إلا بإيجاد حل إصلاحي ذاتي نفسي ينبع عن باطن النفس ويعتلي إلى ظاهرها، يبتدئ بالفرد ثمّ المجتمع ككلٍ بوصفه مجموعة أفراد وينطلق الإسلام من مبدأ أنّ الإنسان كائن ذو مستوى واحدٍ مُتركبٍ من مستويين (مادي ومعنوي) وبمعنى أدق (جسد وروح) وبمعنى آخر (ظاهر وباطن) وبمعنى آخر (نفس وسلوك) أي أفكار وعواطف وأخلاق.

لأن، الشكل الظاهري للإنسان الذي يتفاعل به مع المجتمع هو مرحلة أخيرة من مراحل التكوين الشخصي لهذا الإنسان ولأنّ الافعال والأقوال المتمثلة بالسلوك هي المرحلة الآخيرة الناتجة من إيجاد عمل تناسقي بين جانب الشخصية الفكري وجانبها العاطفي ولذا كان الإسلام يعالج الخلل من باطن الإنسان من باطن المجتمع يتعامل مع الذات يتغلغل في النفس يستأصل المرض من جذوره يستأصل الضرر بتطهيره وغسله غسلاً روحياً معنوياً نابعاً عن رؤية تطهيرية تحاول

تحفيز الإنسان على التطهير الذاتي من الذنوب من الرياء من الحقد من الشهوانية من حُبّ الدنيا من حُبّ الذات من حُبّ الشيطان من الفخر من الكبر من الحسد من النميمة من الغيبة من العصبية وهذا التطهير الروحي كانت له في الأسلام عدّة سُبُل وعدة وسائل وعدّة مجالات نزلت كأطروحه سماوية إلهية يرومُ بها الله تطهير الذات من أدرانها الجاهلية من أدرانها القبلية من أدرانها الشيطانية ويوجد لها حالة من التطهُرالحضاري التطهُر المعنوي الروحي بغرسِ القيمة العليا وإحياء المبدأ الصالح بإحياء الرفعة الروحية الرفعة الذاتية بطاعةِ الله والمسير وبما يتوافق وهذه الطاعة وإنتهاج سبل الطاعة المفروضة التي أختارها الله للبشر لا التي تختارها الأهواء والرغبات والمصالح للناس والمجتمع وكانت هذه هي المبادئ والأسس الرسالية لنظرية الإصلاح التي جاء بها الإمام علي (عليه السلام) قاصداً بها تقويم المجتمع والأرتفاع به من مستوى إلى مستوى أرقى وأفضل وإنتشاله من حالة الجهل والتخلف والفقر إلى حالة الوعي والتطور الاقتصادي والفكري والثقافي.

كانت هذه هي المبادئ التي أستقاها الإمام من واقع الإسلام ومن واقع الشريعة الإسلامية من واقع قيمة الأنسان في الإسلام من واقع أحترام الله للإنسان من واقع احترام الله للعدالة في المجتمعِ من واقع العدالة الآلهية من التكوين والتشريع وفي ضوء هذه الثوابت زاوجَ الإمام في رسالتهِ الإصلاحية بين واقعين هما الطبيعة والعمل وبين جانبين هما جانب المثالية في الحياة وجانب الواقعية في الحياة وبين مستويين مستوى الفلسفة ومستوى التطبيق وعمل على تطبيق رؤيته الفلسفية ونقلها من واقعها اللامحسوس إلى الواقع المحسوس ومن ثمّ إيجاد الشخصية اللامحسوسة للإسلام لتُمثلّ نموذجاً واقعياً ضافياً في الحياة يتفاعل ويتعامل مع الوجود تعاملاً راقياً تعاملاً حضارياً بلا انثلامات أو تشوّهات، وأعتبارات زائفة.

فأنطلق الإمام في فكرهِ الإصلاحي ليُطَهر النفوس من أدرانها الجاهلية ويغسلها من ذنوبها الكبيرة ويُعَمقُ فيها رؤية الحياة عن طريق عين البصيرة لا العين البصيرة ويوجد للنفس حالةً من التوازن تبين صالحها وطالحها وبين أهوائها ومُراقبة هذه الأهواء وبين الرغبات والمحاسبة على هذه الرغبات وأن لا تكون النفس قيّماً على السلوك وأن تختلط هذه النفس العاطفية الاهوائية بالعقل التفكري العلمي وأن تكون هذه النفس كفّة متوازنة مع العقل الباطن وبالتالي تُنتج السلوك الاخلاقي المتوازن المثالي للشخص المسلم أي تمنحه واجهة للسلوك الأخلاقي المثالي للمجتمع الأسلامي.ولنقف الآن عند هذه الخطبة التي تتضح فيها رؤية الأمام للإسلام وكونهِ أصلح الأنظمة العالمية في قيادة المجتمعات البشرية وبما يتسمُ به من خصائص وميزات تجعله أفضل الأنظمة وأعمقها في التعامل مع الفرد والمجتمع وأكثرها توازناً في التشريع وأكثرها مراعاةً لحالة التواز بين الحاجات الجسميّة المادية في الإنسان وبين الحاجات المعنوية والروحية. يقول الإمام في معرض هذه الخطبة: ((الحمدُ للهِ الذي شرع الإسلام فسّهل شائعهُ لمن ورده وأعّز أركانه على من غالبه،فجعله امنا لمن علقه،وسلما لمن دخل،وبرهانا لمن خاصم به،ونورا لمن استضاء به،وفهما لمن عقل،ولبا لمن تدبر، واية لمن توسم،وتبصرة لمن عزم،وعبرة لمن اتعظ،ولجاة لمن صدق،وثقة لمن توكل وراحة لمن فوّض،وجنة" لمن صبر)) [1].

هذه إذن هي رؤية الإمام للإصلاح وأولوية الإسلام في التصدي لهذا الإصلاح، فالاسلام بأطروحته هو من ينبغي تعميمه على البشر، وهو أصلح نظام يقود العالم نحو الصلاح نحو الإعتدال نحو الحياة السعيدة المثالية لأنّ ((الإسلام عقيدة شاملة نظمّت حياة الإنسان فلم تهمل شأناً من شؤونهِ ولم تغفل جانباً من جوانبهِ وعقيده لها هذه الأحاطة وهذا الشمول لا بّد وأن تُطبعُ بطابعها المعَيّن

(١) نهج البلاغة، ج ١، ١٧٥.

داخل معتنقيها ومظاهر سلوكهم ولا بُدّ أنْ تصوغ وجودهم وفقاً لمعطياتها الخاصّة)) [1].

ولنقف الآن عند هذه الخطبة للإمام تتّضح فيها جوانب من أفضلية الإسلام على باقي الأديان الأخرى. ((ثمّ إنّ هذا الإسلام. دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، واضفاه خيرة خلقه، واقام دعائمه على محبته واذلّ الاديان بعزته، ووضع الملل برفعه، واهان اعداءه بكرامته، وخذل محادّيه بنصره، وهدم اركان الضلالة بركنه، وسقى من عطش من حياضه)) [2].

ومن هنا كانت قوّة الإسلام في الرباط العقائدي ورسوخ مبادئها وعناصرها ومكوناتها كقيمة عليا وكقاعدة تطيبُ بها دواخل وسرائر الفرد ثم تطفو على سطح الواقع بسلوكهِ وأسلوب تعامله مع المحيط والمجتمع وهذا ما ينصُّ عليه خطاب الإمام (عليه السلام) الذي نستخلص منهُ أنّ السلوك هو مظهر عقيدة الفرد وسرائرهِ ودواخلهِ، يقولُ منهُ (عليه السلام):- ((فمن طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه)) [3].

ولهذا كانت ((عقيدة الإنسان هي النافذة التي يطلُّ منها على العالم وهي التي تحدد له أسلوب تعامله مع المحيط المادي والإجتماعي اللذين يكتنفانه)) [4].

وإن الإسلام بتعاليمهِ وأحكامهِ وشرائعهِ وأخلاقياتهِ وسلوكياتهِ لا بدّ أن يكون هو ((النافذة التي يطلُّ منها الإنسان المسلم على العالم لا من غيرها)) [5]، وأن تمثل هذه العقيدة الهوية الشخصية لحاملها لأنّها تطبعه بطابعها الذي يظهر في شخصيتهِ وهي بمثابةِ جواز سفره الذي يتنقل به بين المجتمعات العالمية، وبهذا

---

(١) رسالتنا، السيد محمد باقر الصدر، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٣) م. ن، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٤) رسالتنا، ص ١٠٤.

(٥) رسالتنا، ص ١٠٥.

يكون هذا الجواز هو قناعة المسلم بخياراتهِ وبصواب هذه الخيارات التي تمنحه الحصانة النفسية، الحصانة الذاتية والإطمئنان والثقة الناجمة عن قناعته الثابتة المؤمنهِ بثبات مبدئه وعقيدته وكونها أفضل العقائد وأصلحها لتقود الفرد والمجتمع، وتضع له خارطة الطريق وأصلح السُبل ليسير عليها في مسيرتهِ الحياتية.

ومن هنا لنا أن نقول ((فالاسلام لم يترك المسلم يتخبط في بحثهِ العشوائي عن الموقف المناسب الذي يتعيّن عليه أن يَقفهُ في حياته هذه، بل عيّن له الموقف الواقعي المنطقي الصحيح وطلب إليه أن يلتزمه)) [1].

---

(١) رسالتنا، ص ١٠٥.

الفصل الأول

رسالة الإصلاح والواقع الإجتماعي

المبحث الأول

- أستراتيجية الإمام الإصلاحية والرؤية الشمولية.
- أستراتيجية الإمام الإصلاحية بين الرؤية المكانية والرؤية الزمانية.
- الكوفة قاعدة الإصلاح بين الدوافع الآنية والأبعاد المستقبلية.

المبحث الأول:
أستراتيجية الإمام الإصلاحية والرؤية الشمولية:

حين تزّعم الإمام (عليه السلام) الدولة الإسلامية بمجتمعاتها وكياناتها وأحزابها كان عليه أن يوجد خطّة إصلاحية شمولية تتصلحُ في ضوئها أوضاع المجتمع الإسلامي، وكان الإمام مؤمناً بأنّ الخُطّة الإصلاحية لا بّد أن تكُون شمولية، تنتظم في كُلّ المجالات السياسية والإقتصادية والفكرية والإخلاقية.

وما كان للإمام أن ينطلقَ في تطبيق هذه الخُطّة التي يسعى بها إلى تغيير وتطوير المؤسسات السياسية والإقتصادية في البلاد الإسلامية. ما لم يكُن هناك مجتمع متوافق مع التغيير ومتجاوب مع التطوير ومع الإصلاح مستعد لتقبّل الأمور الجديدة.

والإمام كان على ثقةٍ بأنّ الأمّة ليست على هذا المقدار من المسؤولية والوعي لتتجاوب مع أفكار الإمام الجديدة الطارئةِ على الساحة، وها هو يؤكدّ هذه الرؤية لّما أراده الناس على البيعةِ بعد قتل عثمان ((دعوني والتمسوا غيري، فإنّا مستقبلونَ أمراً له وجوهٌ وألوانٌ، لاتقومُ لهُ القلوبُ ولا تثبُتُ عليه العقولُ وإن الآفاق قد أغامت والمحجّةَ قد تنكّرت وأعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغِ إلى قول القائل وعتبِ العاتبِ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتُمُوهُ أمركم، وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم منّي أميراً))[1].

وإنّ هذا التوافق بين المجتمع والإصلاحات السياسية والإقتصادية كان بحاجةٍ إلى إيجادِ نوع من الحصانةِ الإجتماعية، التي تُحَصّنُ المجتمع عن الإنحراف مع التيارات المعاكسة للإسلام ومع الفئات التي تسعى إلى تغييب معالم الشخصية الإسلامية وطمسها والتعتيم عليها بشتّى الوسائل، وكانت هذه الحصانة

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة ٩٢، ص ١٥٧ - ١٥٨.

الإجتماعية لا بُد من أن تخرج وتنبع من واقع الإسلام، وأن تكون حصانة عقائدية حصانة تُوجّهُ الفرد والإمّة إلى عقيدتهِ الصحيحة حصانة تعيدُ إرتباط الفرد بالإمّة مع الله وأن تكون هذه الحصانة العقائدية هوية شخصية تُمثلّ كيان ورمز وهوية وأستمرار وتواصل مع المعتقدات مع المبادئ الإساسية مع الثوابت الإيمانية مع القيم مع الأخلاق مع سلوكيات الإسلام.

ولهذا كانت من أوائل أهتمامات الإمام في ميدانِ الإصلاح هو في الإصلاح العقائدي الروحي لما لهُ من نتائج في تحصين المجتمع عن الإنحرافات هذا فضلاً عن توجيههِ نفسياً. وأحتلّ هذا الجانب من الإصلاح المتجسّد في تهذيب النفس، وإعدادها لإنجاح عملية الإصلاح أحتلّ جانباً كبيراً من نظريته. وكان يعمد في كُلّ خطاباتهِ،وكتاباتهِ إلى أمرائهِ وولاتهِ وقوّاده وموظفيهِ. أن يتطرّق في هذا الجانب ويَلجُ في هذا الإصلاح قاصداً بهذا إصلاح المجتمع كأفراد وكهيئات حاكمة، وكجهات مسؤولة في الدولة.

فضلاً عن هذا فإنّ الإمام رام بهذا الإصلاح العقائدي الروحي والنفسي أن يوجدَ للمجتمع حالة من التحصّن ضد تيارات الفتن والأهواء والشبهات، التي عصفت بالمجتمع الإسلامي بقوة وبشراسة بعد وفاة الرسول وأبّان تولي الإمام زمام السلطة. وقد أخذَ الإمام على عاتقهِ مسؤولية إعداد هذا المجتمع فكرياً حتى يكون قادراً على إستعادةِ شخصيتهِ الإسلامية وإعادتها إلى سابق شموخها، وكبريائها. في عهد الرسول (صلى الله عليهِ وآلهِ).

وإن إعادة صياغة الشخصية الإسلامية إستلزم الحرص على إحياء الجوانب الروحية في المجتمع إحياء الجوانب الفكرية ووصولاً إلى إيجاد السلوكيات الإسلامية المثالية التي تُمثّل مظهر الإسلام وهويتهِ الطافية على سطح الواقع وبنكهة وروحية إسلامية خالية وخالصة عن كلّ شائبة، وعن كُلّ إنحراف فكري أو تطرفي وعن كُلّ شُبهةٍ أو شكٍ أو كفرٍ، أو تنازعٍ، أو تعُمقٍ وأدرك الإمام أنّ أي أصلاح إداري على مستوى المؤسسات السياسية أو الإقتصادية. لن يؤتي أُكُلَهُ ما

لم يقدّم له بالاصلاح الذاتي النفسي والروحي لأنّ المجتمع ما لم يُقوّم نفسياً ويحصّن عقائدياً ويُغذى بالغذاء الروحي اللازم. الذي يَصلُحُ في هديهِ دواخلِ الفردِ وسرائرِهِ، لن يكونَ هناك إصلاح على نطاق الأمّة، ولن تنتظم أمورُها الدينية والسياسية والإقتصادية ما لم تحصل أنظمة داخلية نفسية تستشعرُ فيها قوّة العقيدة وثباتها وانصهارها في ذات الفرد حتّى تكون هي الموجه له، هي القائد له، لا أن يكونَ تابعاً لنزواته وأهوائه ورغباتهِ الحزبية ومصالحة الشخصية ونزعاته الشيطانية.

أن يكون تابعاً لعقيدته، لا للتيارات الإنحرافية، والفئات الضالّة والمُضلّة، لا للتوجهات البعيدة عن الإسلام في روحها ومبادئها وأسسها أن يكون مستعداً للتصالح مع ذاتهِ الخيّرة والتنافر مع ذاتهِ الشريرة.

أن يكون قابلاً للتفاوض مع الله مع طاعة الله مع رضا الله ومع رغبتِهِ في التغيير في التعاطي مع الوضع الجديد. ولأنّ التغيير المادّي عن طريقِ الخطط والرؤى السياسية والعسكرية والإقتصادية الموضوعة في سبيل التغيير تغيير البنية الإدارية للدولة الإسلامية غير قادرة على النهوض ما لم تصلح (البُنى) الذاتية التحتية للأفراد وصولاً إلى المجتمع و ((ليس المجتمع ظاهرة ماديّة فحسب وإنّما هو ظاهرة معنوية أيضاً لأنّ المجتمع هو الصيغة المنظورة لعقيدةٍ ما توّجه حياة طائفةٍ من الناس وتطبعها بطابعها)) [1].

ومن هنا ((فمن الضروري لإصلاح الحياة الإنسانية وتهذيبها أن يتناولَ الإصلاحُ الإنسان وأن يعادُ تكوينهِ من الداخل على نحوٍ يجعلهُ متجاوباً منسجماً مع فطرتهِ ومع أهدافهِ العليا، ومع واقعهِ)) [2].وقد أنطلق الإمام في هذه الفكرة مؤمناً بذلك الإرتباط بين المؤسسات الحاكمة وبين المجتمع من جهة وبين كون هذه

---

(١) رسالتنا، ص ١٠٣.

(٢) رسالتنا، ص ٩٩.

المؤسسات مكوّنة من مجموعة أفراد، وبالتالي فهم مجموعة أناس لهم رغباتهم ونوازعهم الذاتية المتراوحة بين الخير والشر، ولهم أنتماءاتهم، وإنّ تحصين هذه المجاميع الفردية القائمة على امور الرعية وتوعيتها توعية عقائدية روحية، أصبحت بهذا قادرة على مقاومة الرغبات ومحاربة النزعات، والتغلب على الأهواء والنفس الأمّارة بالسوء. وبهذا تكون قادرة على التعاطي والتفاعل مع المجتمع وصولاً إلى أرضائهِ، وتحقيق حقوقهِ وتأدية واجباتهِ وبما تسترعيه الإدارة الإلهية، والاحكام الإسلامية، والسنن والشرائع الدينية ولذا ((فمن الضروري أيضاً لإصلاح الحياة التي يمارس الإنسان حياتهُ في أطُرها وأن يُطوّر هذه المؤسسات نحو الأفضل وحين يتمُ هذا وذاك نضمن الأ ينحرف الأنسان بالمؤسسات الأجتماعية نحو الشر والفساد ونضمن الأ تسهم المؤسسات الإجتماعية في إفساد الإنسان وبعثه إلى صنع الشر وممارستهِ)) [1].

وكان على الإمام في هذه الفترة الحرجة من حياة الأمّة أن يوحّد نظرهُ الإصلاحي ويوجهه وجهة واحدة، على الرغم من إنطلاقهِ بمستويين نظري وعملي، كان عليهِ أن يوفّق مجرى الإصلاح النظري مع مجرى الإصلاح العملي التطبيقي.

وكان عليه أن يوّحد بين أفكارهِ التعبوية في إنهاض المستوى الفكري والروحي للأمّة. وبين أفكاره العملية والإيديولوجية في تنظيم وإدارة شوون المجتمع الإسلامي السياسية والإقتصادية.

والإمام كان على ثقةٍ بأنّ العمل بين المستويين لا بُد من أن يكون مُتزامناً مترافقاً لأنَ ا التمهُل يعني تضييع الوقت وتفويت للفرصة الموآتية للإمام بعد أن أستلمَ زمام السلطة فكان عليهِ أن يوازنَ بينهما وأن يزاوج بينهما، وأن يضع النظرية طور التنفيذ والعمل وبشكل مباشرٍ غيرُ قابلٍ للإنتظار غير قابل للتماهل

---

(١) رسالتنا، ص ٩٩.

والتسامح لأنّ المجتمع كان على شفا حفرةٍ من النار وكانت النجاة موجودة لو كان العمل والإجتهاد موجوداً. وكان عليهِ أن يستنفر المجتمع والمخلصين المؤمنين بقضية الإصلاح الموقنين بضرورة الكفاح والجهاد في سبيل الأسلام وشموخ الأسلام.

أذن فقد كانت مرحلة خطيرة مرحلة واعدة بالكثير مرحلة حافلة بالاحداث مرحلة تستحق المجازفة والتضحية والإيثار كان هنا يقظة وتحديد مسارات وأختيار بين الحق والباطل اختيار بين طريقين بين الصمود والإلتحاق بمعسكر الإمام وصولاً إلى الأهداف والغايات السامية النبيلة، أو الإنحياز عنه ومساندة الباطل وأهل الباطل، الفئات الضالّة المناوئهِ للإمام (عليه السلام).

أستراتيجية الإمام الإصلاحية بين الرؤية المكانية والرؤية الزمانية: الكوفة قاعدة الإصلاح بين الدوافع الآنية والأبعاد المستقبلية:

بعد أن بويع الإمام (عليه السلام) على الخلافة في المدينة سرعان ما ألتحق بالكوفة مُتّخذاً منها عاصمة للدولة الإسلامية وبلا شك أنّ أختيار الكوفة عاصمة للدولة لم يكن إختياراً عشوائياً ولا توُجهاً إعتباطياً. بل كان إجراءٌ حمل الكثير من الرؤى والأهداف التي كانت سبباً في رسم تاريخ الكوفة القديم، وحاضرها التليد ومستقبلها الواعد.

وأذن فقد أضحت الكوفة عاصمة للإصلاح عاصمة للجهاد حين واكبت تاريخ الإمام القيادي والجهادي وحملت شعار دولتِهِ الموّحدة، عبر مساندتها ونصرتها وجهادها ولنقف الآن عند أهمّ الأسباب والدوافع التي حدت بالإمام إلى إختيار الكوفة قاعدة للإصلاح والجهاد؟ ولماذا لم يقف الإمام عند حواضر أخرى كالمدينة أو مكة أو الشام.

١) إنّ الإمام بعدأن أستلم زمام السلطة كان يحمل فكرة تغيير إصلاحي تطويري، أذن فهو بحاجة إلى قاعدة دعم شعبية وقوّة إسناد جماهيرية لتدعم عملية الإصلاح والتطوير ومن أجل بناء قاعدة إصلاحية عالمية تكون محط إنطلاق للإمام ومركزاً للتوجيه وإصدار الأوامر والقرارات والتعليمات للولاة والأمراء والقادة وعلى إمتداد الدولة الإسلامية، حيثُ تُصبح الكوفة بيئة مركزية للإصلاحات الروحية والسياسية والإقتصادية وإذن فالإمام كان بحاجة ماسّة إلى قاعدة شعبية تتبّنى الخطة الإصلاحية وتعمل على تنفيذها وتطبيقها على سطح الواقع ولم يكن بإمكان الإمام أن يؤسس مثل هذه القاعدة الشعبية في المدينة ولا مكة لأنّ المجتمع المكي والمدني لم يكن ليساند الإمام في مسيرتِهِ الإصلاحية، لأن الإمام بحكم إستقراره في المدينة وقبل أن يلي زعامة الأمّة وبحكم مسيرتِهِ الجهادية الطويلة التي قضاها مع المجتمع المدني والمكي في جهاد قريش والمشركين قد

تولّدت لديه نزعة ومعرفة عميقة بأفراد هذا المجتمع الذي انحرف روحياً وعقائدياً بعد وفاة الرسول، فضلاً عن تواجد المنافقين ممّن كان يُكن العداء والبغض للإمام ولم يكن خروج الإمام من المدينة بدافع الخوف أو الآضطراب بل إنّ الإمام أراد أن يؤسس عاصمة إسلامية وبيئة مركزية خالصة العقيدة والولاء للأسلام ولأهل بيت النبوة عاصمة تتفجّر حضارةً وثقافةً وعلماً وأدباً، عاصمة تكون موضعاً ومحطاً للبناء وللإعمار والتطوير أذن فالإمام كان بحاجة إلى دعم شعبي يعمل ويجتهد ولم يكن ليجد هذه القاعدة في أيٍّ من المجتمعات الأخرى كالمدينة أو مكة أو الشام. ودلالات ما نقول واضحة في نكث البيعة من قبل بعض أهالي المجتمع المدني والمكي وتوطئهم مع (طلحة والزبيروعائشة) في سبيل الإطاحة بالامام، ما أن تولىّ زمام السلطة.

ولهذا فقد أيقن الإمام أن مجتمع المدينة بمحاسنِه ومساوئه غير قادر على تحمّل مسؤولية النضال ومسؤولية العمل والجهاد في سبيل التغيير، وإحلال النظام وبناء مجتمع قائم على دعائم الإعتقاد والإخلاص المطلق.

وقد أيقن الإمام أنّ الكوفة التي كانت مختلفةً كثيراً عن مكة والمدينة، ستكون مؤهّلة إجتماعياً لحمل الرسالة الإصلاحية للإمام. لأن هذا المجتمع لم يكن محملاً بالأحقاد والضغائن والحسرات والغيرة التي حملها القرشيون على الإمام وهم الذين سكنوا مجتمع المدينة. بعد أن أتّخذها الرسول (صلى الله عليه وآله)، عاصمة للدولة الإسلامية.

فهل نتوقّع من هذا المجتمع الذي خذل الإمام كثيراً وفي مواقف كثيرة أن يُشكّل دعماً وإسناداً للإمام في مسيرتِه النضالية؟

أمّا بالنسبة للشام فقد كانت مستبعدة عن فكر الإمام فهي أيضاً لم تكن مؤهّلة لحمل رسالة الإصلاح ولأنّ المجتمع الشامي الذي كان يرضخ لسلطة معاوية لفترة زمنية لم يكن من السهل لهذا المجتمع أن يتجاوب مع الإمام بعد أن

سمّمَ معاوية أفكارهُ وعمل ما عمل في سبيل إفساد وتشويه صورة الإمام أمام هذا المجتمع.

٢) إنّ الإمام أراد أن يصنع قاعدة ومركزاً فكرياً إسلامياً مهماً - يتبنّى الفكر الإسلامي الصحيح، للإمام علي وأهل بيت النبوة وقاعدة شعبية صحيحة الرؤى تتبنى، فكر الأئمة وتُمثلّ تُربة خصبة لإحياء التراث والفكر الإمامي ومن هنا تكون الكوفة هي القاعدة الأولى التي ترعرعت فيها بذرة المذهب الشيعي والحضارة الإسلامية، وقد كان لوجود الامام في الكوفة أثره الواضح في توسيع آفاق الفكر والمعرفة للمجتمع الكوفي ففي مسجد الكوفة ومن منبره الشريف كان الإمام يتواصل مع المجتمع الكوفي معرفياً وعلمياً وأدبياً وفقهياً وتشريعياً عن طريق توجيه الخطاب حيثُ كان الخطاب الوسيلة المثلى في تهذيب المجتمع الكوفي ورفع مستوياتهِ الفكرية وتوسيع آفاقهِ المعرفية، ومن هنا يُعتبر مسجد الكوفة أول مدرسة إصلاحية يقودُها الإمام (عليه السلام) يمثل مركزاً للتربية والتعليم والتوجيه والوعظ والإرشاد.

٣) إنّ مناقشة أسباب أختيار الكوفة عاصمة للإمام و قاعدة للإصلاح والجهادلا يمكن الإنفصال بهِ عن موضوع الحتمية الإلهية والتخطيط الربّاني المُسبق قبل استطلاع الأمور استيعاب المواقف والأحداث في الكوفة. ولا يمكن أن نتصوّر إنتقال الإمام المفاجيء من المدينة إلى الكوفة، وفور مبايعتهِ أن يكون هذا الأمر بمعزلٍ عن الأرادة الإلهية التي تقضي بضرورة إرتباط المعصوم في جميع أفعاله وأقواله بأرادة الله.

ومهما حاول الباحث، أن يتعامل مع هذه المسألة بشكل منفصل عن العالم الغيبي أو فكرة التوجيه والتخطيط الربّاني فإنّه لا بُد أن يُسلّم بحتمية هذه المسألة وضرورة إتخاذ هذه الخطوة كجزء من خُطّة إلهية تعمل على تسيير الأمور الإجتماعية والدنيوية، وكجزء من خطة الإصلاح للإمام الموضوعة بوحي من العناية الإلهية وبألهام من الأستراتيجية الربّانية، وما نودُ الوصول إليه هو في

أهمية الكوفة كموقع مكاني إجتماعي يُشكل العامل الأهمّ في عملية تطبيق النظرية الإصلاحية. عن طريق العمل والجهاد الذي سيقوده الإمام برفقة ومساندة المجتمع الكوفي والقبائل الملحقة به فلولا جهاد أهالي الكوفة ومساندتهم للإمام، ما كانت للخطة الإصلاحية أن تتنفّذ عملياً، وتتوسّع تطبيقياً وتترامى وفق مدياتها التي وصلت إليها.

وكل الأمور والإصلاحات وعمليات الجهاد والإجتهاد التي قامت في الكوفة كانت جزءاً من فيض العناية الإلهية، التي رافقت الكوفة في مسيرتها العقائدية ورسالتها الإسلامية الخالصة وإلى يومنا الحاضر.

وإنّ حالة الإنحراف العقائدي الذي أصاب المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول وعلى مدى خمسٍ وعشرين عاماً وحالة السبات المقيت في فهم العقائد الإمامية ان على الإمام التفكير وبشكل بنّاء وجاد في إيجاد مركز وقاعدة مكانية تتبنى العقائد الإمامية التي لم تجد حضناً دافئاً لها في المجتمع المدني، أو المكي وسوف نتناول في المباحث القادمة من هذاالفصل آثار وعواقب ومظاهر الإنقلاب العقائدي والإنحراف الذي حصل في المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول حين تنكّروا للبيعة وللوصايا النبوية.

ولهذا أصبحت العقيدة الإمامية ومنهج الإيمان بإمامة ووصاية أهل بيت النبوة غريباً في الوطن غريبا في الديار، ومن هنا كان لا بُد من إيجاد وطن وإيجاد قاعدة وقوّة شعبية ساندة للعقيدة وللمذهب الإمامي، وقد كان ذلك الوطن وتلك القاعدة الساندة، وتلك القوّة الشعبية الجماهيرية موجودة في الكوفة.

أما الأبعاد المستقبلية التي رام الامام الوصول اليها في أختيار الكوفة قاعدة للإصلاح والجهاد فيمكن تلخيصها بهذه النقاط:-

١ـ أن تكون الكوفة مركزاً فكرياً، مركزاً حضارياً مركزاً تقدّمياً، يحمل الفكر الإمامي، والرؤية الإسلامية الصحيحة.

٢- أن تكون الكوفة قاعدة شعبية وقوة جماهيرية لأحتضان العقيدة الإمامية وإسناد المذهب الشيعي والذي لم يجد من يرعاه في مكة أو المدينة أو الشام.

٣- أن تكون الكوفة، قاعدة شعبية جهادية مُسلّحة تتحمل أعباء الجهاد، وتساند الأئمة وتحتضن حملاتهم وثوراتهم ضد أنظمة الأستبداد والعبودية.

٤- لقد كان للإمام رؤية ثاقبة، وتوجُه يتحدى الأزمنة والطواغيت تتلخص هذه الرؤية في أن تكون الكوفة حاضرة وعاصمة وقاعدة ومركزاً يحتضن الثورة المهدوية، والنهضةالمستقبلية للإمام المهدي المنتظر (عجّل اللهُ فرجُه الشريف).

المبحث الثاني

رسالة الإصلاح والواقع الإجتماعي

- بعد وفاة الرسول وقبل خلافة الإمام (عليه السلام).
- الواقع الإجتماعي وشخصية الإمام (عليه السلام).
- المجتمع الإسلامي والإنقلاب العقائدي بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله).
- المجتمع الإسلامي والإنحراف عن خطّ الإمامة.
- الإنحراف العقائدي وآثاره الإجتماعية.

الواقع الإجتماعي أبّان وفاة الرسول وشخصية الإمام (عليه السلام):

خلق اللهُ (سبحانه وتعالى) خليقتهِ من بني البشر، وأسكنهم أرضهُ وبسط لهم خيراتها ونعمها وسخر لهم الطبيعة بما ترفل به من مظاهر النعيم والراحة والخيرات وسخر لهم المخلوقات الأخرى الحيوانية والنباتية وجعلها في متناول أيديهم وموضع تصرفهم ومحطاً لرحالهم وجعل الحياة الدنيا بما فيها، من لذائذ ومتع وخيرات وشهوات في مقتبل إرادتهم على أن يتواصلوا مع هذه النعم بالشكر والعمل الصالح، والعطاء النبيل ويتوجهوا لله بالإستغفار والقربة والتقارب والألفة ولَما بَدّل أكثر خلق الله عهدهم وتنافروا عن طاعتهِ وباعُوا معتقداتهم بالشك وأعمالهم بالأهمال وعباداتهم بالمعصية والحق بالأستهزاء والتوبة بالإغترار والإستغفار بالتكبُر وحينذاك ((أصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لَما بدّل أكثر خلقهِ عهد الله اليهم، فجهلوا حقه، واتخذوا الانداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته،فبعث فيهم رسله، وواتر اليهم انبياءه،ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجواعليهم بالتبليغ،ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم الايات المقدرة،من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم،واجال تفنيهم، واوصاب تهرمهم، وأحداثٍ تتابع عليهم)) [1].

وكان أن مضت الدهور وتعددت الأزمان على الخليقة وتواترت الأديان السماوية والاطروحات الإلهية المبعوثة إليهم وأختلفت الأنظمة الوضعية الحاكمة على الأمم والمجتمعات بين الصالحة والفاسدة وكانت خاتمة الأديان وصالح البشرية جمعاء وميزان الإنسانية في الرسالة الإسلامية، التي جاءت رحمةً حين

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٢٨-٢٩.

((بعث الله سبحانه محمداً رسول اللهِ (صلى الله عليه وآله) لإنجاز عدتهِ وإتمام نبوّته مأخوذاً على النبيين ميثاقهُ،مشهورة سماته،كريما ميلاده، واهل الارض يومئذ ملل متفرقة واهواء منتشرة، وطرائق مشتتة، بين مشبه لله بخلقه،او ملحد في اسمه، او مشير الى غيره،فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانهِ من الجهالةِ)) [1]، فكان الإسلام هو الحقّ والحقيقة وهو النظام الأكثر إعتدالاً والميزان الأرجح في إقامة القسط والعدالة الإجتماعية وكانت الرسالة السماوية المثالية، المُتّسمَةِ بالإحاطة والشمول بحقائق الأمور، وتفصيلات الكون وجزئيات العالم، وكان النظام الأكثر لزوماً للماضي، والأوضح في رؤية الحاضر والأعمق في بيان المستقبل، فجاءت الأطروحة الإسلامية، عالمية ذات أبعاد إنسانية، تنصهر في بوتقتها المجتمعات وتتسامى العصبيّات والفروقات وتتكاثف الجهود والغايات لإصلاح الإنسان وكان للرسول الاعظم أن يقيم دولة الحقّ دولة العدالة والقانون الدولة ذات الشخصية الإسلامية الراسخة الجذور الواضحة المعالم المتعدّدة المفاصل، دولة الله في الأرض دولة الحق دولة الميزان دولة السلام والإئتلاف والتلاحُم والتصادق والتآخي.

وكان أن أنقضى القضاء ووقع القدر حيثُ ((أختار سبحانُه وتعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، لقاءهُ ورضى له ما عندهُ، وأكرمهُ عن دار الدنيا ورغب بهِ عن مقارنةِ البلوى فقبضه إليه كريماً صلى الله عليهِ وآلهِ)) [2].

ولم يترك الرسولُ (صلّى اللهُ عليهِ وآله) أمّتَهُ تتخبّط في مهاوي الإختلاف ولا الرسالة في معرض البدع والشبهات بل خلّف فيهم الثقلان كتاب الله والعترة.

و((الصحاح الحاكمة بوجوب التمسُّك بالثقلين متواترة وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافره. وقد صدع بها رسول الله صلى الله عليهِ وآله وسلّم

---

(١) م. ن، ج١، ص ٢٩ -٣٠.

(٢) م. ن، ج١، ص ٣٠.

في مواقف له شتّى، تارة يوم غدير خم كما سمعت وتارة يوم عرفة في حجة الوداع، وتارة بعد إنصرافهِ من الطائف ومرة من على منبرهِ في المدينة، وأخرى في حُجرَتِهِ المباركة في مرضِهِ)) [1].

فقد أوصى الرسول بوجوب التمسُّك بالكتاب مقترناً بالعترة الطاهرة من أهل بيت النبوة (عليهم أفضل الصلاة والسلام). يقولُ الإمامُ (عليه السلام) في أهمية الأخذ بالكتاب:

((كتابَ ربِّكم فيكم مبيِّناً حلالهُ وحرامهُ وفرائضهُ وفضائلهُ وناسخهُ ومنسُوخهُ... مُوسّع في أقصَاهُ)) [2]، ثم يقولُ (عليه السلام) في العترة الطاهرة من أهل بيت النبوة وكونهم أفضل الخلائق:

((لا يُقاسُ بآلِ مُحمّدٍ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ من هذه الأمّةِ أحدٌ، ولا يُسوّى بهم من جرت نعمتهم عليهِ أبداً)) [3]، وهم الأوصياء والأولياء، على الأمّة والبشرية جمعاء فمن أهتدى بهم فاز وسعد ومن مرق عنهم خسر وشقي لأنهم:- ((أساسُ الدّين وعمادُ اليقين، إليهم يفيء الغالي وبهم يُلحقُ التّالي ولهم خصائص حقّ الولايةِ وفيهم الوصيّةِ والوراثَةُ)) [4].

وكانت هذه هي وصايا الرسول للأمّة كتاب الله مقروناً بالعترة الطاهرة من أهل بيت النبوة (عليهم أفضل الصلاة والسلام) ولأنّ الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ) كان يعلم وعلى ثقةٍ بأنّ قيادة الأمّة الإسلاميّة وتدبير شؤون المجتمع والإهتمام بشؤونهِ السياسيّة والإقتصادية، ورعاية أفراد المجتمع فكرياً وعقائدياً، ليست بالمهمّة السهلة، ولا بالأمر الهيّن ولم تكُن مهمة كهذه وبهذهِ الخصوصيّة وتلك الصعوبة وتلك المسؤوليّة لتُناط بأيّ إنسان عادي أو شخصية إعتيادية ذات

---

(١) المراجعات، الإمام عبد الحسين شرف الدين، ص٢٧.

(٢) نهج البلاغة، ج١، ص ٣٠ -٣١.

(٣) م. ن، ج١، ص ٣٤.

(٤) م. ن، ج١، ص ٣٤.

مؤهلات بسيطة وقصور ذاتي موجود في كُلّ البشر، ما خلا الأولياء، ممّن تولوا الله فأغدق عليهم بولايتهِ وبرعايتهِ الربّانيّة، ومنّ عليهم بعبوديّتهِ، وطاعتهِ وقربهم إلى حياضهِ وأوردهم مشاربَهُ، وطارحهم علمهُ وأصدقهم كلمتهُ وأرسلهم رُسلاً وَ أعلاماً إلى خليفتهِ، وكانت مُهمّة القيادة ومسؤوليةِ الرسالة وصيانة العقيدة تقعُ على عاتق الأئمة من أهل بيت النبوة وعلى رأسهم الإمام عليّ أبنُ أبي طالبٍ (عليه وعليهم السلام)، ولا نعجب من هذا الحُكم لأنّ ((من أحاط بسيرة النبي صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم، في تأسيس دولة الإسلام، وتشريع أحكامها وتمهيد قواعدها، وسنّ قوانينها وتنظيم شؤونها عن الله عزوجل يجد علياً وزير رسول الله في أمـرهِ، وظهـيره علـى عـدوه، وعيـة علمـه ووارث حكمـه،وولي عهده،وصاحب الامر من بعده،ومن وقف على اقوال النبي وافعاله، في حله وترحاله صلى الله عليه واله وسلم، يجد نصوصه في ذلك متواترة من مبدا امره الى منتهى عُمرهِ))[1].

وهو الوصيّ المنتخب من الله المُنصّب بإرادتهِ تحقيقاً لطاعتهِ وإعظاماً لنعمتهِ على الأمّة الإسلاميّة [2] وبغض النظر عن عصمتهِ الإماميّة وأحقيتهِ الشرعيّة في الخلافة والقيادة فهو إنسان صاحب شخصية رسالية مثالية تتكامل في جوانبها الفكرية والروحيّة والسلوكية وكان له أحقيّة قيادة الأمّة والإنطلاق بها نحو التقدّم والتطوّر والتعبئة الفكرية والإيمانية والإخلاقية فضلاً عن تدبير أمورها السياسية والإقتصادية، وكان لهُ أن يُحقّق ما حقّقَ الرسول من منجزات وأعمال لما يمتلك من فكرٍ تقدميٍ وخلفية معرفية وعلمية وعقلية إنفتاحية، هذا فضلاً على شخصيتهِ الإجتماعيّة النزّاعة إلى الخير وحب الناس والالتحام بهم والتواصل معهم. وما أحوج الأمّة في هذه الفترة الحرجة أبّان رحيل الرسول، وغياب القائد الروحي

---

(١) المراجعات، الإمام عبد الحسين شرف الدين، ص١٢٣.

(٢) حديث الغدير ينظر: مناقب عليّ ابنُ أبي طالب، ابن المغازلي، ص ٣١.

إلى مثل عليّ أبنِ أبي طالبِ (عليه السلام) والذي يُمثّلُ إمتداداً للرسول في شخصِه، وروحه وعلمه وأخلاقياته وسلوكياته ما أحوج الأمّة في ذلك الظرف الطارئ إلى مثل هذه الشخصية القيادية ذات التوجهات المثالية، والأبعاد والمؤهلات الفردية والتي تشكل بمجملها الرمز المثالي للأمّة الذي يجب أن يكون محلَ إنقيادٍ لها وموضوع ثقةٍ تقتدي به في الأقوال وتتمثله في السلوكيات والأفعال وترجعُ إليه في معالجة الهموم والأحوال هذا الرجل الذي يؤمن بأنّ:

((آلة الرياسة سعة الصّدر)) [1]، هذا الرجل الذي يؤمن بأنّ أولى الناس بمحمدٍ صلى الله عليه وآله هو أعلمهم بما جاؤوا به.

يقول الإمام في معرض هذا المعنى:

((إنّ أولى النّاس بالأنبياء أعلمهم بما جاءَ به)) [2]. وهو الذي يرى أنّ أولى الناس في خلافة مُحمد وقيادة المجتمع من بعده هو أعلمُ الناس برسالة محمد (صلى الله عليه وآله)، ((إنّ وليّ محمدٍ من أطاع الله، وإن بعدت لحمتهُ وإنّ عدوّ محمّدٍ من عصى الله، وإن قُربت قرابتُه)) [3]، ومن هنا يكون الإمام علي (عليه السلام)، أولى النّاس بالرسول حيّاً وميّتاً وهو أحقُ الناس في خلافتهِ ووراثة أمر الأمّة من بعدهِ.

يقول الإمام (عليه السلام)

((ولقد علم المستحفظون من أصحاب... لي ولكم)) [4]، وهذه الخطبة غنيّة عن التعريف، صريحة في الكشف والتحليل، واضحة الأبعاد والخطوط والأهداف أراد بها الإمام تذكير هذه الأمّة الجاهلة بالحقّ، المنحرفة عن مسار الحقّ المنقادة خلف الأهواء والمصالح بمنزلتهِ الرفيعة ومرتبتهِ الجليلة التي لم يتسن

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٤٠.

(٢) م. ن، ج٤، ص ٥٢٣.

(٣) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٢٣.

(٤) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٩٧، ص ٣٣٩ - ٣٤٠.

لأي بشرٍ الإرتقاء إليها، يقول الإمام واصفاً درجة قرابتهِ من الرسول فضلاً عن رفيع منزلتهِ لديهِ:

((أنا وضعتُ في الصغر بكلاكل العرب وكسرتُ نواجم قرونِ ربيعةَ ومضر،... وما وجد لي كذبةً في قولٍ، ولا خطلةً في فعلٍ)) [1].

المجتمع الإسلامي والإنقلاب العقائدي بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله):

أوضحنا في التقدمة السابقة، واقع المجتمع الإسلامي، أبّان وفاة الرسول وكيف أنّ المجتمع أستلم وصايا الرسول، وتعليماتهِ بشأن الوصاية والولاية، التي منحها الله لوليّهِ ووصيّهِ على الأرض وخليفة الله في أمّةِ الإسلام عليّ ابنُ ابي طالبٍ (عليه السلام) وبيّنا أنّ وصايا الرسول وتعليماتهِ وتوجيهاتهِ تلخّصت في لزوم القرآن والعترة، ووجوب التمسّك بهما ما شاء الله وأن لايستغني المجتمع الإسلامي عنهما لأنهما سفينة النجاة وإنّ ولاية الإمام هي الإنقاذ للأمّة من خلافاتها ومشاكلها وهمومها وهو أقدرُ الخلائق على النهوض برسالة الإسلام والحفاظ عليها من الإنحراف والمحافظة على الأمّة من التمزّقات والصراعات والأنقسامات.

وكلُ هذه الأمور أوضحناها فضلاً عن التطرّق لموضوع شخص الإمام وأحقيّتهِ في الوصاية والولاية، لما يتمتّعُ بهِ من خصائص وصفات وسلوكيات.

وكان أن وقع المحذور وما أن توفّي الرسول (صلى الله عليه وآله) وإذا بهذه الامة تتنكّر لوصاياه وتتنحى عن أوامرهِ وتعليماتهِ بشأن الولاية والوصاية التي وضعها بيد وزيرهِ وحافظ علمهِ ومستودع حكمتهِ الإمام علي (عليه السلام)

---

(١) م. ن، ج ٢، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

وتُبايع على من لم يكن بالمستوى المطلوب ولا بالدرجة المنصوص عليها، أو المتعارف عليها، وذلك حين تنتخب من هو دون الإمام في كلّ شيء.

وفي الخطبة الشقشقية للإمام يُصوِّر فيها قصّة الخلافة التي حيزت عنه وكان أحقّ الناس بها حيثُ يقول (عليه السلام): ((أما والله لقد تقمصها فلانٌ وأنّه ليعلم أنّ محليّ منها محلّ القُطب من الرحى،ينحدر عني السيل ولا يرقى الي الطير فسدلت دونها ثوبا،وطويت عنها كشحا،وطفقت ارتئي بين ان اصول بيد جذاء، او اصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير،ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه...))[1]، ولنقف الآن عند هذه الخطبة ونستشف منها عدّة أمور، وعدّة قضايا نعتبُرها دليلاً على:

١- إنّ الخلافة، والقيادة الإجتماعية، هي حقٌ شرعيٌ للإمام (عليه السلام)، منصوص عليه من قبل (الله)، ومبلّغ بهِ من قبل الرسول للأمّة. ووجوب الإلتزام بهذا الأمر، وعدم الخروج عنه لكن سرعان ما تلاشت هذه الوصايا الآلهية والنبوية وحيزت الخلافة عن الإمام بمجرد إلتحاق الرسول بالملأ الأعلى.

٢- أنّ الإمام لم يعترض على هذا الأمر ولم يتّجه إلى جهاد هذه الفئة المستحوذة على حقوقهِ في الخلافة وذلك لقلّة أنصاره وتفرُّق المجتمع الإسلامي عنه الذي نكث بيعتهِ في غدير خم[2].

٣- إنّ في صمت الإمام وتجنُّب الإعتراض على هذا العمل والتصرُّف من قبل الصحابة (الذي يُعدُّ خرقاً لإرادة الله) ونكثاً لبيعة الإمام وإنقلاباً على أوامر الرسول وتوصياتهِ وتعليماتهِ وكان في هذا الصمت والسكوت درءاً للفتن وخوفاً على كيان الإسلام من الإنثلامات والإنشقاقات وعلى وحدة المجتمع الإسلامي من الفرقة والشتات وحفاظاً على وحدة الصف الإسلامي والكلمة الإسلامية

---

(١) نهج البلاغة، ج١، الخطبة الشقشقية، ص ٣٥.

(٢) ينظر: روح المعاني، أبو الفضل شهاب الشافعي، ج ٤، ص٢٨٢.

فآلى الإمام على نفسهِ السكون خوفاً من المحذور، لمّا لا طاقة للنّاس عليهِ وفي هذا الوقت من الشورى.

وفي كلام للإمام (عليه السلام) يَصفُ فيهِ إنصراف الأمّة عن دعوتهِ وإستكانتهم عن مناصرتهِ مع علمهم بأنّه أولى الناس بالإتّباع وهو أقرب النّاس إلى الرسول وأخصّهم برسالتهِ وأقربَهم زُلفةً لديهِ وأحقّهم بالوارثة والوصاية.((لم يُسرع أحدٌ قبلي إلى دعوةَ حقٌ وصلةِ رحم، وعائدة كرم. فاسمعوا قولي، وعوا منطقي، عسى ان تروا هذا الامر من بعد هذا اليوم تنتضى في السيوف وتخان فيه العهود، حتى يكون بعضكم ائمة لاهل الضلالة، وشيعةً لأهلِ الجهالة))[1].

ويعجبُ الإمام من أحوال هذا المجتمع وهؤلاء المتكالبين على الخلافة والسلطة يتوارثون أمّة الإسلام وتجربة الرسول وكأنّها مُلك شخصي لأحدهم يتوارثونها فيما بينهم خلسةً وجهراً بغياً وعدواناً على الحقّ حتى أضحى الدين ألعوبةَ بإيدي هؤلاء المستحوذين على السلطة والمال والجاه، وهذا ما نستقرئهُ في هذا النص من الخطبة الشقشقية السالفة الذكر: ((فيا عجباً بينا هو يستقبلها في حياتهِ إذ عقدها.لاخر بعد وفاته لشد ما تشطّرا ضرعيها فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ويخشن مسها ويكثر العثار فيها، والاعتذار منا فصاحبها كراكب الصعبة.،ان اشنق لها خرم، وان اسلس لها تقحم.فمني الناس _لعمر الله _بخبط وشماس، وتلون واعتراض فصبرت على طول المدة وشدة المحنة، حتى اذا مضى لسبيله..جعلها في جماعة زعم اني احدم فيا لله وللشورى متى اعترض الريب في مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر لكنني اسففت اذاسفوا وطرت اذ طاروا.فصغى رجل منهم لضغنه ومال الاخر لصهره مع هن وهن))

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٢٢.

[1]، يقول الإمام: ((ولقد علمتم أنّي أحقُّ النّاس بها من غيري..،ووالله لاسلمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا علي خاصة التماسا لاجر ذلك وفضله، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)) [2].

فالإمام يقُسم بالله ليسلمُن أمر هذه الحكومة لـ (عثمان) ما دام التسليمُ غيرُ ضارٍّ بأمور المسلمين وأمور الرسالة وما دامت الأمة في حصانةٍ عن الفتن والشتات والتفرُّق. ولكن هيهات أن يَسلم أمرَ الإسلام والمجتمع الإسلامي من الإنحراف ما دام الأمرُ بغير رُعاتهِ الحقيقيين، وما دام الإسلام ألعُوبةً بأيدي الجُهّال والغاوين، والمنحرفين، المتهربّين عن طاعة الرسول والله والمتخاذلين عن نصرة الدين المستهترين بأموال الرعية والمتنفذين إجتماعياً، عبر إكتناز أموال الأمّة والمنحرفين عن أحكام الله وسُننهِ ومبادئهِ في حكم الأمّة وبلا تقييم للعدالة الإجتماعية، وبلا إنتباهٍ لحقوق الناس. وكانت هذه هي الصورة الحقيقية التي أحتفظ بها التاريخ لصورة الحياة الإجتماعية أبّان خلافة عثمان، الذي قتلته بطنتهُ وأجهزَ عليهِ عملُهُ، نتيجة إستئثارهِ بحقوق الرعيّة، ذلك حين قام ومعه بنو أبيهِ من قراباتهِ وعشيرتهِ بسرقةِ قوت الأمة وحقوق الفقراء وعطاء الأرامل والأيتام والأستيلاء على الأراضي وتمليكها بغير وجه حقٍّ على الحاشية والأقارب وأبناء العمومة من بني أمية فأجهز عليه عملُهُ ونال منه باطلُ مأخذهِ حتّى قادهُ إلى منيّتهِ وكانت مقتلته على أيدي الطبقّة الغاضبة من أفراد المجتمع الطبقة المعارضة الطبقّة الساخطة على عثمان وعلى سياستهِ الجائرة وهذه الأمُورُ يصوّرُها لنا الإمام في هذا النص من خُطبتهِ الشقشقية حين يقول (عليه السلام): ((إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيلهِ ومعتلفهِ وقام معهُ بنو أميهِ يخضمون مال الله خضمة الأبل نبتةَ الرّبيع إلى أنْ انتكث عليه فتلهُ، وأجهز عليه عمله وكبت به بطنتُهُ)) [3].

---

(١) م. ن، ج١، ص ٣٦ -٣٧-٣٨.

(٢) م.ن،ج١،ص١١٠.

(٣) نهج البلاغة، ج١، ص ٣٨.

ويبدوا أنّ جذور الضلال كانت قد أستحكمت في الأمّة قبل وفاة الرسول ولكن هذا الضّلال العقائدي والإنحراف الروحي والنفسي والفكري لم يظهر جلياً إلاّ أبّان وبعد وفاة الرسول. فما أن توفاه الله وإذا بالأمّة تنقلبُ على أعقابها وتنكصُ عن بيعتها وترتدُ عن عهودها وألتزاماتها تجاه الله ورسوله وتنفرج عن بيعة الإمام متنكرة لوصايا الرسول في الأمّة.

ولنقف الآن عند هذا النص من كتاب الإمام (عليه السلام)، بعثهُ إلى أهل مصر مع مالكِ الأشتر لمّا ولاّه إمارتها ونحاول أن نصل إلى بعض الأمور، وبعض الدلائل التي نستخدمُها كحجج على ما ندّعي ونقول:

((أمّا بَعدُ فإنّ الله سُبحانُه بعث.محمدا صلى الله عليه واله نذيرا.للعالمين، ومهيمنا على المرسلين، فلما مضى عليه السلام تنازع المسلمون الامر من بعده فوالله ما كان يلقى في روعي، ولا يخطر ببالي، ان العرب تزعج هذا الامر من بعده صلى الله عليه واله عن اهل بيته، ولا انهم منحوه عني من بعده، فما راعني الا انثيال الناس عن فلان يبايعونه، فامسكت يدي حتى رايت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد صلى الله عليه واله وتنهنه)) [1].

من خلال هذا النص، لنا أن نستشفّ بعض النقاط الرئيسية التي تمحورت فيه فقد تطرّق الإمام إلى تبيان بعض الأمور المهمة الأمور الفاصلة التي تُمثلّ خطّاً ومنطلقاً وتوضيحاً لبعض الأمور الغامضة التي ألتبس فيها الحق بالباطل والحقائق بالشبهات وعلى الرغم من هذه الإلتباسات والشبهات لنا أن نستلّ الحقيقة من مضانّها الصحيحة ومواردها البعيدة عن الشبهة، التي لا يمكن التشكيكُ بها أو الطعن فيها، وهل هناك مصدرٌ أوثق من (علي بن أبي طالب) وهذه النقاط تتلّخص في: إنّ الأمّة، تنكّرت لوصايا الرّسول وتعاليمهِ التي حثّ فيها وأوصى

---

(١) م. ن، ج٣، ص ٤٨٧ - ٤٨٩.

بلزوم العترة الطاهرة والإنتهاج بنهجهم والتصالح معهم ولأنّهم تُرجمان الحقيقة وحملة الرسالة وورثة الأنبياء ومعدن العلم وكهوف الحكمة وهو تراجمة القرآن وحملة الكتاب فلا قرآن إلاّ معهم، إذن فالأمّة أنحرفت عقائدياً في تخلّفها عن وصايا الرسول ولأنّ الرسول لا ينطق عن الهوى بل هو كلام الله ينطق به وبالتالي فهو عصيان وتنكُر لله ولأوامرهِ وهو تخلّف عن طاعتهِ وبالتالي فهو إنحراف عقائدي روحي وهو إنتكاسة إيمانية واضحة تجسّد فيها ضعف الإرتباط الإعتقادي بالله وبالخلل المبدئي الذي رافقَ هذه العقيدة وخلخل أركانها وزعزع ثوابتها أذن فالأمّة كانت في حالةٍ من الضلال في حالةٍ من الضعف الإيماني في حالة فقدان توازن عقائدي وفي حالة جهل مُقيت ومُميت ومُهلك وكان هذا الإنحراف بداية ونقطة إنطلاق نحو إنحرافات أخرى وعواقب وخيمة أخرى.

ويتّضح موقف الأمّة تجاه أهل بيت النبوة في موقفين عقائديين مهمين:

(١)الموقف الأول: يتمثلّ في إنفراج الأمّة عن بيعةِ الإمام علي، ونكث هذه البيعة التي كانت بأمرٍ من الله ورسوله.

(٢)الموقف الثاني: يتمثّل في أنفراج الأمّة عن السيّدة فاطمة الزهراء (عليها السلام)، و(تخليّ الأمّة عنها حين طالبت بحقوقها المغصوبة " فدك " حين أستولى عليها الخليفة الأول أبو بكر مُدّعياً أنّها من أموال المسلمين) [1]، يقول الإمام في معرض حديثهِ عن فدك:

((بلى كانت في أيدينا "فدك" من كلّ ما أظلّتهُ السماءُ، فشحّت عليها نفوس قوم آخرين وسخت عنها نفوسُ قوم آخرين ونعم الحكم الله)) [2].

هذا فضلاً عن مُطالبتها بحقوق الإمام المغصوبة في الخلافةِ والوصاية على الأمّة وقيادتها والتي حيزت عنهُ غدراً وبُهتاناً. يقولُ الإمام في أمرِ السيدة الزهراء

---

(١) وقد ناقش، السيد محمد باقر الصدر هذه المسألة، وبشكل مستفيض في كتابه (فدك في التاريخ).

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٤٩.

حين تكالبت الأمّة على هضمها والتخلّي عنها وهي سيدة نساء العالمين وأبنة سيّد الورى ورسول الأمّة ومنقذها من الضلال والشرك والكفر. يقولُ الإمامُ مخاطباً رسول الله وعند دفنهِ سيّدة النساء (فاطمة الزهراء):-

((وستنبئُك أبنتك بتظافُر أمّتك على هضمها فأحفها السُؤال وأستخبرها الحال هذا ولم يطُل العهد ولم يخلُ منك الذُكر)) [1].

المجتمع الإسلامي والإنحراف عن الإمامة:

الإمامة: وهي مستوى مهم من مستويات العقيدة وهي شكل إيماني من أشكال التواصُل مع الله وهي سبيل من سُبُل الإرتباط بهِ لأنّها الحبلُ الواصل والمدُ الرابط بين الله وخليقتهِ والإمامة بوصفها إمتداد للنبوة وأستكمال لوظائفها وواجباتها في صيانة الرسالة والحفاظ على كيان الإسلام، فهي حبل الإعتصام بعد النبوة وهي مركز للطاقة التي تضيءُ المجتمع وتُمدُه بالعلم والنور فضلاً عن كونها مركزاً للتوجيه والتنظيم الإجتماعي الحيوي (الديني والثقافي والفكري والسياسي والإقتصادي). وبالتالي فالإمامة، قوّة لإجتذاب المجتمع وتهذيبهِ وتنميتهِ وتغذيتهِ بغذاء الإسلام الروحي والفكري والأخلاقي وإشباعهِ بمبادئ الرسالة الإلهية الإسلامية بأحكامها وتشريعاتها وإلتزاماتها وأهدافها واخلاقياتها.

ولهذا فالإمامُ قائد ديني قائد إجتماعي هو قائد ديني يعمل على إيصال الرسالة العقائدية بما تحمل من مفاهيم وأسس وقيم ومبادئ روحية ومن ثمّ العمل على إدارة الدولة وإدارة المجتمع الإسلامي، إدارة تتوافق مع مبادئ هذه الرسالة العقائدية.

ولنقف الآن عند هذه الخطبة للإمامُ (عليه السلام)، لنحاول أن نستخلصَ منها بعض الأمور المتعلّقة بأسبابِ إنحراف المجتمع الإسلامي عن الإمام والتنكُر لبيعتهِ

---

(١) م. ن، ج٢، ص ٣٤٨.

والإنفراج عنه، حين حيزت الخلافة عنه، وتلقفها بعض الصحابة متنكرين لتوجيهات الله ورسوله. يقول الإمامُ:- ((بنا أهتديتم في الظلماء. وتسنمتم العلياء، وبنا انفجرتم عن السرار، وقر سمع لم يفقه الواعية، وكيف يراعي النباة من اصمته الصيحة، ربط جنان لم يفارقه الخفقان. ما زلت انتظر بكم عواقب الغدر، واتوسمكم بحلية المغترين حتى سترني عنكم جلباب الدين، وبصرنيكم صدق النية. اقمت لكم على سنن الحق في جواد المضلة، حيث تلتقون ولا دليل، وتحتفرون ولا تميهون، اليوم انطق لكم العجماء ذات البيان. غرب راي امريء تخلف عني. ما شككت في الحق مذ اريته. لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل اشفق من غلبة الجهال ودول الضلال. اليوم توافقنا على سبيل الحق والباطل، من وثق بماء لم يظما)) [1].

أمّا المضامين المنسوبة للنص فهي:

١- إنّ الإمام أراد تذكير الأمّة بمنزلتهِ الرسالية وشراكتهِ للرسول في حمل هذه الرسالة وهداية الأمّة وإخراجها من براثن الظلام إلى معالم النور والإيمان ومن عوالم الشرك إلى عوالم الإسلام ومن تخلف وتمزّق الجاهلية إلى ذُرى الحضارة والتقدُم الإسلامي.

٢- أنّ الإمام أراد أن يحدد إتجاهين للمجتمع لابّد من إنتهاج احدهما (حقّ وباطل) وإنّ الحقّ معروفٌ والباطل معروفٌ أيضاً فمن تبع الرسول والعترة كان على الجادّة ومن تخلّف عنهم كان على شفا حُفرةٍ من الباطل والضّلال.

٣- إنّ الأمّة الإسلامية أنقلبت على اعقابها وأرتدّت عن عهودها ووعودها للرسول.

٤- إنّ الأمام لم يكن ذا بالٍ بأمرِ نفسهِ، وإن كان لهُ في هذه الخلافة حقٌ مغصوبٌ إلاّ أنّهُ لم يكن يأبه للخلافة والمنصب بقدر ما كان خائفاً على رسالةِ

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٤٠-٤١-٤٢.

الإسلام السماوية والأمّة الإسلامية من غلبةِ الجُهّال ودول الضّلال، وسياسات الإنحراف والأستحواذ على المال العام والأستفراد بالسلطة والجاه والمناصب وتغييب مصالح الرسالة والتعتيم على ملامح الشخصيّة الإسلامية والتعتيم على حقوق الرعية.

أسباب إنحراف الأمّة عن الإمامة:

إنّ أسباب إنحراف الأمّة عن الإمامة، يمكن تحميلها على عدّة إفتراضات، وتوجُّهات:

١- الإفتراض الأول: أنّ الأمّة لم تكن واعية لمفهوم الإمامة مطلقاً كمفهوم وكمستوى عقائدي ديني ولا كجانب قيادي إجتماعي وهذا الإفتراض لا يمكن التسليم بهِ لأنّ الجهل المطلق يعني التنافي مع موضوع بيعة الغدير.

٢- الإفتراض الثاني: أنّ الأمّة كانت واعية لمفهوم الإمامة كفكرة عامة ولكن ليس كمستوى عقائدي وركن مهم من أركان الهوية الإسلامية، وهذا الإفتراض يقودُنا إلى بعض الإستنتاجات وهي:

أ - إنّ الأمّة لم تكن تفهم الأمامة بشكل صحيح فهي لم تعتقد مثلاً إنَ الإمامة فكرة مهمة ودرجة دينية، تلي النبوة وقد توازيها أحياناً ولذلك أنحرفت عن الإمام ولم تلتفتْ عليهِ كما كان مرجواً منها.

ب - إنّ الأمّة لم تكن تضطلع بالجانب الحيوي الوظيفي للإمامة في كونها مركزاً قيادياً ورئاسياً للمجتمع وظيفته تنظيم أمور المجتمع وبما يتوافق وقواعده ونواهي وآوامر الرسالة الإسلامية وهناك أدلّة كثيرة تُثبت جهل الأمّة بهذا الجانب أو أنّها كانت على دراية بسيطة بهذهِ الفكرة عن الإمامة، ودليلنا هو عندما تولى الامام ممارسة مهامّهِ القيادية والإدارية للمجتمع وإدارة شؤون الدولة السياسية والإقتصادية كان البعض من جماعتهِ وأتباعِهِ يعترض ويناقش الأحكام والقرارات التي تصدرُ عن الإمام[1] غافلين عن كون الإمامة، قيادة إجتماعية تُمثّل إرادة الله في حُكم البشر وحكمة الله في إتخاذ القرارات، وكلمة الله العليا في

---

(١) أنظر: خطبة التسوية في العطاء، وكيف أعترض بعض الناس على هذا القرار، في الجزء الثاني، ص ٢٠٩.

المحافل والمجالس لأنّ الإمامة طاقة موجّهة بفعلِ القوّة الإلهية تُمثّل إنعكاساً لعدالة الله التي لا سبيل إلى تحقيقها وتعميمها في حكم البشر إلاّ بالأئمة والأنبياء والأولياء المعصومين المرتبطين بالله روحياً وفكرياً وأخلاقياً ومعرفياً ولو كان القوم يعلمون بما للإمامة من غاية مقدسة ووظيفة روحية وحيوية ينطلقُ الإمام في هديها لهداية الأمّة والعروج بها إلى ساحل النجاة ما كانوا ليعترضوا أو يتقدّموا برأي شخصي أو فعلٍ وهم يعلمون بأنّ أفعال الإمام وسلوكياتهُ وأقوالهُ وأحكامهُ وقراراتهُ محكومةٌ بتقواه وعصمتهِ وبورعهِ.

٣- الإفتراض الثالث: يتلخّص في كون فكرةِ الإمامة كانت موجودة آنذاك ومعروفة لدى الكثير من الصحابة ممّن كان لهم صلة بالرسول ألاّ أنّ بعض هذه الفئات والعناصر حاولت التعتيم على هذه الفكرة وتغييبها قدر الإمكان مستخدمة كافّة الوسائل ومستعينة بكُلّ الطاقات والقدرات في سبيل التعتيم على هذه الفكرة. ولعدّةِ أسباب:

أ - إنّ هذه الفئات والعناصر مستفيدة من تغييب هذه الفكرة في سبيل السلطة وحيازة الخلافة دون الإمام (عليه السلام)، وهم الذين لهثوا وراء الجاه والزعامة وما سيتحقق بهذه السلطة والزعامة من مكاسب ماديّه ومنافع إجتماعية، ورغبات ذاتية ونزعات شخصية وأهواء قبلية، وإلى غير هذا من المنافع النفسية والروحية والمعنوية.

ب - إنّ هناكَ كثيرٌ من العناصر من المنافقين والمبغضين للإمام (عليه السلام) ممّن كانوا يرون في التعتيم على هذهِ الفكرة صالحاً شخصياً لهم ولرغباتهم الحاقدة على الإمام لكونهِ شكّل تحدياً لهم بصفاتهِ وأخلاقهِ وسلوكياتهِ وخصائصهِ الجسمية والمعنوية والشخصية ولأنّه مُثل بوصفهِ إماماً معصوماً ووصيّاً ووليّا على الأمّة حدّاً فاصلاً بين الإيمان والكفر وبين الخير والشر وبين الحقّ والباطل وإذن كان هذا التعتيم تحقيقاً لرغبات خاصّة ونزوات حاقدة ونفوس مريضة حاسدة أبتليت ببغض عليٍّ أبن أبي طالب (عليه السلام).

٤- الإفتراض الرابع: أنّ بعضَ العامة من الناس، أو الكثير منهم كانوا يعلمون ولهم دراية بفكرة الإمامة وأهمية هذه الفكرة (كون الإمامة قيادة دينية وقيادة إجتماعية)، إلاّ أنّهم حاولوا التغاضي عنها والتغافل عن أهميتها والتغابي عن تكليفهم الشرعي بضرورة الطاعة للإمام والإنصياع له. فكان في هذا التعتيم والتغييب، تملصٌ عن المسؤولية والواجب الذي يقع على عاتق كلّ فردٍ من أفراد المجتمع الإسلامي بضرورة تقديم الدعم المادّي أو المعنوي أو الجسدي إذا ما أقتضت الظروف فضلاً عن هذا فإنّ هناك أسباباً نفسية تقفُ وراء صمت الأمّة تجاه (الإمامة) والتعتيم عليها تتجسّد هذه الأسباب النفسية في إستشعار الخوف والرهبة من سلطان بعض الجهات المُعارضة للإمام والقاضية بخلافة الصحابة للتجربة الإسلامية ومحاولة إقصاء الإمام عن منصة الحكم وإنّ هذه الجهات كانت تعمل على تقوية سلطانها بتخويف الناس وإبتزازهم والتسلطُ عليهم بالقتل والأرهاب والضرب أو عن طريق الترغيب المادّي والتملّق بالعطايا والهدايا وما شابه ذلك وبالتالي تشكيل قاعدة مضادّة لخطّ الرسالة المحمدية والإمامة العلوية.

فضلاً عن هذا فالأمّة لم تجنح إلى نصرةِ الإمام بعد أن حيزت عنه الخلافة، لعدّة أسباب:

إن الناس والعامّة منهم كانوا قد أمنوا جانب الإمام ولعدّة أسباب أيضاً:

أ - النزعة الإنسانية للإمام والذي ما كان ليقتصّ منهم أو يعاقبهم لأنفضاضهم من حوله. ولو أنّ الإمام كان من النوع الذي يتسلّط على رقاب الناس "حاشاه" لأنقادت له الأمّة كما ينقادُ الفصيل إثرَ أمّه.

ب - إنّ الأمّة كانت قد أستشفت جرّاء صمت الإمام بأنّه علامة على الرضا، فأمنت جانب معارضتهِ ومطالبتهِ بحقّه المغصوب في الخلافة.

جـ - إنّ الأمّة كانت قد وثقت بأن الإمام لم يكن ليطالب بحقّهِ في الخلافة لئلا تندلع الحروب والفتن والآضطرابات ولئلا تنفرج كلمة الإسلام ووحدة الصف الإسلامي.

وتجسدت مخاوف الإمام تلك في أكثر من خُطبةٍ ولنا أن نستشفَ مخاوف الإمام من إندلاع الفتن مخوفاً إيّاهم الفرقة والشتات وإنفراج وحدة الصف الإسلامي موضّحاً أنّ المطالبة بالخلافة هو أمرٌ من الله ولمّا يُأتمر الإمام به (عليه السلام): ((أيُها النّاسُ شُقوا أمواج الفتن بسفن النجاة... الموت)) [1].

د- إنّ الأمّة وعلى ما يبدو كانت مُطّلعة على ميثاق الرسول، الذي أستوصاه لعليٍّ (عليه السلام)، قبل وفاتهِ (صلّى الله عليه وآلهِ) بلزوم الطاعة والصمت والسكوت، تجاه التجاوزات التي ستحصل من قبلِ بعض العناصر والتماسُك خوفاً من إنشقاق الصف الإسلامي وإنثلام كيان الإسلام.

ويقولُ الإمامُ في معرض حديثهِ عن ميثاقهِ الذي قطعهُ للرسول: ((أتراني أكذبُ على رسُول الله صلّى الله عليه وآلهِ. والله لأنا اول من صدقه فلا اكون اول من كذب عليه فنظرت في امري فاذا طاعتي قد سبقت بيعتي واذا الميثاق في عنقي لغيري)) [2].

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، خطبة ٣٧، ص ٨١.

الإنحراف العقائدي وآثاره الإجتماعية:

كان للإنحراف العقائدي، وإنقلاب الأمّة بعد وفاة الرسول والإنحراف عن خطّ الإمامة بعد حيازة الخلافة عن الإمام، وإقصاءه عن دوره القيادي أثرهُ البالغ في المجتمع الإسلامي ولنا أن نستقصي مظاهر الإنحراف وآثاره الإجتماعية. ونلخّصها في هذه النقاط:

١- تغييب معالم الشخصية الإسلامية وهويّتها العقائدية المركزية المتمثلة في الإيمان بالله وبالرسول وبالإمامة وإضمحلال الرؤية العقائدية والتعتيم عليها.

٢- الوقوع تحت طائل الشبهات والانغماس في الضلال والأهواء (الإنحراف الفكري).

٣- وقوع الأمّة تحت طائل الفتن (الأمتحان الإلهي) والإبتلاءات.

٤- إنحراف المؤسسات الادارية في الدولة الإسلامية (المؤسسات السياسية والأقتصادية).

وسوف نأتي على تفصيلها، وشرحها، فيما يلي:

١) تغييب معالم الشخصية الإسلامية للمجتمع والفرد وللدولة وذلك بعد أن حصل التعتيم والإقصاء لدور الإمام كقائد ديني وقائد إجتماعي. إذن فهناك من أراد وبقوّة إخفاء معالم الشخصيّة الإسلامية.

يقول الإمام في معرض كتابٍ أرسلهُ إلى أهالي مصر ((فوالله ما كان يُلقى في روعي ولا يخطر ببالي أنّ العرب تزعجُ هذا الأمر من بعدهِ صلى الله عليه وآله عن... زاح الباطل وزهق، وإطمأنّ الدين وتنهنه)) [1].

وأذن وفي ضوء هذا الكتاب لنا أن نفتح على مواقع الإنحراف العقائدي والذي أصاب المجتمع الإسلامي وذلك التعتيم على كيان الإسلام ومحاولة محق

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٨٧-٤٨٨.

دين محمد (صلى الله عليهِ وآله)، ولنا أن نستوضح أنّ هناك ردّة ورجعة عن الإسلام وأنّ هناك فئات وعناصر ضالّة فاسدة عقائدياً فاسدة إسلامياً متنكرّة لهويتها ودينها ورسولها وإمامها أذن هناك خلل في ثوابت الإعتقاد وفي طريقةِ التعاطي مع هذه الثوابت، فهناك من يستبدل طاعة الله بطاعة الكبراء والسادة وأصحاب النفوذ والمناصب في الدولة من أمراء وولاة وقادة وأقارب الخليفة وحاشيته وما كان للإمام بعد أن حيزت عنه الخلافة، وأقصي عن دوره القيادي إلاّ أن يَكُفّ يدهُ عن الناس وعن العمل وترك الأمور ما دامت بخير حتّى رأى راجعة الناس ترجع عن الإسلام وتنفلت عن ثوابتها الإعتقادية وتنفرج عن هويّتها العقائدية، فضلاً عن تعطيل الحدود والشريعة الإسلامية وأهمال السُنن الإلهية، والعمل بما يخالف كتاب الله والسُنّة النبوية، والسيرة الإمامية، وما كان للإمام وهو يرى هذه الفاجعة التي حاقت بالإسلام وهذا الفساد والإنحلال الذي حاق المجتمع فما كان له ألاّ أن ينهضَ محاولاً الكشف عن مواضع الفساد وتحليل الأخطاء وتبديد معالم الأنحراف والضلال.

٢) وقوع الأمّة الإسلامية، تحت طائل الشُبهات والانحرافات الفكرية. فلم يكن هذا بغريب أو عجيبٍ وكان لا بُد من توالد آثار ونتائج لإنحراف المجتمع العقائدي، حين تنكّرت لأهل بيت النبوة وهُمُ تراجمة الوحي وقُرناء القرآن وهم المفسّرون والموضّحون لغوامض الكتاب ومشتبهاتهِ وكان هذا الإنحراف عن أهل بيت النبوة وعن فهم الأطروحة القرآنية بشكلها الصحيح بداية لإنحراف فكري وأشتباه معرفي وإنغلاق في فهم القرآن وتأويلهِ وتفسيرهِ بالصورة الصحيحة، الصورة المطلوبة والتي لا يمكن أستحصالها إلاّ عن طريق العترة الطاهرة.

وكانت هذه النقطة هي بداية لتفرُق مذهبي تفرُق وتشتُت ذهني وفكري وحزبي ولأنّ الناس أستغنوا عن المصدر الصحيح. المصدر الذي وسمهُ الله لهم، أستغنوا عن علوم الأئمة وباتوا ينهلون علومهم وأفكارهم وأحكامهم عن مصادر شتّى وأناسٍ شتّى ومفسرين شتّى متناسين ومتجاهلين دور الأئمّة والإمام

علي - وهم تراجمة الوحي وحملة علوم الأنبياء، ومستودع حكمة الله وكانت هذه هي الفجوة الأولى التي أنفتقت عنها تيارات ومذاهب وأحزاب فكرية ضالة ومضلّة غير عاملة بكتاب الله لأنّها غير عارفةٍ به وغيرُ متيقنة من تفاسيرها وشروحها القرآنية. وبالتالي العمل وبما يتنافى وروح القرآن والشريعة الإسلامية وبما يتنافى مع العقل والمنطق الإلهي، فكلٌ يعمل بما يرى وبما يهوى وبما يتناسب وأغراضه، وأهوائه ومصالحه ولا ندّعي هذا الإنحراف وهذا التفرُق والشتات الحزبي والمذهبي جُزافاً، بل هو عن دليلٍ وعن مصدر موثوق عن الإمام علي (عليه السلام) في خطبةٍ خطبها في الأمّة يصفُ فيها ذلك الإنحراف والشتات المذهبي:

((ومالي لا أعجبُ من خطإ هذه الفرق على أختلاف حججها في دينها، ولا يقتصّون أثر نبيٍ ولا يقتدون بعملِ وصيٍ،ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفون عن ذنب!يعملون في الشبهات ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم ما انكروا،مفزعهم في المعضلات الى انفسهم، وتعويلهم في المهمات على ارائهم، كان كل امريء منهم امام نفسه،. قد أخذ منها فيما يرى بعُرى ثقاتٍ وأسباب مُحكمات)) [1]. أذن فهناك إنحراف فكري وتفرُق مذهبي طائفي قادَ الأمّة إلى ضلالة وإلى شتات وكلُ فرقةٍ تعمل بما ترى وبما يخدم مصالحها وأغراضها الشخصية الخاصّة كلُ فرقةٍ تبحث عن ضالتها المضلّة ومعتقدها الخاطئ الخاصُ بها فلا أثر النبي يتّبعون ولا بوصيّةِ وليّهِ يقتدون فكُلٌ قائدُ نفسهُ وإمامُ نفسهُ فلا كتابٌ بدعولا سنةٌ تؤخذ ولا شريعةٍ يُعمل بها. ويبقى المجتمع ممزّقاً مشتّتاً بين أنياب هذه الفرق على إختلاف حُججها وكأنّ كلُ فرقةٍ لها دينها الخاص، وإلهاها الخاص وشريعتها الخاصّة.

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة ٨٨،ص١٣٦.

٣) وقوع الأمّة تحت طائل الفتن (الإبتلاء الإلهي) ويبدو أن الأمّة التي انحرفت عقائدياً وانحرفت فكرياً وتفرقت إجتماعياً وتشتّت في مذاهبها وفرقها كانت موضع إبتلاء وامتحانٍ وتمحيصٍ إلهي كانت في موضع الافتنان في موضع الاختبار الالهي:

يقول الامام (عليه السلام)، في وصف الفتن: ((ان الفتن اذا اقبلت شبهت، واذا ادبرت نبهت ينكرن مقبلات، ويعرفن مدبرات، يحمن حول الرياح يصبن بلدا، ويخطئن بلدا))[١].

ومن هنا، تكون الامة الاسلامية، قد اصبحت في حيز التمحيص والابتلاء، والافتتان الدنيوي، هذا التمحيص الذي لاينجو منه الا من انشغل بالايمان قلبه، وتوهج اليقين في سرائر ذاته، وتعلق البصر و البصيرة في ضمائر عقله، حيث التمحيص، الذي ينفلق فيه الحق عن الباطل، و الحسن عن السيء، و الخير عن الشر يقول الامام في معرض هذه الدلالة:

((والذي بعثة بالحق لتبلبلن بلبلة، ولتغربلن غربلة، ولتساطن سوط القدر، حتى يعود اسفلكم اعلاكم، واعلاكم اسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصروا وليقصرن سباقون كانوا سبقوا))[٢].

وهنا يكونُ الفرز والتصنيف فهناك من ينجح في الإمتحان وهناك من يفشل والفائز من نأى بنفسِهِ عن هذه الفتن وإنخرط في مسلك النبوة، والعترة الطاهرة، يقول الإمام:

((شُغلَ من الجنّةُ والنّارُ، أمامهُ... مصير العاقبة)) [٣]، ويبتلي الله هذه الأمّة ويمتحنها عدّة أمتحانات، تتجسّد هذهِ الإفتتانات، في إتباع الهوى وإبتداع الأحكام وتعطيل الشريعة وإهمال الحدود وتضييع السُنّة النبوية.

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة ٩٣ (تحذير من فتنه بني أميه)، ص ١٥٩.

(٢) م. ن ، ج١ ، صـ ٤٨.

(٣) م. ن، ج١، ص ٥٠ - ٥١.

يقول الإمام في معرض هذا المعنى:

((إنّما بدءُ وقوعِ الفتنِ أهواءٌ تُتّبعُ... الحُسنى)) [1]. وكانت هذه الفتن قد قادت الأمّة إلى إلباس الحق بالباطل، وإثارة الشبهات، والإنزلاق في مهاوي البدع والأستغراق في مطبّاتها ومنعرجاتها. وهنا لعبت بعض العناصر الضّالّة كبني أميّة، وبني مروان، ومن لفّ لفّهم في عقولِ الناسِ وضمائرهم وأقتادتهم إلى الإنحراف في الضّلال والإنجرار وراء الملذات المادّية الزائفة والإنسياق خلف الأهواء والرغبات منحرفين عن الحقائق وجواهر الوجود مستهترين بالإسلام ومتلاعبين بأحكامهِ ومتشرعين بأصولهِ وثوابتهِ، وطالما حذّر الإمام من هذه العناصر وطالما وعظَ وأرشد، إلاّ أنّ الأمّة كانت قد أستهواها الضّلال وركبها الخطل، بدعوى بني أمية، وأتباعهم أتباع الشيّطان لاهثين خلف الجاه والسلطان والمال، إلاّ من أوتي إلى الحقّ، وسار بمسارهِ، وأتّبع آثارهِ.

يقول الإمام (عليه السلام) واصفاً فتنة بني أميّة: ((ألا وإنّ أخوف الفتن عندي عليكم فتنةُ بني أميّة فإنّها فتنةٌ عمياءُ مُظلمةٌ عمّت خُطّتُها وخصّت بليّتها وأصاب البلاءُ من أبصر فيها وأخطأ البلاءُ من عمي عنها)) [2]، وكان أن فشلت الأمّة في هذا الإمتحان وأختلّ كيانها العقائدي وضعف شخصها الإسلامي وأختلطت فيها الإتجاهات والمسارات الصحيحة بالعوجاء والمستقيمة بالمنحرفة فوقعت الأمّة تحت طائلِ الفتن والبدع الشوهاء، التي نخرت كيان المجتمع ومزّقته تمزيقاً وفرقته تفريقاً، وكانت دعوة جاهلية للتعصّب والتكبّر والفخر الجاهلي وإفتتان للناس في أموالهم وأولادهم وأرواحهم وكانت نتيجة لمخاطر إجتماعية وعادات وأفعال سلوكية إنحرافية عن الإسلام وعن أعرافهِ وتقاليدهِ وأحكامهِ. وليس لنا أظهر على ما ندّعي من هذه المحادثةِ التي دارت بين الرسول

---

(١) م. ن، ج١، خطبة ٥٠، ص ٨٩.

(٢) نهج البلاغة، ج١، خطبة ٩٣، ص١٥٩.

(صلوات الله وسلامهُ عليه) وبين الإمام (عليه السلام)، يحذّر فيها الرسول من فتنة قادمة، بعد وفاته (صلى الله عليه وآله)، فتنةٌ تمزق كيان الأمة روحياً وجسدياً وتنزلق بها سلوكياً وإجتماعياً فتختلُ المكاييل، وتتغيّر الموازين:- قال الإمام عن رسول الله: ((يا عليُ إنّ القوم سيفتنون باموالهم،ويمنون بدينهم على ربهم، ويتمنون رحمته، ويامنون سخطه، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والاهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ، والسحت بالهدية، والربا بالبيع [1]، إنّ في الحديث، الذي دار بين الرسول والإمام (صلواتُ الله وسلامُهُ عليهما)، دلالات كثيرة، ونتائج واضحة على ما آلت إليه، أمور الأمّة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، بعد وفاة الرسول حيث أستشرى الفساد الفكري والعقائدي والإنغماس في مهاوي الضلال ومنازع الشبهة وتغييب للثوابت وتعتيم على الأصول فحصلت عواقب إجتماعية، وآثار سلوكية وخيمة فكان ذلك الإفتتان الدنيوي في الأموال والأولاد والإشتباه بين الأحكام الحلال بالحرام والحقّ بالباطل والسُحت بالهدية والرّبا بالبيع والخمر بالنبيذ، إذن فهناك سلوك إنحرافي عن الجادّة، وعن المبادئ وعن الثوابت هناك فساد طافي على سطح الواقع يتجسّد وبشكلٍ جريءٍ وصريح دون حرج واستتار ودون خوف، بل بكلّ جرأةٍ وصراحةٍ. وهذا ما أدى إلى التعتيم على معالم الإسلام الاخلاقية وأطروحاتهِ السلوكية، التي توجد النظام، والإرتباط بين الإعتقاد والأخلاق وبين المبادئ الإعتقادية، وبين المظاهر السلوكية وبين روح الإسلام، والجسد الظاهر في الشخصية والكيان.

٤) الإنحراف الإداري لمؤسّسات الدولة الإسلامية السياسية والإقتصادية والقيادية في المجتمع.

---

(١) نهج البلاغة ، ج٢، خطبة ١٥٦، ص ٢٤٤.

ويبدو أنّ الإنحراف الإجتماعي، الذي حلّ في المجتمع وتجسّدَ وتمثل بشكلٍ واضحٍ، عند الولاة والإداريين ممّن يمثلون الدائرة المسيّرة لشؤون الأمّة الإقتصادية، وأمورها الحياتية والتنظيمية، ويبدو أنّ الفساد كان قد أستغرق في هذه المؤسسات وأستشرى فيها خصوصاً في عهدِ عثمان، الخليفة الثالث يقولُ الإمام في معرض هذه الفكرة: ((ولكنّني آسي أن يلي امر هذه الامة سفهاؤها وفجارها، فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا، والصالحين حربا، والفاسقين حزبا، فان منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الاسلام الرضائخ)) [1]، وكان لهذا الفساد السياسي والإقتصادي أثرهُ البالغ في المجتمع وتدهوُر أوضاعه الإقتصادية ولنقف الآن عند هذه الخطبة التي تصفُ المجتمع الإسلامي وصفاً شاملاً موجزاً:-

((وقد أصبحتم في زمنٍ لا يزداد الخير فيه الا ادبارا، ولا الشر الا اقبالا، ولا الشيطان في هلاك الناس الا طمعا. فهذا اوان قويت عدته، وعمت مكيدته، وامكنت فريسته اضرب بطرفك حيث شئت من الناس فهل تبصر الا فقيرا يكابد فقرا، وغنيا بدّل نعمة الله كفرا، او بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفرا، او متمردا كان باذنه.عن سمع المواعظ وقرا... زاجرٌ مُزدجرٌ)) [2]، ويبدو من سياق الخطبة، أنّ أمور المجتمع قد تدهورت إقتصادياً ونشأت حالة جديدة على المجتمع الإسلامي، ألا وهي (ظاهرة الطبقية)، وهي ظاهرة مرفوضة إسلامياً، كانت نتيجة لتسلّط فئةٍ من الناس، من ولاة وأمراء وهم المسيطرون على أمور الدولة الماديّة وإيراداتها الإقتصادية من زكاة وخمسٍ وما إليها. وهذه الظاهرة التي أستفحلت في المجتمع الإسلامي، فأنتظم الثراء لبعض الطبقات، واستشرى

---

(١) م. ن، ج٣، ص ٤٨٨.

(٢) م. ن، ج٢، خطبة ١٢٩، ص ٢١٣.

الفقر والجوع في طبقات أخرى من عامّة الناس ومستضعفيها، ممّن لا حول لهم ولا قوّة أمام تسلّط الدولة وموظفيها وأستبدادها، في المال العام.

وكانت حالة الفقر التي أعتاشها المجتمع كفيلة بأن تضع الفرد في حالةٍ من الإرتداد الأخلاقي والسلوكي والمبدأي، ويبدو أن أمور الفساد قد أستفحلت في المجتمع فكانت عودة الجاهليّة إلى أحكامها: مبدأ القوّة، مبدأ النفوذ، والسُلطة، القويُ يأكل الضعيف، والغنيُ يأكلُ الفقير وقد وصل الظُلم حدّاً وبلغ السيلُ الزُبى حتّى أنتفضت العامّة من الأمّة إلى الإمام (عليه السلام)، طالبين منه النّصرة والمعونة ووضع الحدود والمطالبة بحقوقهم المغتصبة، مستسفرينهِ إلى عثمان خليفة المسلمين آنذاك واستعتابهِ لهم ومخاطبتهِ في أن يعدلَ بين الرعيّة والإ سيقع المحذور.

ولنا أن نقطع ونقتص بعضاً من أطراف خُطبةِ الإمام التي أوجز فيها، وبيّن واقع الأمور وكيف أجتمعت عندهُ لُمّةٌ من العامّة مستسفريهِ فيما بينهم وبين عثمان ولنقف عند بعض فقرات هذه الخطبة:

((إنّ شرّ النّاس، عند اللهِ إمامٌ جائرٌ ضلّ وضُلّ بهِ فاماتَ سنة مأخوذةً. واحيا بدعة متروكة... قعرها))[1].

وأذن توجد سلطة جائرة سلطة حاكمة بالقوّة سُلطة مُنحرفة عن الأحكام الإلهية وعن السنن النبويّة، متوجّهة برغباتها ومنقادة بنزعاتها ومصالحها الشخصية سائرةً على أهوائها قاصدةً مصالحها، مستحلة أموال الرعيّة بالباطل، متسلّحة بجمعها عبر شرذمةٍ من بني أميّة (بذرة النفاق والضّلال في الأمّة).

وفي فقرةٍ أخرى من فقرات هذه الخطبة يقف مُخاطباً عثمان، ناصحاً إيّاه محذراً من فتنةٍ تصيبُ ساسة الأمّة وتبتلي بها عامّة النّاس تكونُ فاتحة للجورِ والظلم على هذهِ الأمّة:

---

(١) نهج البلاغة، ج ٢، خطبة ١٦٤، ص ٢٥٩.

((وإنّي أنشدُك الله أن لاتكون امام هذه الامة المقتول... مرجاً)) [1].

وكان أن أنتفض الناس بسبب جور عثمان وجور ولاتهِ وأستحواذهم على أموال الرعية وأتخاذهم الأرض الإسلامية بما فيها من خيراتٍ واموال، ملكاً لهم حين حرموا الناس منه فأجتهد البعض في قتلهِ والإنقضاض عليهِ بعد أن قضت عليه شهواتهِ واجهز عليه عملهُ، وكبت بهِ بطنتهِ على حدّ تعبير الإمام (عليه السلام) ونستقرئ هذه الدلالات والمعاني في هذا النص من الخطبة الشقشقية حيث يقول (عليه السلام):

((إلى أن قام ثالثُ القوم نافحاً حضنيهِ بين نثيلهِ ومعتلفهِ وقام معه بنو ابيه يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع، الى أنْ انتكث عليه فتله واجهز عليه عمله،وكبت به بطنته)) [2].

---

(١) م. ن، ج٢، خطبة ١٦٤، ص ٢٥٩.

(٢) م. ن، ج١، خطبة الشقشقية، ص ٣٨.

المبحث الثالث:
الواقع الإجتماعي أبّان خلافة الإمام علي (عليه السلام)

- الإنحراف العقائدي للمجتمع الإسلامي أبّان خلافة الإمام (عليه السلام)
- إنحراف المجتمع الروحي والنفسي والأنقياد خلف الفئات الضّالة (الناكثين، القاسطين، المارقين)
- إنحراف المجتمع الفكري
- خلاصة الفصل الأول

الإنحراف العقائدي للمجتمع الإسلامي أبّان خلافة الإمام (عليه السلام):

عانى المجتمع الإسلامي في الحقبة التي سبقت خلافة الإمام علي (عليه السلام)، أي بعد وفاة الرسول إلى حين تولّي الإمام زعامة الأمّة الإسلامية، من فراغ عقائدي وظلام روحي نشأ هذا الفراغ جرّاء الإقصاء المتعمد والمخططُ له من قبل بعض الصحابة الذين أستفردوا بالحكم، وتسلّطوا على مقاليد الأمور بلا مُراعاة لحقّ الأمّة في أن يتولاها من هو على قدر المسؤولية وممّن أنيطت له هذه القيادة وبحكم النص الإلهي والإرادة الإلهية والوصايا النبوية وكان أن ظُلم هذا المجتمع، وظلم أيضاً حين أقصي عنه الإمام علي (عليه السلام) وظَلَم نفسه حين توانى عن نصرة الإمام ولم يلتفْ عليه، وبما هو المفترض، ولكون الإمام علي هو إمام معصوم مفترض الطاعة فكان من الأولى بهذه الأمّة أن تقع على العلّة وتستنفذ طاقاتها وإمكاناتها في سبيل مناصرة الحق ومناصرة الإمام المفترض الطاعة وتبدأ مرحلة جديدة من حياة الأمّة حين يتولّى الإمام القيادة الدينية والإجتماعية ويبدو أن هذه المرحلة (مرحلة مهمة جداً) لأنها كانت مُلأى بالإحداث حُبلى بالصراعات حُبلى بالكثير، وعلى الرغم من صعوبةِ هذه المرحلة على الأمّة كونها مرحلة جهاد، ومرحلة كفاح مسلّح إلاّ إنّها كانت ولا دة للحقائق ولاّدة بالكثير من الوقائع التي كانت مبهمة قبل خلافة الإمام، فكانت مرحلة أستجلاء للكثير من الغوامض وأستجلاءِ ومعرفةِ حقيقية لكثير من الشخصيات التي أنتزعت عنها الأقنعة الزائفة، فأظهرت على حقيقتها وتوضحت مطالبها وأغراضها وأفعالها للمجتمع المعاصر للإمام وللمجتمعات اللاحقة وقد يحاول البعض تزويق هذه الصور، وإلباسها حلّه النجاح والطُهر والعبودية إلاّ إنّ الصورة الناصعة للإمام والقلب الصافي والروح النقية له كان لها أن تستكشف الصور وتستوضح الأمور وتستجلي حقائق من يحاول العبث مع هذا القائد

المغوار، وهذا الطهر الطاهر، هذا الذي ملأ الحياة عدلاً وجمالاً وإنصافاً وكيف بمن ناواهُ وعاداه وألبَّ عليه أن لا يلقى في الدنيا هواناً وخزياً وفي الآخرة عذابَ وحسرةً.

فكانت ظروف الحياة الإجتماعية على الرغم من صعوبة المواقف والأحداث فيها وصعوبة الأختيارات منها إلاّ أنها مرحلة ولاّدة للوضوح وللتحديد وللأختيار فهناك مساران: حق وباطل، خير وشر، عدل وإجحاف، مساواة وجور، حق مع علي أو باطل مع أعداء علي ومناوئيه (معاويه ومن لفَّ لفَّهُ وغيره)، وما ألتفَّ على الإمام إلا المؤمنون وما أنحرف عنه إلاّ المبغضون والمنافقون. وكان هذا هو التوجيه للإمة الأسلامية، عبر الكتاب وعبر الأحاديث الشريفة للرسول (صلى الله عليه وآله) وكانت هذه التوجيهات الربانية إلى البشرية أن إسلكوا طريق النجاة مع أهل بيت النبوة لأنهم هم سفن النجاة، وجاء التوجيه بأهمية إستجلاء الإيمان وحقيقته وتوجيهه كحالة روحية فكرية واعية بحقائق الأمور أو أستجلاء غوامض الأشياء الذي قد تشتبه على الناس لمن لا يؤمنون بحق أو يعتقدون بحق، وكان التوجه بأن يكون الأيمان حقيقةً وروحاً ومقياساً وإختباراً للمؤمن كيف يوجهُ إيمانهُ في طاعةِ الله، كيف يصبح الأيمان مقياساً لمعرفة الحق من الباطل؟ كيف يصبح الإيمان حداً فاصلاً بين الحلال والحرام وبين المعروف والمنكر؟ كيف يصبح حباً لله وبغضاً في الله وطاعة لله؟ وكان أستجماع هذه الأمور وإختزالها وأقتصارها في أمر واحدة وحقيقة واحدة هو الحب في الله، والبغض في الله؟ وكان طاعة أهل بيت النبوة، هو النقطة الفاصلة بين الأمور، والمقياس الذي أعتمدهُ الله ورسوله في تبيان الكافر عن المؤمن، (يا علي لا يبغضُكَ إلا كافر، ولا يُحبُكَ إلا مؤمن) وللأيات القرآنية، والاحاديث الشريفة أثر في تفصيل وتوضيح هذه المعاني، على إعتبار أنها أساس عقائدي وركن إسلامي مهم، فضلاً عن كونهِ إختياراً للناس، ((إن أمرنا صعبٌ مستصعبٌ، لا يحملُهُ إلاّ عبدٌ مُؤمنٌ أمتحن اللهُ قلبهُ للإيمان، ولا يعي حديثنا إلاّ

صدورٌ أمينه وأحلامٌ رزينةٌ)) [1]، وإذن كانت هي الحقيقة الكبرى للإيمان، والفلسفة الأكثر تجاوباً مع الواقع، والأكثر خدمةً للواقع، والأكثر فائدة للإنسانية جمعاء.

وكانت المصيبةُ الكبرى لهذه الأمة حين انحرفت عن هذه الحقيقة وغيّبتها مرضية بذلك ساداتها وكبرائها، ولنزواتها الدنيوية وأصنامها الأهوائية.

فأصبحت الأمّة في حالةٍ شبيهة بالحياة بلا حياة حين فقدت أوضيعت هذه القيمة الكبرى. وحين فشلت في أجتياز الإختبار الإلهي والإفتتان الدنيوي.

وكان على الجميع في هذه المرحلة الحاسمة أن يحدّد خياراته، وتوجيهاته فالأمة لم يعد لها عذر في المماطلة (والتمويه) وكان لا بّد لها من موقفٍ معين، ومسار معين، ولأن الأمور لم تعد غائمة وضبابية، كما كانت عليه في عهود الخلفاء السابقين للإمام فقد يعتذر البعض للأمة في أنها كانت مُلزمةً بالطاعة قهراً، وإرهاباً، أما الأن وقد تحددت الخيارات وأتضحت الرؤية أمام الجميع فليس لأحد أن يَدعي الغفلة أو السهو، وكان لزاماً على الأمة تبني موقف، وخط محدد إمّا مع الإمام أو مع مناوئيه ومعارضيه ومخالفيه من (الناكثين أو القاسطين والمارقين)، ولهذا فقد كانت الطرق مُعبّدة، والأمور واضحة، فهذان طريقان مستقيم وأعوج، إلاّ أنّ الأمّة يبدو أنها كانت لا زالت على عهدها القديم وضلالها الذي أضحى سجيةً وطبعاً لازماً، حين نكثَ البعض، ومرق البعض، وقسط البعض الآخر.

وهذا ما كان متوقعاً من أمةٍ لم تؤمن إيماناً حقيقياً، ولم تستقرّ على مبدءٍ معين، يكون نقطة إنطلاق لنظامها ومعين لتطورها، وإنصهاراً مع أهدافها وغاياتها يقولُ الإمام في أستجلاء هذه الدلالات:

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص ٣٠٦.

((وناظرُ قلب اللبيب به يسبر أمدهُ، ويعرف غوره ونجدهُ، داعٍ دعا، وراعٍ رعا، فأستجيبوا للّداعي، وأتّبعوا الراعي)) [1]. أذن فالقلب المؤمن هو الذي يستوضح الطرق ويستجلي الغامض مستجيباً لداعي الله وواعيته وأوامره ونواهيه. ثم يقول عليه السلام وفي الخطبة ذاتها حين يصف حال المجتمع الإسلامي الذي أنفرج عن الحق ووالى الباطل متخلّفاً عن أهل بيت النبوة، وهم حقيقة الإيمان ((قد خاضوا بحار الفتن، وأخذوا بالبدع دون السّنن وأرز المؤمنون، ونطق الضّالون المكذبون...)) [2]

وها هو يحثُ الناس وفي أكثر من موقف على إتّباع أهل بيت النبوة، والإقتداء بهم، ولزوم أمرهم:

((فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرّحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا فليصدق رائدٌ أهله وليحضر عقلهُ)) [3]، وكان عليه السلام يُوجّه الناس، والأمة الإسلامية على الالتزام بأهل بيت النبوة لأنهم ذروة الحقيقة الإيمانية، وهم عين الاعتبار، وإنّ ولايتهم على الكون والوجود، هي اليقين والحقيقة. وهو الجلاء للحقائق الغامضة، وإنّ المنحرف عن هذه الولاية هو من يتعلّق بالشبهات ويجري خلف البدع والأهواء فيكون عمله بلا علم ويقين وكالجسد بلا روح وإن أعمالهم التي على غير النهج الصحيح، لا تزيدُ عاملها إلا بعداً عن الطريق الواضح:

يقول الإمام: ((فالنّاظر بالقلب العامل بالبصر يكون مُبتدأ عملهِ أن يعلم، أعملهُ عليهِ أم لهُ؟ فإن كان له مضى فيهِ، وإن كان عليه وقف عنهُ فإنّ العامل بغير علمٍ كالسائر على غير طريقٍ، فلا يزيدهُ بعدُ عن الطّريق الواضح إلا بُعداً من حاجتهِ والعامل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظرٌ أسائرٌ هو أم

---

(١) م. ن، ج٢، ص ٢٣٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٣٩.

(٣) م. ن، ج٢، ص ٢٣٩.

راجعٌ))[1]، وإنّ هذه الأمّة التي أبتليت ووضعت موضع التمحيص الربّاني والأختيار الإلهي أنفرجت عن مُقرّراتها ومناهجها التي ألزمها الله بها وبالأحتكام إليها، لا بالأهتداء بالبدع والشبهات.

((إنّ الله بعث رسولاً هادياً بكتاب ناطقٍ وأمرٍ قائم، لا يهلكُ عنهُ إلا هالكٌ، وإن المبتدعات المشتبّهات هُنّ المهلكات إلاّ ما حفظ الله، وإنّ في سلطان الله عصمةً لأمركم فأعطُوه طاعتكم، غير ملومةٍ ولا مستكرهٍ بها، والله لتفعلُنّ أو لينقلنّ اللهُ عنكم سلطانَ إلاسلام، ثم لا ينقلهُ إليكم أبداً حتّى يأرزَ الأمرُ إلى غيركم))[2].

وقد وضح إنفراج الأمّة عن الإمام قلباً وقالباً، حين أنساقت هنا الأمة بالإتجاه المعاكس، ووضح ما عمق في النفوس، وما خُبث - في الضمائر، من أسترخاصٍ في الحق، وركاكةٍ في الإيمان، والتهاون في أمرِ الدين وإطاعة الله ورسوله، وأولي الأمر الذين وكلّهم الله بحفظ الرسالة الإسلامية، وصيانة المجتمع عن الإنحراف عن هذه الرسالة ولكن هيهات أن تغلب هذه الأمّة على أهوائها، وتنقاد إلى نصيحة الإمام، وهذا ما تستوضح دلالاته واضحه في خُطبة له عليه السلام، يَصفُ منها بيعة الناس له بأنّها زائفة، ولم تكن لله، بل كانت في سبيل المصالح الشخصية، والأهواء الذاتية.

((لم تكن بيعتكم إيّاي فلتةً، وليس أمري وأمركم واحداً، إنّي أريدُكم لله وأنتم تريدُونني لأنفسكم، أيُها النّاسُ! أعينُوني على أنفسكُم، وأيمُ اللهِ! لأنصفنّ المظلومَ من ظالمِهِ، ولأقودنّ الظالم بخزامتهِ، حتّى أوردهُ منهل الحقّ وإن كان كارهاً))[3].

---

(١) م. ن، ج٢، ص ٢٤٠.

(٢) م. ن، ج٢، خطبة ١٦٩، ص ٢٦٩.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٣٦، ص ٢١٩.

وقد خسر هذا المجتمع الكثير حين تخاذل عن نصرة الإمام والإنحراف عنه، وعن طاعتِه، ولو أنّ الأمّة إجتمعت مع الإمام ضد الباطل كان في هذا صلاحها وخيرها، ولكان لها النصرُ والغلبة على أعداء الله، والإسلام:

((أيّها النّاسُ! لو لم تتخاذلوا عن نصرِ الحقّ ولم تهنوا... الأعناق)) [1]

وكان الإمام في كُلّ موقفٍ، وفي كُلّ محفلٍ يحاول توضيح الأمور للناس بأن لا ينقادوا خلف الفئات والعناصر الضالّة والمضلّة، المتمثلّة في (الناكثين، القاسطين، المارقين) وكان يحثُ الناس على التأهبَ المستمر، والحذر المستمر، من هذه العناصر الضارّة بالمجتمع، وكان يحثُ الناس على جهاد هذه الفئات إنطلاقاً من كون الجهاد تكليفاً إلهياً وإختباراً وأمتحاناً لهذه الأمّة، كي ترعوي وتطيع وتعمل بما يتوافق وإرادة الله في أستئصال منابت الكفر والنفاق والشقاق، وأصحاب الدعوات الضالّة المُضلّة ألا أنّ الناس، وبما حملوا عن ضعفِ عقائدي، وإنحلال وأنفلات نفسي وروحي لم تكن لها حالة التصالح مع الذات، ومع الله، ومواجهة الباطل بقوّة، وأستعداد نفسي، وأطمئنان وثقة عالية بالله، وتوكّل مطلقٌ بعطاء الله وثوابهِ الجزيل.

((ألاَ وقد قطعتم قيد الإسلام، وعطلتم حدوده، وامتم احكامه، الا وقد امرني الله بقتال اهل البغي والنكث والفساد في الارض... تشذراً)) [2].

ومن هنا فإنّ الإمام كان في مهمة مقدّسة، مهمة تلخّصت في إحياء المجتمع الإسلامي وإنقاذه من هوةِ الكفر والنفاق والضلال وإقامة دولة قائمة على دعائم العدل والإنصاف والمساواة وفي مقارعة القوى الكافرة التي أنحرفت بالمجتمع الإسلامي إلى مهاوي الضلال وملاجيء العصيان وإضعاف كيان الإسلام وملامح شخصيتهِ الدينية والإجتماعية وكان أعداء الإمام أستغلّوا فرصة القتال

---

(١) م. ن، ج٢، خطبة ١٦٦، ص ٢٦٧.

(٢) م. ن، ج٢، خطبة ١٩٢، ص ٣٢٧. الخطبة القاصعة.

والمجابهة في سبيل إشغال الإمام وتضييع الوقت أمامه، عن إقامة دولة العدل دولة الإسلام الصحيح، دولة المقدسّات، والإيمان إشغال الإمام عن تنفيذ خُطَة الإصلاح التي رام بها الإمام تقويمِ الدولة إدارياً وإجتماعياً.

وقد نجحت هذه الفئات إلى حدً ما في إشغال المجتمع عن الإمام، إشغال المجتمع بالشبهات والبدع والأحكام الجاهلية وقد نجحت في تفريق وتشتيت المجتمع ووضعهِ في حالةِ من التغافل والتغابي عن الحقائق، ومن ثمّ الإنخراط به في شباك الجهل والتخلف والعودة إلى الإنقسامات القبلية والطائفية والحزبية، ولنقف الآن عند هذه الخطبة للإمام يحثُ فيها الناس على التوحُد والإلتحام والإبتعاد عن الأفكار والأحكام الجاهلية التي حدّ منها الإسلام لما لها من آثار سلبية في تفريق المجتمع، وتشتيته، وتشطيرها لوحدةِ الصف الإسلامي، التي كانت من أهمّ الأهداف المطروحة في إصلاحات الإمام، ومعالجاتهِ للمجتمع الإسلامي ((ليتأسّ صغيرُكم بكبيركم، وليرأف كبيرُكم بصغيركم ولا تكونوا كجفاةِ الجاهلية لا في الدين يتفقهّون ولا عن الله يعقلون كقيض بيضٍ في أداح يكون كسرها وزراً ويخرج حضانها شراً)) (١).ثُمّ يقفُ (عليه السلام)، ناصحاً إيّاهُم بوجوب التوّعي والإنتباه والتحذرُ من هذه الفتنة، التي ستطيح بالأمة فيما لو أنفرجت عن إمامها ومنقذها وسفينةِ نجاتها ((أيُها النّاسُ! ألقُوا هذه الأزمة التي تحملُ ظهورها الأثقالَ من أيديكم ولا تصدعوا على سلطانكم فتذمّوا عن فعالكم ولا تقتحموا ما أستقبلتم من فور نار الفتنة وأميطوا عن سننها وخلّوا قصد السبيل لها، فقد لعمري يهلكُ في لهبها المؤمنُ، ويَسلمُ فيها غيرُ المُسلم.

((إنما مثلي بينكم كمثل السراج في الظلمةِ يستضيء به من ولجها فأسمعوا أيُها الناسُ وعوا وأحضروا آذان قلوبكم تفهموا)) (٢)، وكان الأمام يحثُ الأمّة

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٦٦.

(٢) م. ن، خطبة ١٨٧، ج٢، ص ٣٠٤.

على تجاوز هذه الفتن، والإبتلاءات الدنيوية، والإختبارات الربّانية، عبر الأعتصام بإهل بيت النبوة والإنضواء تحت رايتهم، وكان يوجّه إلى أنّ من يحمل أمر الحق، ويساند الإمام في مهمتِهِ الإلهية هو الفائز في الإمتحان، وإنّه أمرٌ مستعصبٌ على هذه الأمة إلاّ من آمن إيماناً قوياً حقيقياً، وأطاع الله وأولياءهِ طاعةً عمياء، نابعة عن الثقة بالله، والتوكّل عليه، والإنصياع لأوامرهِ ونواهية، ومساندة الحق مهما صعُبَ أستجلابُهُ، ومجابهة الباطل والفئات الضّالةّ والدعوات الكاذبة، التي خرجَتْ بإسم الإسلام، وهي ليست من الإسلام في شيء، وكان عليه السلام يُحذّرُ الناس من الإغترار بهذه الدنيا، والركون إليها، وما أصاب الأمم من إبتلاءات وفتن، إلاّ بذنوبٍ قد اجترحوها،

((أيّها الناس! إن الدُّنيا تغر المؤملَ لها، والمخلدِ إليها، ولا تنفسُ بمن نافس فيها، وتغلبُ من غلب عليها وأيمُ الله ما كان قومٌ قطٌّ في غضّ نعمةٍ من عيشٍ فزال عنهم إلاّ بذنوبٍ أجترحوها، لأنّ الله ليس بظلام للعبيد ولو أنّ الناس حين تنزلُ بهم النقمُ وتزولُ عنهم النّعم فزعوا إلى ربّهم بصدقٍ من نّياتهم وولهٍ من قُلُوبهم لردّ عليهم كلّ شاردٍ، وأصلح لهم كلّ فاسدٍ، وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترةٍ وقد كانت أمورٌ مضت ملتم فيها ميلةً كنتم فيها عندي غير محمودين، ولئن ردّ عليكم أمركم إنكم لسُعداءُ وما عليّ إلاّ الجهدُ، ولو أشاءُ أن أقول لقلتُ، عفا الله عمّا سلف[1].

---

(١) م.ن خطبة ١٧٨،ج٢، ص٢٨٣.

إنحراف المجتمع الروحي والنفسي والأنقياد خلف الفئات الضالّة (الناكثين، والقاسطين، والمارقين):

١) مظاهر الإنحراف الروحي والنفسي للمجتمع الإسلامي والإنسياق خلف دعوات الناكثين (أصحاب الجمل) ما أن تولّى الإمام قيادة الأمة الإسلامية، حتّى تولّت طائفة عن الإمام، ناكثين بيعتهم له، ومنصرفين إلى قتاله ومجابهة هذه الطائفة وهم (أصحاب الجمل) تعتبر أول فئة تخرج عن طاعة الإمام بعد مبايعته ولا نرمي في بحثنا هذا الوقوف على مفاصل الأمور والأحداث التي وقعت بين الإمام ومناوئيه من أصحاب الجمل وما نرمي إليه هو التطرق إلى إنحراف هذه الفئة العقائدي وأنسياقهم خلف الدعوات الضالّة والمضلّة وأستهتارهم بإمامة علي عليه السلام وإنقلابهم ضدّه بلا مبررٍ وبلا عُذر، وقد وقف الإمام عند هذا الإنحراف وشخصّهُ (عليه السلام) بأنّه نوع من الخروج نوع من الإرتداد العقائدي، عن عبادة الله، والإتجاه إلى عبودية وثنية تُمثل عودة إلى العقليات الجاهلية القاضية بعبادة الأوثان والأصنام وتتضّح تلك الردّة، وتلك الرجعة العقائدية في توجيه أنظار الناس والمجتمع الإسلامي إلى (الجمل الأحمر) (يعسوب البصريين).

ولنقف عند هذه الخطبة للإمام (عليه السلام)، يتضّحُ فيها دلالات ما نقول:

((كُنتم جُند المرأةِ وأتباعَ البهيمة رغا فأجبتم وعقر فهربتهم أخلاقكم دقاقٌ وعهدكم شقاقٌ ودينكم نفاقٌ وماؤكم زعاقٌ والمقيم بين أظهركم مرتهنٌ بذنبهِ والشاخصُ عنكم متداركٌ برحمةٍ من ربّهِ كأنّي بمسجدكم كجؤجوء سفينةٍ قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها)) [1]، الخطبة

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٤٦ - ٤٧.

هذه خطبها الإمام في ذم أهل البصرة، ممّن ساندوا أصحاب الجمل، وإنساقوا خلف دعواتهم الضالّة، وأنحرفوا إنحرافاً عقائدياً روحياً تمثلّ في توجهّين:

١- الأول في الإنحراف عن الإمام.

٢- الثاني في الإنسياق خلف دعوة أصحاب الجمل، في تقديس الجمل الأحمر (يعسوب البصريين) وهنا دعوة خطيرة وطفرة أرتدادية نحو العبادة الوثنية وتقديس المجسّمات المادية، التي نهى عنها الإسلام (دين التوحيد)، ولا ريبَ أنّ في هذا التوجُّهُ الخطير، والدعوة الضالّة تَقاعُس واضح وكبير عن طاعة الله والإستسلام بلا تبرير وعذر إلى عادات الجاهلية الوضيعة المتمثلة بالشرك والإلحاد والأخلاق الدنيئة وكما وصفها الإمام في خطبتهِ، ويتضح من سياق الخطبة أنّ المجتمع البصري كان في موضع التمحيص والإختبار الإلهي وفي فتنةٍ خطيرة لم يستطع المجتمع اجتيازها ففشل في هذا التمحيص مستسلمين للأهواء والبدع والفتن والعصبيات الجاهلية، مستكبرين على طاعةِ الإمام والإنقياد خلفَه، ناكثين للبيعة ومنقادين خلف الشبهة والمصالح الشخصية، التي خُيل لهم أن الإمام سوف يبتاع دينهُ.

مظاهر الإنحراف الروحي والنفسي والإنسياق خلف دعوات بني أميّة (القاسطون):

لقد خبر الإمام عليه السلام هذه الأمّة ووقع على علاّتها وأستشفّ الخطر الذي لحقَ بها، من إنهيار إجتماعي، وتداعيات سياسية ومذهبية، وإنحرافات إجتماعية، وسلوكية، وتشتت وتفرّق عصبي جاهلي، قبلي وكان الإمام متربصاً بهذا الوضع مُشخصاً الخلل، واقعاً على العلّة، متحيّناً الفرصة للإصلاح والعلاج متواصلاً مع المجتمع على الرغم من تباعدُهُ عنه، ناصحاً ومرشداً ومشرّعاً ومفقهاً، ولم يتوانَ لحظة في الإصلاح، والمعالجة مُتبنياً دورهُ الإمامي في قيادة المجتمع نحو التكامل والإنسجام الإخلاقي مع القيم والمبادئ الروحية الإسلامية،

كان موقناً إنّ المجتمع على غير هدي الإمام وعلى غير رؤيتِهِ وأهدافه، فالناس يريدون شيئاً والإمام والله يريدون شيئاً فكان هُنا تنافرُ خطى، وتنازع في الآراء والأفكار والإهداف، لأنّ الأمّة لم تكن متعاطية روحياً ولا متجاوبة نفسياً ولا متفاعلة فكرياً مع وجهات نظر الإمام وتوجهاته العقائدية والروحية، ولم تكن متيقضة إيمانياً ولا ثابته عقائدياً، وتتوضُح لنا تلك النزاعات المتخالفة مع الإمام، المنقادة خلف رغباتِها، وأهوائها ومصالحها في قوله (عليه السلام): أيها الغافلون غير المغفول عنهم، والتاركون المأخوذ منهم. ما لي أراكم عن الله ذاهبين، وإلى غيره راغبين. كأنكم نَعَمٌ أراح بها سائم إلى مرعى ويي ومشرب دوي. إنما هي كالمعلوفة للمدى لا تعرف ماذا يراد بها، إذا أحسن إليها تحسب يومها دهرها، وشبعها أمرها[1]، فالإمام (عليه السلام) يُخاطبُ الأمّة بـ (الغافلون) عن طاعة الله (التاركون) لما أمرهم الله بهِ، والإنقياد له، وهم إلى غير ما أمرهم منقادون، ويشبههم بالأنعام التي لا همّ لها إلا الشّبع، بلا أستقراء للأمور أو تمحيص للمستقبل أو أستبصار للعاقبة المحتومة عبيد إطاعتهم فئات الضلالة، والسادة الكبراء، الذين يريدون بهم الضلال، والإنجرار خلف البدع، ودعوات الشيطان أمراءُ الباطل وسادته (بني أميه)، ومن لفّ لفهّم، وأنضوى تحت رايتهم المشؤومة: ((ألا فالحذر الحذر من طاعةِ ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله ما صنع بهم. مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه. فإنهم قواعد أساس العصبية. ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهلية)) [2].

اذن ومن هذي هذه الخطبة للامام نستشعر مظاهر الانحراف الروحي والخلل النفسي الذي لحق المجتمع هذا المجتمع الذي خلط الحق بالباطل، والنقاء بالصفاء

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٧٥.

(٢) نهج البلاغة ، ج ٢ ، الخطبة القاصعة ١٩٢ ، ص ٣١٦.

والصحة بالمرض حين انصاع لاوامر سادته وكبرائه من بني امية، ممن كانوا قواعدَ للعصبية واركاناً للفتنة، بني امية الذين اصبحوا مطايا الشيطان وجنوده، التي يصول ويجول بها في الناس، وهم عباده المخلصون في اطاعته والانصياع لاوامره وان في اطاعة هذه الفئة المنحرفة من جنود ابليس هو امعانٌ في البغي وعصياناً صريحاً لله وافساداً في الارض وتقوية لسلطان الشيطان وتدعيماً لاركان دولته في الارض.

يقول الامام في هذه الدلالة:

((أَلاَ وَقَدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الأَرْضِ، مُصَارَحَةً للهِ بِالْمُنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْمُحَارَبَةِ، فَاللهَ اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ، اللاَتِي خَدَعَ بِهَا الأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، وَالْقُرُونَ الْخَالِيَةَ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ، أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ)) [1]

وان في سنة التكبر والتعصب الجاهلي القبلي، والتفاخر بالانساب والاحساب، هو ارتداد ورجعة عن مبادئ الاسلام، وقيمه الروحية التي ترمي الى احياء سنن العدالة الاجتماعية، والمساواة بين الناس على اختلاف مستوياتهم الاقتصادية او الاجتماعية.

وان التفاضل و مقاييس التمايز على اساس التقوى والايمان والاخلاق ((إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَاللهِ أَتْقَاكُمْ)) [2]

فضلاً عن كون هذه السنة الجاهلية، ضربٌ من اطاعة ابليس، الذي استكبر عن السجود لادم عليه السلام وكان في احياء هذه السنة القبلية، والتفاضل بها

---

(١) م.ن. ج ٢ ، الخطبة القاصعة ١٩٢ ، ص ٣١٦.

(٢) الحجرات: ١٣.

احياءاً لامر ابليس وسنته التي استنها ووسوس بها الى بني البشر، اخراجاً لهم عن طاعة الله، وتفريقاً بينهم، ولو كان هذا التعصب والكبر محموداً عند الله، لرخصه لخاصة انبياءه واولياءه

٣ – مظاهر انحراف المجتمع الروحي والنفسي والانسياق خلف دعوات الفئة الضالة الخوراج (المارقين)

ولنقف الان عند فئة اخرى من الفئات الضالة ممن خلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب، والرياء بالعمل وطاعة الله باطاعة الشيطان، ممن ضلوا واضلوا منقادين خلف الاهواء ومسارعين الى المروق والانشقاق عن حزب الامام ومرافقته ومتابعته، ساعين الى تشويه الحقائق وتفريق جمع الامة، وتوليد الفتن والبدع والشبهات، فكانوا اتباع الشيطان وجنوده المخلصين يصول ويجول بهم.

يقول الامام في كتابه الى الخوارج:

((فَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلاَّ أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَ ضَلَلْتُ فَلِمَ تُضَلِّلُونَ عَامَّةَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ص بِضَلاَلِي وَ تَأْخُذُونَهُمْ بِخَطَئِي وَ تُكَفِّرُونَهُمْ بِذُنُوبِي سُيُوفُكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبُرْءِ وَ السُّقْمِ وَ تَخْلِطُونَ مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ وَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ وَ قَتَلَ الْقَاتِلَ وَ وَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلَهُ وَ قَطَعَ السَّارِقَ وَ جَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفَيْءِ وَ نَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ص بِذُنُوبِهِمْ وَ أَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ وَ لَمْ يَمْنَعْهُمْ سِهَامَهُمْ مِنَ الْإِسْلاَمِ وَ لَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ ثُمَّ أَنْتُمْ شِرَارُ النَّاسِ وَ مَنْ رَمَى بِهِ الشَّيْطَانُ مَرَامِيَهُ وَ ضَرَبَ بِهِ تِيهَهُ)) [1]

---

(١) نهج البلاغة ، ج٢ ، خطبة ١٢٧ ص ٢١٠.

فئة الخوارج من الفئات، التي مرقت عن الامام وانشقت عنه، لاسباب ودواعٍ ليس لنا الولوج فيها او مناقشتها، لانها ليست من مجال بحثنا الآتي.

وقد كانت هذه الفئة الضالة طعما لابليس استصرخهم فاجابوه، واستمالهم فلبوه، فانتصر عليهم منحرفاً بهم عن جادة الحق الى جادته، وقد لعبت هذه الفئة دوراً كبيراً وخطيراً، حين ادعت على الامام بما ليس فيه متهمتةً اياه بالكفر والضلال، منحرفة عن احكامه، ومتلاعبتةً بمعانيه ودلالاته بحسب الاهواء والرغبات، والمصالح الخاصة والانفس الحاقدة على الامام التي حاولت الانتقاص من الامام وتضليل المجتمع، عبر تكفيره والانتقاص من شأنه امام المجتمع مرتكبين بهذا جريمة بحق انفسهم، وبحق ابناء مجتمعهم، حين اخذوا المذنب بغير المذنب، والمخطئ بغير المخطئ، بلا تفكير وبلا تمحيص، وكان من زعم الخوارج، ان من اخطأ واذنب فقد كفر، فاراد الامام ان يقيم الحجة عليهم، وعلى بطلان زعمهم بما رواه عن النبي (صلى الله عليه واله وسلم) وكيف كان يتعامل مع المذنب، عبر اقامة الحدود بالعدل والانصاف. ويبدو ان فتنة الخوارج قد لقت رواجاً واقبالاً من المجتمع، فتأثر البعض بها.

يقول الامام: ((وَ سَيَهْلِكُ فِيَّ صِنْفَانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْحُبُّ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَ مُبْغِضٌ مُفْرِطٌ يَذْهَبُ بِهِ الْبُغْضُ إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ. وَ خَيْرُ النَّاسِ فِيَّ حَالاً، النَّمَطُ الْأَوْسَطُ فَالْزَمُوهُ، وَ الْزَمُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَ إِيَّاكُمْ وَ الْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّةَ مِنَ الْغَنَمِ لِلذِّئْبِ))[1].

ومن سياق هذه الخطبة، نجد ان اهواء الناس اختلفت في الامام فمن مبغض انحرف به البغض الى غير الحق ومن محب افرط في الحب فانحرف به الحب الى غير الحق، وخير الناس في رؤية الامام النمط الاوسط وهو نمط الاعتدال

---

(١) نهج البلاغة ، ج٢ ، خطبة ١٢٧ ص ٢١٠.

والتوازن بين الافراط والتفريط، وبين المغالاة والتطرف، ثم يحث عليه السلام الى نبذ الدعوات واللجوء الى التآلف والتكاتف والتوحد تحت راية الاسلام الواحدة، ولان التفرق عن الجماعة يعني الشذوذ، والشاذ عن الجمع، يكون فريستةً سهلة للشيطان كما الشاذ من الغنم.

إنحراف المجتمع الفكري:

فضلاً عمّا أسلفنا من هذه المظاهر الإنحرافية التي تشّخصَ في ضوئها إنحراف الأمة العقائدي الروحي والنفسي، وإنسياقها خلف الدعوات الضالّة والبدع والشبهات والإغراءات الشيطانية التي قادت الأمة إلى التعصُّب والتنازع والإنحلال كان هناك نوعاً إنحرافياً يُشكل خطراً على الإسلام كدين وعلى الأمة كمجتمع إسلامي وعلى إسلامية هذا المجتمع وتوجهاته العقائدية يتمثّل هذا الإنحراف في حالة الجهل (بالقرآن) هذا الجهل الذي أستشرى في المجتمع الإسلامي فأنحرف بهِ عن القرآن وعن التمسُّك بالقرآن ولا ريب أنّ أسباب هذا الإنحراف معروفة وواضحة لُكلّ ذي عقلٍ وبصيرة. فكيف بالأمةِ بعد أن تقع على القرآن وقد أنحرفت عن تراجمته، وعن قرائهِ ورُعاتهِ كيف بالأمةِ التي غيبت الحقيقة القاضية في التمسُّك بالقرآن مقترناً بأهل بيت النبوة.

وكانت نتيجة لهذا التغييب، ولهذا الإنحراف، أن وقعت الأمة على القرآن ناقصاً، مُشوباً في فهم دلالاتهِ ومعانيهِ وأستجلاء غوامضهِ، ومشتبهاتهِ، هذا فضلاً عن ضربِ القرآن بعضهُ ببعضٍ، وتحريف الكلم عن مواضعهِ والتلاعب في دلالاتهِ ومعانيهِ، بحسب الأهواء والرغبات والضرورات الخاصّة للفئات الضالّة التي وضحت أهدافها في تشويهِ الإسلام والتلاعب بإحكامهِ والإرتداد بالأمة نحو الجاهلية وأحكامها عبر الغزو الفكري المشوب بالأفكار الوثنية والجاهلية والشيطانية ومحاولة إغواء الناس على إتباعها والإنقياد لها بُحّجة التعلّم والتعرُّف

وعن طريق تشويش الأفكار، وإلباس الحق بالباطل، والزيف بالحقيقة، وتشويه المقاييس والمعايير الإسلامية وإحياء مقاييس الجهل، والجاهلية.

وكانت خُطبُ الإمام (عليه السلام) معياراً لما نقول ودليلاً قاطعاً على ما ندّعي في أستشراء حالة الجهل الفكري والتي صدرت عن قضاةٍ ورجال في دولة الإسلام ممّن تسمّوا بالعلم ونسبوا أنفسهم إلى العلم، وليس لهم من العلم شيء.

ولنقف الآن عند هذه الخطبة للإمام، يستنكرُ فيها على من يتصدّى للحكم بين النّاس، وما هو بأهل لذلك:

((إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه، فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة. ودعاء ضلالة. فهو فتنة لمن افتتن به. ضال عن هدي من كان قبله. مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته. حمال خطايا غيره. رهن بخطيئته)) [1]

إذن فهناك من يّدعي العلم وهو غارقٌ في الجهل والضلال مستأنساً في تضليل الآخرين، مُشبّهاً عليهم بالشبهات لابساً لهم الحق بالباطل، وهو رهنٌ بهذه الخطيئة حاملاً لخطايا الخلق الذين أضلّهم وأفسد عقائدهم وأضعف إيمانهم، وحرفهم عن المسار القويم حين أشبهَ عليهم بهذه الدعوات الضالّة، فهو حاملٌ وزرهُ ووزر من أقتدى به وأتبعه وهذا ما تتضحُ دلالاتُهُ ومعانيه في أكثر من خطبةٍ، وأكثر من حديثٍ للإمام، ولنا أن نستشهدِ بهذهِ الخطبة له (عليه السلام) حين يقول: ((ورجل قمش جهلا، مُوضع في جهال الامة، عاد في أغباش الفتنة. عم بما في عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس عالما وليس به)) [2].

فهذا الجاهل قد جمع الجهل فأستولى عليه، وسيّطر عليه حتّى قادَهُ إلى العمى عن سوء العاقبة، والغفلة عن سطوة الحساب، ومغبّةِ السؤال، فهو في هُدنةٍ

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٥١-٥٢.

(٢) نهج البلاغة، ج١، ص ٥٢.

العمى عن الحقيقة، غافلاً عن المستقبل، وحسابات الآخرةِ، وقد سمّاهُ أشباهُ الناسِ عالماً، وما هو من العلم في شيءٍ.

ثم يقولُ (عليه السلام)، وفي ذاتِ الخطبة: ((بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من آجن، واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا، ضامنا لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثا من رأيه ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت، لا يدري أصاب أم أخطأ فإن أصاب خاف أن يكون أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب. جاهل خباط جهالات، عاش ركاب عشوات، لم يَعَضَ على العلم بضرس قاطع، يذري الروايات إذراء الريح الهشيم. لا ملئٌ والله بإصدار ما ورد عليه، ولا هو أهل لما فوض إليه)) [1].

وإنّ هذا الجاهل ليس على بيّنةٍ من أمرهِ، فاذا عرضت له مُبهمةً أو مسألةً أستشكلَ الحلّ فيها وهو في ضعف حُكمهِ، كمثلِ نسج العنكبوت يتخبطُ بين الخطأ والصواب، وبين العمى والإبصار.

ويشُيرُ الإمام في خطاباتِهِ، إلى ظاهرة خطيرة تمثّلُ بُعداً إنحرافياً خطيراً، يتوصّلُ إلى تحريف القرآن، عن دلالاتهِ ومعانيهِ، التي أودعها اللهُ في كتابهِ العزيز، وجعل جواهرها، ومكنوناتها في متناول علوم أهل بيت النبوة، ولنقف عند أهل هذا الخطاب:- ((إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالا، ويموتون ضلالا ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه. ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر)) [2].

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ٥٢ - ٥٣.

(٢) م. ن، ج١، ص ٥٤.

وقد أمتلأ الإمامُ غيضاً من فئةِ الجُهّال، ودول الضلال، الذين تسلّطوا على أمور الأمّة ومقاليدها، فأستنزلوها، منازل الجهل والضلال والعمى وأستغرقوها في الشُبهات، والبدع، وقد ضربَ هؤلاء كتاب الله الذي فيه تبيان لُكلّ شيء وتفسير لكل الأمور بعضهُ ببعض، وأنصرفوا به عن دلالاتِهِ، ومعانيهِ الأصلية، وراحوا، يفسّرون، ويشرحون، بحسب ما تشتهي رغباتُهُم، ومصالحُهُم الشخصية والحزبية والقبلية، وهنالك ظاهرة أخرى تُمثّل نوعاً من الإنحراف الفكري والتعدد المذهبي والطائفي، الذي ليس له موجب ولا ضرورة. ألا وهي ظاهرة (إختلاف العُلماء في الفُتيا)، وعلى الرغم من كونهم أمةً واحدة، وعلى دينٍ واحدٍ، وعلى كتابٍ واحدٍ:

((ترد على أحدهم القضية في حكم من الاحكام فيحكم فيها، برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ثم يجتمع القضاة بذلك عند الامام الذي استقضاهم، فيصوب آراءهم جميعا وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه. أم نهاهم عنه فعصوه، أم أنزل الله دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه)) [1].

يقفُ الإمام (عليه السلام) في هذا النص، على أمور خطيرة، وظواهر إنحرافية، يتضّح فيها جانب مهم، من جوانب الحياة الفكرية للمجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول، حتى أبّان خلافة الإمام (عليه السلام)، ويبدو أن الفكر الإنحرافي ومظاهرهِ تمثّلت وتجسّدت وبشكلٍ واضح في القضاء، ويبدو أن هنالك أختلاف وتباين وإنفراج فكري واضح بين القضاة والعلماء ممّن كانوا يحكمون على القضايا، أو يُعطون رأياً في مسألةٍ أو مُعضِلةٍ، يقفُ الإمام في محاججة، وفي

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٥٤ – ٥٥.

نقاشٍ علمي منطقي، ينمُ عن قُدْرةٍ حجاجية وعلمية عجيبة، وكانت أهداف هذا الحجاج واضحة، وهي تبين الغامض على الناس، ممّن انخدعوا، بهؤلاء الجُهّال، الذين نسبوا أنفسهم إلى القضاء والعلم، ويناقش الإمام هؤلاء الجُهّال عبر التطرُق على بعض النقاط التي توضحّ خطأ ما سَقَطَ فيهِ هؤلاء:

١) هل أمر الله تعالى بالإختلاف بين العلماء والقضاة والحكماء، في القضايا فأطاعهُ هؤلاء.

٢) هل أمر الله تعالى بعدم الإختلاف، بينهم فعصاه هؤلاء؟

٣) هل أنزل الله ديناً ناقصاً، فأستعان بهؤلاء على إتمامهِ؟

٤) هل كانوا شركاءَ مع الله في إصدار الأحكام، والفتيا، بما يرغبون، ويشتهون، فلهم أن يصدروا الأحكام التي تعُجبهم، وعليه أن يرضى ويطيع؟ (حاشاه).

٥) هل أنزل الله كتاباً تامّاً، فقصّر الرسول عن إبلاغهِ ن وإتمامهِ؟ (حاشاه).

وكانت هذه هي النقاط التي حاجج بها الإمام هؤلاء الضُلاّل، ممّن نسبوا أنفسهم إلى الحكمة والعلم، وما هم بذلك، وطالما نصحَ الإمام المجتمع الإسلامي، بالرجوع والأستزادة، من أهل بيت النبوة، والتمسُك بهم، وبعلومهم، وبمعارفهم، والورود والصدور عنهم، لا عن غيرهم.

((انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى. فإن لَبَدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا. ولا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)) [1].

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ١٦٤.

وأذن فأنّ من أدّعى أن الحياة والفكر والعلوم تقوم بغير أهل البيت فإنّهُ مُخطيءٌ، فلا فكرٌ ناصحٌ إلا بهم، ولا علمٌ وقّادٌ إلا منهم، يقول الإمام في معرض هذه الدلالة:

((أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا، كذبا وبغيا علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم. بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى)) [1].

وإنّ ورود العلوم النافعة والمعارف الصحيحة، لا يكون إلاّ عن طريقٍ واحدٍ، وسبيل معروف، ومنهلٍ قويم، ألا وهو أهل البيت، وإنّ من زعَمَ غير ذلك، كذباً وبغياً، هو من أثر الكفر فألفهُ، وأستأنس بهِ حتّى أضحى كالملكة الراسخة فيه، وأولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا، وزخرفها وبهرجها، ويتناسون الآخرة، وما أعّد فيها للعالمين من ثوابٍ عظيم، غافلين عمّا أحدثوا من آثار، غير مُبالين أيّ سُنّةٍ سيئةٍ أبتدعوا، وأيّ شركةٍ مُنكرةٍ أستسّنوا.

وهذا ما نجد دلالاتهُ واضحة في قوله (عليه السلام)، وهو يذمُ الجهلاء الذين يُضلّون الناس بأسم العلم والمعرفة: ((آثروا عاجلا وأخروا آجلا، وتركوا صافيا وشربوا آجنا، كأني أنظر إلى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه، ويسئ به ووافقه، حتى شابت عليه مفارقه، وصبغت به خلائقه، ثم أقبل مزبدا كالتيارلا يبالي ما غرق، أو كوقع النار في الهشيم لا يحفل ما حرق، أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى، والابصار اللامحة إلى منار التقوى. أين القلوب التي وهبت لله وعوقدت على طاعة الله. ازدحموا على الحطام وتشاحوا على الحرام، ورفع لهم علم الجنة والنار فصرفوا عن الجنة وجوههم، وأقبلوا إلى النار بأعمالهم، دعاهم ربهم فنفروا وولوا، ودعاهم الشيطان فاستجابوا وأقبلوا)) [2].

---

(١) م. ن، ج٢، ص ٢٢٦.

(٢) م. ن، ج٢، خطبة ١٤٥، ص٢٢٦.

ومن هنا وخلاصةً لهذا النوع من الإنحراف، لنا أن نقول ما قالهُ الإمام (أنّ ما وقع فيهِ هولاء الضّالون المضلّون كان بسبب الإستسلام للشيطان ولقواه الكبرى، التي وسوست في صدورهم، وغشيت قلوبهم، وعيونهم، حتى ما عادوا يبصرون الحقائق أو يرون النور والهدى) ومن هنا لنا أن نُثبت ونقع على أن الإنحراف الفكري الذي وقعت فيه الأمّة وألبس الأمور عليها، كان بسبب مجموعة من الضُلاّل المضلّين الذين لبسُوا على أنفسهم وعلى غيرهم، فكانوا مصيدة إبليس، وهدفه وجنودهُ. وإنّ هنا الإنحراف الفكري كان نتيجة، وأمراً محتوماً، للإنحراف الروحي والنفسي الذي خلخلَ كيان الأمّة، وأطاح بكيانها الإسلامي، وهويتها العقائدية.

خلاصة الفصل الأول:

توضّحت لدينا في مباحث الفصل الأول السابقة مظاهر الإنحراف العقائدي الذي أصابَ المجتمع الإسلامي وترك اثاره واضحة على هذا المجتمع وتناولنا ذلك الإنحراف وفق مرحلتين - المرحلة الأولى - تتمثل بالإنقلاب العقائدي للمجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول - والمرحلة الثانية - تتمثل في الإنحراف العقائدي الذي أستحفل المجتمع أبّان خلافة الإمام علي (عليه السلام). وأوضحنا أثر الفئات الضَالّة المنشقة عن بيعة الإمام من (الناكثين والقاسطين والمارقين). وبيّنا ما لهذه الفئات من أثر في الإنحراف بالمجتمع والنزول به عن طاعة الإمام والإنحراف بهِ نحو المسارات الخاطئة العوجاء. وكان هناك من تأثّر بهذهِ الفئات وأستسلم لها.

وكان على الإمام، وفي هذه المرحلة الحرجة الخطرة من حياة الأمة أن يلج في تنفيذ أهدافه وغاياتهِ الإصلاحية، فكانت هذه الفترة هي طور جديد ومسار للتغيير فضلاً عن كونها إستمراراً لرسالة الإمام الإسلامية وتثبيتاً لدعائم وأركان الرسالة المحمدية وهي تفعيل جديد وتطوير جديد وإعادة الحياة للرؤية التي إنحرفت عن مسارها بعد وفاة الرسول ودخلها الكثير من التحريف، الكثير من التشويه والإجتهادات الشخصية الخاطئة، وكان على الإمام في هذه المرحلة الحاسمة أن يتواصل مع المجتمع ويتجاوب معه من أجل الوصول به نحو تحديد المواقف وتحديد المظاهر الإرتباطية، والصلات الإيمانية، بالمعتقدات الأساسية فمنذ أن توفي الرسول (صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلم)، أبتليت التجربة الإسلامية في إنخفاض الوعي العقائدي عند الفرد وصولاً إلى المجتمع، وكان الإمام يستشعر بخطر هذا الإنحراف عن المعتقدات والتواصل مع هذه المعتقدات، وكان هذا واضحاً في أستبدال المعتقدات ونزولها إلى مستوى التغيير والتبديل والمساومة حيثُ تُناط قيادة الأمة بالمنحرفين والفُسّاق أمثال معاوية وتُستبدلُ الثوابت الإسلامية بالشُبهات والأفكار المنحرفة والإتجاهات الغربية البعيدة عن الإسلام.

ومن هنا فقد أستشعر الإمام بخطر هذا الإنحراف لأنّ الأمة كانت مصابة في عقيدتها في روحها الإيمانية في صورة أرتباطها بالله وبالنبوة وبالرسالة وبالأمامة مصابة في سلوك السبيل إلى الله، مصابة في كيانها الروحي مصابة في شخصيتها الإسلامية، التي أنطمست معالمها وملامحها البارزة شيئاً فشيئاً حتّى عادت تضع قياداتها بأيدي منحرفيها وجُهّالَها، وفسّاقها، بني أميه، الشجرة الملعونة.

وأذن فالأمة كانت بحاجة إلى إعادة بناء الشخصية العقائدية لها وتوعيتها لضرورة التمسُّك بها، ونوعية التعامل معها وبما يتلاءَم، ومستوياتها وأهميتها وبما يخدم صلاح الفرد الروحي والشخصي والسلوكي، والأخلاقي ومن ثمّ توجيه هذا الوعي العقائدي في خدمة الإسلام وتحديد معالم الشخصية الإسلامية ومعالم رسالتها الإنسانية العالمية. ولتكون هذه العقيدة هي مركز التوجيه، مركز القيادة مركز التنوير للمجتمع ولأنّ ((القاعدة الأساسية شيء ضروري وجوهري لكلّ مجتمع يريد لكيانه التماسك والبقاء، ويهدف إلى الرفاه والسعادة والعزّه ذلك لأنّ القاعدة الأساسية هي المحرك الصميمي يمدُّ المجتمع بالحيوية والنشاط وهي التي تحفظ للمجتمع وحدته، وتماسكه وهي تكون نقطة لكل الأعمال فيه، وهي - بعد كل هذا العنصر الذي يحتل مركز الحارس للمجتمع عن الإنحراف والتردّي والخروج عن الأهداف والخطوط التي يمارسها ويعمل لأجلها)) [1]، ولأنّ العقيدة، بما تحمل من أسس وثوابت وجبَ الإيمان بها والإعتقاد بقيمتها المطلقة كتنظيم للوجود والعالم وكرؤية نظرية تتدرج إلى واقع عملي نظامي إجتماعي، إذ ((لم يحدث في الماضي ولن يحدث في المستقبل أيضاً أن يوجد مجتمع يمارس حياته بغير عقيدة تنظّم هذه الحياة)) [2]، لأنّ العقيدة بثوابتها، وأسسها ومستوياتها ليست ((ديانة صوفية تحمل الإنسان على أن يتجرّد من الواقع

---

(١) رسالتنا، ص ١٢٦.

(٢) م. ن، ص ١٠٣.

ويرفضه ويتخلص منه، بل ديانه ذات صلة حميمية بالواقع الإنساني)) [1]. بل هي عقيدة مفتوحة على الحياة، والمجتمع تدعو إلى إيجاد ترابط دائم بينها، وبين الفرد والمجتمع بل هي التي تمدُّه بالنظام ونوع النظام وشكل النظام وجوهر العمل وهي التي تقدم له الحلول الموضوعية، الحلول الوسطية المتوازنة التي تتوازن فيها الحاجات الجسدية، والرغبات النفسية والشخصية مع الضرورات الدينية، والأحكام التشريعية والقيود والمبادئ والأعراف الأخلاقية، ومن هنا لنا أن نقول ((كان الإسلام ولا يزال وسيبقى أهم وأخطر وأنبل محاولة لتحقيق العدالة بين الناس ولتكوين مجتمع إنساني)) [2].

وللوقوف على أثر العقيدة في إحياء النظام الإجتماعي، سوف نتناول آراء الإمام واتجاهاته الإصلاحية العقائدية وتوضيح نقاط منهجه العقائدي الإصلاحي وأسلوبه في إعادة بناء العقيدة الإسلامية، محاولاً ترسيخها في أذهان الفرد والمجتمع، وكيف عَملَ على إيجاد تسلسل واضح لهذه الأسس وأهميتها في حياة الفرد والمجتمع، وكيف أوجَدَ آلية للتفاعل مع كُلِّ قيمة من هذه القيم العقائدية آلية للتعامل مع كُلِّ مستوى ووجوب التعاطي معهُ ووفق عَدَّة جوانب، وذلك سيكون في مباحث الفصل التالي (الإصلاح والواقع النظري).

---

(١) م. ن، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) م. ن، ص ١٠٦.

الفصل الثاني
رسالة الإصلاح والواقع النظري

نظرية الإمام الإصلاحية بين التصور الكوني والتطبيق الأيد يولوجي العلمي:

المبحث الأول: نظرية الإصلاح العقائدي

- فلسفة الاعتقاد والضرورة الاجتماعية
- ثوابت الاعتقاد والنظام الاجتماعي
- مستويات الاعتقاد واتجاهات السلوك الاجتماعي
- منهج الإصلاح العقائدي

المبحث الثاني: نظرية الإصلاح النفسي

- فلسفة الإصلاح النفسي
- منهج الإصلاح النفسي
- مظاهر الإصلاح النفسي والضرورة الاجتماعية
- نوازع النفس وإبعادها السلوكية والأخلاقية

نظرية الأمام الإصلاحية بين التصور الكوني والتطبيق الأيديولوجي (العلمي)

كانت الفترة الزمنية ما بين وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه واله)، وما بين تولي الأمام زعامة الأمة الإسلامية فترة طويلة نسبيا اعتاشها المجتمع في ظل غياب القائد الملهم، القائد الاجتماعي الإسلامي الرمز الذي يتحمل أعباء الأمة الدينية والاجتماعية،(وسوف نعمد على تفصيل هذا الأمر لاحقا إن شاء الله) مما أدى إلى نخر كيان الإسلام ونخر كيان الشخصية الإسلامية،وتفتيت المجتمع، وتفرقه،عقائديا وسياسيا واقتصاديا، هذا فضلا عن ظهور الفتن والصراعات القبلية، والاتجاهات العصبية في معالجة قضايا المجتمع. وحين ولي الأمام زعامة الأمة واجه مجتمعا ممزقا شر تمزيق ومشتتا فرقا وأحزابا وطوائف وواجه الأمراض الاجتماعية بشتى مظاهرها كالتخلف الفكري والجهل والفقر فضلا عن الأمراض النفسية التي أججها التعصب القلبي، والانحراف العقائدي، كالحسد والضغينة والتباغض والتباعد وكان الأصعب على الأمام هو مواجهة الانحراف الذي لحق الشريعة الإسلامية، التي عطلها الساسة والقياديون، فضلاً عن الحدود، والانحراف عن مبادئ الإسلام، وإحكامه وتشريعاته، التي جاء بها الرسول في رسالته المباركة للإنسانية جمعاء، جاء بها إقامة للعدل واحياء للحقوق والواجبات وتخليص الضعفاء عن الظلم والبطش، وتفعيل دور الإنسان في الحياة كفرد له كيان وشخصية واحترام يقيم بها بين الناس لا على أساس الأحساب والإنساب والجاه والسلطة التي كانت سائدة في عصر ما قبل الإسلام، وكانت مهمة الإصلاح عسيرة وشائكة، حتى على إمام معصوم متعدد المواهب، متكامل الشخصية، مؤهل للإصلاح كعلي بن أبي طالب (عليه السلام) لان الأمة كانت قد اعتادت على نمط معين من الالتزام، كانت قد اعتادت على الأسلوب المنحرف، والاتجاه الطائش، والاستهانة في أقامة الحدود،وتعطيل السنن

والشرائع، وكانت رحلة الأمام الإصلاحية مواكبة للظروف، ومواكبة للإحداث مواكبة للمجتمع الإسلامي وتطوراته واتجاهاته وانفراجاته الطائفية، والحزبية، وقد ابتغى الأمام بهذا الإصلاح تغيير المجتمع، وتهذيبه، ورفع مستواه الاقتصادي وتهيئته تهيئة روحية لتتواءم مع درجة الإصلاح التي كانت في ذهن الأمام، وقد آمن الأمام (عليه السلام) بان الإصلاح السياسي أو الإصلاح الاقتصادي على المستوى المؤسسات لابد وان يكون مسبوقاً بإصلاح ذاتي نفسي روحي، يتغلغل في دواخل النفس، ويعمد الى إصلاحها أصلاحا جذريانفسيايملأ الفراغ الروحي، والضعف العقائدي، الذي استشعرت به النفوس أبان وفاة الرسول، وحيازة الخلافة عن الأمام والاستئثار بها من قبل بعض العناصر الدخيلة على روح الإسلام وأحكام الإسلام، وشريعة الإسلام، يقول الأمام واصفا وظائف الأمام في الأمة:

((انه ليس على الأمام إلا ما حمل من أمر ربه الإبلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقيها وإصدار السهمان على أهلها)) [1].

إن في هذه الخطبة للإمام يتضح جليا دور الأمام في قيادة المجتمع، وعلاقة الأمام بالأمة وواجباته تجاه الأمة ودور الأمام في عملية الإصلاح.ولأن هذه ((العلاقة التي تربط الأمام بالأمة، والأمة بالإمام ترتكز على محور الإمامة، فالإمام قائد ديني، وقائد اجتماعي)) [2].ومن هنا كان الإمام قائداً دينياً يتولى تحصين الرسالة عن الانحراف، وهو قائد اجتماعي يتولى تحصين الأمة عن الانحراف، وعن الانفراج عن المسار القويم للدين الإسلامي والرسالة السماوية. فبعد أن جاء ((اليوم الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه واله وسلم كان

---

(١) نهج البلاغة ، ج١ ، ص١٧٤.

(٢) الإمامة وقيادة المجتمع ، ص١٣٥.

اليوم الذي خلَف فيه النبي تجربته الإسلامية في مهب القدر في رحبة المؤامرات التي أتت عليها بعد برهة في الزمن)) [1].وكان الإمام علي بكل ما أوتي من خصائص، وتفرد فيه من مميزات، ومؤهلات هو الرجل المثالي لحمل أعباء الأمة الإسلامية.وهو ((الذي كان يعبر عن كل هذه المراحل وبكل همومها ومشاكلها وآلامها))[2].

فحين طغى الانحراف في أعماق هذه التجربة بعد وفاة الرسول لم يكن هناك إي أمل في إصلاح هذا الانحراف إلا على يد رجل كعلي بن أبي طالب، لذا كان مفترضا على الأمام أن يشخص ويعالج الوضع الراهن الموبوء بالإمراض والعلل والانحرافات عن طريق التعبئة الفكرية للفرد وللمجتمع، فكانت تلك التعبئة عن طريق الخطاب المباشر الذي وجهه الأمام للناس، وعن طريق رسائله وكتبه وخطاباته التي بعثها إلى ولاته وقواده وأمراء جيشيه، وقادة الأمصار الإسلامية. وحتى تلك التي بعثها الأمام إلى أعدائه وكانت تلك الخطب والرسائل والحكم، تحمل رؤى الإمام الفكرية، ونظراته الكونية في الوجود والعالم، واتجاهاتها الإصلاحية، وتمثل هذه الجوانب المنظومة الفكرية للإمام التي ننتزع منها (نظرية تكاملية وإصلاحية)، يرى الأمام في تطبيقها صلاح الأمة، من الفرد وصولاً إلى المجتمع.

وهذه النظرية التكاملية المنتزعة في ضوء الخطاب الفكري، وفي ضوء التنوع المعرفي والعلمي والحكمي جاءت كضرورة اجتماعية، قدمها الإمام كأطروحة واضحة المعالم، كثيرة الاصطلاحات، عميقة الغور، واسعة الرؤية، غير محددة زمنياً، ولا مكانياً جاءت كاستجابة لمتطلبات الواقع، بعد أن انحرف المجتمع عن مساره الصحيح في التطبيق الحقيقي الصحيح لمبادئ الإسلام وتوجيهاته المقتبسة

---

(١) أهل البيت ، تنوع أدوار ووحدة هدف ، ص٥.

(٢) أهل البيت ، تنوع أدوار ووحدة هدف ، ص٥.

عن رؤية إيمانية عقائدية متكاملة مستوفية لشروط العقيدة التي أرسى أسسها الرسول، وجعل استكمالها وتطبيقها لشخص الإمام علي الذي كان مفترضاً له مرحلة تطبيقية تابعة لدور الرسول، ومستكملة لمنهجه الإصلاحي، ومطورة لخصائص هذا المنهج، وموضحة لسماته.

فضلا عن كون هذه (نظرية) جاءت استجابة لحاجة المجتمع المعاصر للإمام فهي أيضا ماسه وضرورية للمجتمعات اللاحقة للإمام وحتى يومنا هذا لان هذه المرحلة لها: ((دور تأريخي في تطوير حياة الإنسان وفي تأهيل المجتمع الإنساني لكي يدخل الدور المتقدم الذي يوصله إليه الإمام المتقدم))[1].

ولقد توفر هذا الدور للإمام علي بوصفه أول إمام معصوم أتيح له أن يمارس السلطتين الدينية والاجتماعية، ولمدة خمس سنين، كانت هذه المرحلة حافلة بالعمل، حافلة بالجهد النظري،فضلا عن التطبيق المبدئي العملي، فوظف الإمام طاقاته العلمية والمعرفية والفكرية في سبيل إحياء الأمة إحياء دينيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وكان يعمد في كل حدث، وفي كل موقف، أن يضع بين يدي الناس ابتكارا إبداعيا فكريا يمثل بعضا من أطروحته الفكرية التكاملية الرامية إلى إصلاح المجتمع، وعلى الرغم من صعوبة المهمة وتعقيد التجربة، فقد تميزت تلك الأطروحة بأنها كانت أطروحة ذات رؤية مستقبلية تطورية تتجاوب مع المجتمع الآني المعاصرللإمام وللمجتمعات اللاحقة له، ولم تكن وقتية محدودة تتناسب مع مرحلة، واحتياج وقتي ينتهي بنهاية أسبابه، وعوامله.

وذلك لانه ((لم يكن الإمام يفكر فقط في الفترة الزمنية التي عاشها وإنما كان يفكر على مستوىآخر أوسع وأعمق، هذا المستوى يعني أن الإسلام كان بحاجة إلى أن تقدم له في خضم الانحراف بين يدي الأمة أطروحة واضحة صريحه نقية لا

---

(١) أضواء على دولة الإمام المهدي (عج) ، ص١٥.

شائبة فيها ولا غموض ولا التواء فيها ولا تعقيد ولا مساومة ولا نفاق ولا تدجيل))[1].

وفي ضوء ذلك الانحراف، فأن الإمام علي وفي توليه خلافة الأمة، وكان عليه أن يترسم خطواته الرامية إلى التغيير الرامية إلى الإصلاح التكاملي الشمولي، الذي يسمو بالفرد والمجتمع نحو الحياة الحرة الكريمة والارتقاء بالإنسانية وفي سبيل إحياء التجربة الإسلامية المنحرفة، وتحديد مسار جديد يغاير المسارات القديمة التي تبناها الخلفاء السابقون عن الإمام، وكان لزاما على الإمام تبني (خطة تكاملية) شمولية يروم بها وضع النظم الجديدة للمجتمع، وتنظيمه تنظيما ملائما، يتناسب وحجم الخلل والانحراف الذي لحق به، تنظيماً حياتياً ينبع من رؤية إسلامية صحيحة وحكيمة، تنظيماً حياتياً يتصور ضمن أيديولوجيه عمل متكاملة أيدلوجية تحدد خصائص المجتمع الإسلامية بمصداقية، ووضوح، وبلا تلكؤ أو تردد أو الحياز أو مساومة أو تحريف، أيديولوجية تصنع الشخصية الإسلامية تعيد صياغتها وبناءها، كنموذج وكرمز وكمثل أعلى ينبغي تطويره وتقويمه بالعمل والاجتهاد والإخلاص والتفاني وقد انطلق الإمام في تطبيق تلك الإيديولوجية ذات الأسلوب المستوعب لكل التوجهات الاجتماعية، والنزاعات الفردية، والتطلعات المشروعة للإفراد في نطاق الأمة.

ولم يلجأ الإمام إلى خطة جزئية تكمل في جانب وتقصر في جانب آخر وإنما جاء بأسلوب تنظيمي للواقع ينصهر ويتجاوب مع تطلعات الإنسان بنظرة تقوم الوجود وتطوره نحو الأفضل والأسمى والأمثل والأعمق وعلى أساس تصوري كوني يمثل مجموع نظرات الإمام إلى الواقع وإلى العالم بنظرة تصور الكون والوجود والعالم تصورا متوافقا مع الاعتقاد، نظرة كونية مبنية على أسس عقائدية تؤمن بالله، كقوة عليا وبالأنبياء والوحي والملائكة كمخلوقات، تحمل

---

(١) أهل البيت ، تنوع أدوار ووحدة هدف ، ص١٣.

رسالة الله إلى البشر، وبالمعاد وبالموت والثواب والعقاب الأخروي وبالعدالة الالهية في التكوين والتشريع، فضلا عن الاعتقاد و الإيمان المطلق بكرامة الإنسان وحريته في المجتمع و بلا تنافي مع المسؤولية إمام الله، وهذا التصور الكوني للإمام وهذه النظرة الفلسفية المبنية على أساس عقائدي وتوحيدي بالله، يقترح النظام الأمثل لهذا الكون، فوضع فلسفته عن الوجود، وعن الذات إلالهية، وعن الذات الإنسانية وعن الملائكة والشياطين والأنبياء والرسل والمخلوقات والعالم المادي، والعالم ألما وراء الماديات (الميتافيزيقية)وكان لهذه الرؤية الفلسفية، نظمها الأيدلوجية الهادفة إلى تقويم المجتمع والارتقاء به نحو الأفضل عبر سبل الإصلاح والتغيير، فكان المنهج الإصلاحي الاجتماعي الهادف إلى تعريف الإنسان بربه وتعريفه بنفسه، وشخصيته الإسلامية، وكيانه الاجتماعي في مجتمع إسلامي وتوظيف طاقاته في سبل الخير والصلاح، وتوعيته توعية فكرية (روحية وعقلية)، وتوعيته توعية أخلاقية سلوكية يتعامل بها مع الناس والمجتمعات الإنسانية وإعداده كشخص مسلم يحمل الهوية الإسلامية ذات الخصائص المنسجمة المتكاملة عقائديا من حيث الفكر والعاطفة والسلوك، وتهيئة الإنسان تهيئة نفسية لمجابهة الإصلاح الذاتي والنفسي الداخلي الذي ينبغي له البدء من زاوية النفس مرورا بالعقل ثم الأخلاق التي تطفو على سطح الواقع الظاهر للعيان والبائن عن المستويات السلوكية (الأفعال والأقوال) الا فعال المنظورة، والأقوال المقروءة من قبل المجتمع والأمة عامة وهذه التهيئة النفسية للإصلاح تبدأ بملء الفراغ الروحي الذي قد يعتنق نفوس البعض مما يسبب انهيارا سلوكيا وأخلاقيا طافيا مع الآخرين في التعامل والتعاطي وملء الفراغ الروحي هي أولى مراحل الإصلاح النفسي الذي رام به الإمام القيام بالجولة الأولى من الإصلاحات الجذرية التي ينبغي بها إن تطهر المجتمع والفرد من الاعتقادات الخاطئة أو الموضوعة في غير موضعها الصحيح، وكانت للإمام نظرة فاحصة في تقدير حجم الانحراف الذي لحق بتجربة الإسلام وتشخيص مواطن الخلل والعوارض

والأمراض التي تعاورت في إفساد المجتمع والأمة الإسلامية سياسيا واقتصاديا وفكريا واجتماعيا.

إذن فقد كانت نظرات الإمام الفلسفية وتصوراته الكونية التي نظر بها إلى العالم، ورصد أبعاده المادية واللامادية المحسوسة واللامحسوسة مبنية على أسس ومبادئ آمن بها الإمام وأستند عليها في تقويم تصوراته بشكلها النظري، وكانت تلك الأسس هي القاعدة العقائدية الرصينة التي أنطلق منها في صياغة مفاهيمه ومصطلحاته ونظرياته وتوجهاته في وصف العالم - الكون - الموجود.

وكانت تلك القاعدة العقائدية هي القوة الدافعة، التي منحته القوة وعززته بالغلبة والانتصار، فجاءت أفكار الإمام الفلسفية وتوجهاته الإيديولوجية مصاغة بصياغة علمية منطقية تسلسلية مبدوء بالمقدمات الصائبة ومتبوعة بالنتائج الصائبة، فضلاً عن العمق الفلسفي الذي ينبض منها، والبحث ألتساؤلي الذي تجوهر منها، مما منحها عمقاً تجريدياً، غائراً في عمق الموجود، موضحاً إياه، مفسراً ما غمض منه. مستخلصاً له بعداً تعريفياً، بعداً تقريبياً، وهذا ما وجدناه، واضحاً أشد الوضوح في خطبته (عليه السلام)، التي وصف فيها الذات الإلهية، أو تلك التي وصف فيها الملائكة، أو تلك التي وصف فيها الشيطان مستنداً على حقائق للاستدلال والبحث، واصفاً المكنون، متعرفاً الجواهر، وبكل فلسفية، وبكل ما في هذه الكلمة من أبعاد يصلح في ضوئها الإنسان ويرتقي من فيض جواهرها المجتمع، الذي طالما جهل الحقائق المكنونة عن الله والملائكة والكون والموجودات، وكانت من تلك الحكمة النظرية المبثوثة في خطاب الإمام، تلك الحكمة العملية، وذلك البعد العملي، المتمثل بالعملية الإيديولوجية التطبيقية. لأن هذه النظرات الحكمية والتصورات الكونية بعمقها الإيماني وفيضها الوجداني، وأساسها العقائدي، تمثل مقدمة للنتيجة التي تتمثل في تطبيق المبادئ والعمل على تنفيذها في الساحة الإسلامية. ونحن حين ندرس الحكمة العملية في رحاب نهج البلاغة، فإنما ندرسه كواقع عملي تنفيذي تطبيقي لمبادئ الإسلام

التي أرادها الله. حيث طمح الإمام بهذه الحكمة العملية أن يرتفع بالوجود، يرتفع بالواقع، ويحسن الأوضاع الاجتماعية للأمة الإسلامية. وتجلت هذه الحكمة العملية والرؤية الإيديولوجية تجلياً واضحاً في خطب الإمام وكتبه، وحكمه التي وجهها إلى أفراد المجتمع الإسلامي، كي يرتفع بهذا المجتمع، بعد أن عاش مرحلة كساد فكري، وانحراف روحي، بعد غياب القائد الروحي الرمز، المتمثل في شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وكانت تلك العلاقة التلازمية التابعية بين التصور النظري والواقع العملي، وبين الوجود والارتقاء بهذا الموجود. ونقف الآن عند هذا النص للإمام الذي يتضح فيه ذلك التدرج العملي التطبيقي، نزولاً من الرؤية والتصور النظري إلى الواقع العملي الإيديولوجي.

((فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر والزكاة تسبيبا للرزق، والصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، والحج تقربة للدين، والجهاد عزا للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعا للسفهاء، وصلة الرحم منماة للعدد، والقصاص حقنا للدماء، واقامة الحدود، اعظاما للمحارم، وترك شرب الخمر تحصينا للعقل، ومجانبة السرقة ايجابا للعفة، وترك الزنا تحصينا للنسب، وترك اللواط تكثيراللنسل، والشهادة استظهارا على المجاحدات، وترك الكذب تشريفا للصدق، والسلام امانا من المخاوف، والامانة نظاما للامة، والطاعة تعظيما للامامة...))[1]. انظر إلى هذه الخطبة القليلة في سطورها العميقة في دلالاتها ومعانيها الشمولية في رؤيتها الإصلاحية في أهدافها، التكاملية في غاياتها، والى هذا التدرج بين مستويين من الحكمة، المستوى النظري والمستوى العملي، الذي يوظف النظرية طور العمل ويبدأ بالتنفيذ، فيبدأ بالمقدمات ثم يمهد للنتائج المطلوبة، والى هذا التسلسل المنطقي الاستقرائي، الذي يبدأ البدايات الصائبة وينتهي بالنتائج الصائبة.

---

(١) نهج البلاغة ، ج٤ ، ص٥٥١-٥٥٢.

والى هذا الحس التكاملي الإنساني الذي يسعى بكل حيثياته وصولاً إلى إصلاح الفرد وتقويم المجتمع. وصولاً إلى العالمية والإنسانية جمعاء.

ونرى في هذه الخطبة أبعاداً عقائدية، أبعاداً روحية، أبعاداً نفسية، أبعاداً اجتماعية، أبعاداً أخلاقية وسلوكية، أبعاداً سياسية، أبعاداً اقتصادية، أبعاداً تشريعية وإنسانية.

١) فقد فرض الله الإيمان أي (العقيدة) كنوع من التصور النظري، أو الحكمة النظرية، التي تصبح مقدمة لنتيجة وغاية اجتماعية مهمة. حيث يصبح الاعتقاد، والنزعة الروحية، والبعد المبدئي له، مقدمة وبداية لنضوج روحي، ونضوج فكري، ونضوج سلوكي وأخلاقي.

٢) وأما في فرض الصلاة على المسلمين، ففي هذا الأمر فلسفة ومعاني كبيرة جداً، وغايات مهمة جداً، ومن هذه المستويات، ذلك التنزيه، وذلك الانخلاع النفسي عن التكبر، والاستكانة لله، والخشوع والتذلل المتمثلة بالسجود والركوع والانحناء، وتلك الأعمال الجسدية والجسمية، تكون نوعاً من الخضوع لله، والوقوف بين يديه الرحيمتين، بمزيدٍ من التواضع والتصاغر لعظمته وكبريائه وجبروته (جل وعلا). وإن في هذا التواضع لله أبعاد اجتماعية وسلوكية وأخلاقية تترك أثرها في تعامل الفرد، وفي تفاعله مع الناس والمجتمع.

٣) ويكون في الصيام ذلك النوع من العبادة والطاعة المميزة جداً، والراقية جداً، التي تتحول من العبادة الإلتزامية باستشعار الجوع والعطش، إلى عبادة روحية، واستشعار بآلام الفقراء، والجياع، فتخلق فيه حالة إنسانية، حالة وجدانية استشعارية بأهمية الناس وأهمية معاناتهم. فضلاً عن كونه عبادة واختباراً لإخلاص الناس في هذا العمل الذي لا ينجح منه إلا من استشعر قلبه الإخلاص والإيمان الحقيقي بروح الصيام، لا بجانبه الظاهري فقط، بل بواقعه الذاتي، وأهميته النفسية، وأبعاده الإنسانية والاجتماعية.

٤) وللزكاة التي هي أحد أركان الإسلام المهمة والواجبة على كل فرد متمكن مادياً، وروحياً، أن لا يبخل بزكاته في مساعدة الفقراء والمحتاجين سواء أكانت تلك الزكاة مساعدة مادية مالية أو غيرها، أو معنوية روحية كأن تكون في نصيحة أو كلمة طيبة. وبذلك تكون للزكاة فلسفتها الإنسانية ذات العمق المعنوي والروحي فضلاً عن أثرها في رفع المستوى الاقتصادي للفقراء والمعوزين وانتشالهم من حالة الفقر والتخلف والجهل إلى مستوى آخر، وبذلك تتحقق الأبعاد الاجتماعية المنشودة عن طريق توطيد العلائق بين الأفراد، علائق المساعدة، علائق المودة والتبادل، علائق التراحم والتواصل الاجتماعية.

٥) وفي فرض الجهاد، الذي هو تكليف من الله على كل فرد قادر، ففيه الحفاظ على عزة الإسلام، وكيان الأمة الإسلامية، وإحياء للشخصية الإسلامية، بين المجتمعات العالمية والطوائف الدينية الأخرى، ومن الجهاد ديمومة واستمرار للإسلام، وإعزاز له وفرضه على الأمم كنظام اجتماعي أمثل، وواقع اعتدال وإنصاف، وإحقاق للإنسانية جمعاء.

٦) ويكون في الأمر بالمعروف، كصورة نظرية أثر إيجابي في تنبيه الفرد، إلى صور الانحراف التي ينزلق فيها البعض، فيكون الأمر بالمعروف صالحاً اجتماعياً، ينصلح في أثره الفرد والمجتمع. وكان في النهي عن المنكر مستوى تنظيري يتطور ويرتفع كمستوى عملي حين يكون في هذا النهي ردع عن الأعمال المنكرة والقبيحة، التي من شأنها تنحية المجتمع والانحراف به عن خط الاستقامة، وتجربة الإسلام الصحيح المتجوهر بالقيم والمبادئ والأخلاق، والأهداف السامية.

٧) وإن لصلة الرحم، والتي هي مظهر اجتماعي، وصلة اجتماعية ترابطية بين الأقارب، أثرها وأبعادها الكبيرة وتتمثل تلك الأبعاد في كونها صلة اجتماعية تقوى بها الروابط الإنسانية بين الأقارب والأخوان، وبالتالي فهي تعمل على إحياء النزعة الروحية وتقوية المعنويات النفسية وتأجيج معالم السعادة والفرح الروحي الذي يستشعر به الفرد جراء اجتماعه وتواصله مع أقاربه ومحبيه، فضلاً

عن أثرها الاقتصادي المتمثل في تقديم المعونات المادية بين الأقارب، مما يسهم في رفع المستوى الاقتصادي للفقراء والأيتام والمحتاجين، فضلاً عن هذين البعدين (الروحي والاقتصادي) لصلة الرحم، فإن هناك بعداً آخر لصلة الرحم يكاد يكون ذا أهمية كبيرة، خصوصاً بعد الحروب التي شنها الغرب ضد الإسلام، ومحاولة تقويضه، وإفشال تجربته النظامية الصالحة المثالية. وهذا البعد يتمحور على (مضاعفة أعداد المسلمين) بواسطة صلة الرحم - لأن هذه الصلة كفيلة بأن تحقق نوعاً من التفاهم، نوعاً من التوائم بين الأقارب، مما يهيئ لإنشاء علاقات اجتماعية جديدة عن طريق الزواج. وما يتحقق فيه من منافع فردية واجتماعية.

٨) ويكون في إقامة الحدود،ومعاقبة المسيئين والمجرمين والمنحرفين عن الصراط القويم، ممن يلجؤون إلى ارتكاب جرائم بحق الأبرياء، ويكون في تشريع القوانين محاسبة لهؤلاء ورادعا لهم عن التمادي في خطاياهم وظلمهم واستبدادهم ولولا هذه التشريعات والقوانين التي وضعها الله كمستوى نظري، يكون في تنفيذها ذلك البعد العملي التنفيذي في الاقتصاص من المجرمين والمذنبين، وما يترتب على هذا الاقتصاص في أثار إصلاحية للمجتمع جراء أبعاد مثل هذه العناصر عنه ولو لم تكن هناك قوانين إلهية رادعة لأعمال هؤلاء، لتفشى الفساد، واستشرى الظلم والقتل والاستبداد في كل مكان.

٩) وإن في ترك الخمر وشربها، وتعاطيها بعدا اجتماعيا مهما متمثلا في كون هذه المكسرات باباً لانفلات الإنسان، وا لخلاعه عن شخصيته،ومظهره، وهيبته الاجتماعية، لان الشرب والتعاطي مع المكسرات باب لفقدان الصواب، وفقدان للعقل ولو ذهب من الكائن عقله إذن فقد خسر احترام الناس، وهيبته بينهم، وإتزانه وقوامه السلوكي معهم، وعند هذا يصبح صورة مشابهة للحيوان، والذي لاعقل ولا رادع له، هذا فضلا عن أثارها في الانخفاض بالمستوى الاقتصادي للفرد والمجتمع، وغير هذا في الآثار الصحية.

١٠) وإن في تحريم السرقة أبعادا وأثارا اجتماعية بعضها روحي ونفسي، يتمثل في تطهير الإنسان وسائر جوارحه وأعصابه من المحرمات ولمس مال الآخرين، هذا فضلا عن أثارها الاقتصادية، بوصف السرقة اضرار بالمال العام والخاص.

١١) وإن في تحريم الزنا رادعا للمجتمع عن الانحراف الذي تسببه إباحة الجنس بلا زواج أو عقد شرعي واجتماعي، وما لهذا الانحراف أثار سلبية، منها اختلاط الإنساب الذي يعد كارثة اجتماعية، يشينها العقل والمنطق، والأعراف والتقاليد الاجتماعية والعشائرية، ناهيك عن الأضرار الاقتصادية التي يسببها الزنا، فضلا عن أثاره وعواقبه الصحية.

١٢) وقد كان في تحريم اللواط، الذي يعد من الأساليب الشائنة التي لها عواقب اجتماعية وصحية وأثار صحية واقتصادية، على الفرد والمجتمع عموما، فضلا عن كونها حالة مكروهة ومنبوذة اجتماعياً، وتفقد الفرد هيبته وحصانته بين الناس، التي ستكون موضع السخرية والاستهزاء، والاستغراب من الناس، وحقدهم، على من يمارس هكذا أفعال في مجتمع يتسب إلى الرسول، وأهل بيت النبوة،

١٣) أما الجهاد والشهادة في سبيل الله والموت في سبيل الله والحق،وفي نصرة الحق، والأيمان، والمبادي، ومن هنا كان للجهاد والشهادة أثارها الاجتماعية، حيث تثقل كفة الحق، وتضعف كفة الباطل، وتوضح في هذا المسارات، مسارات الحق عن مسارات الباطل.

١٤) أما الكذب، فهو من الآفات الاجتماعية التي استنكرها الله ورسوله واستنكرتها الشريعة السماوية الإلهية، ولما لهذا التحريم من تهذيب للنفوس، وتفريغها في شحنات الفساد الروحي، التي تظهر بشكل علني مسموع أو مقروء عبر الأقوال، أو الأفعال، فيكون في هذا التحريم، رادع للكاذبين، وإحياء لفضائل الصدق والنزاهة، وتشريع له، ومحاولة لإيجاده كصيغة للتعامل، ورؤية

للتفاعل فيما بين الإفراد، وكصورة للتجاوب والتواصل الاجتماعي، وناهيك عن أثاره النفسية التي تتجسد كصورة معنوية ترتفع جراء احترام الشخص لذاته المنزهة عن الكذب، هذا فضلا عن احترام الآخرين له، لما يستشعرونه منه من الفضائل والمعاني، والترفع، والتسامي عن الكذب، فضلا عن تفعيل الرابطة الأخوية والثقة المتبادلة بين الأطراف وهذا ما يعمق أواصر الإنسانية والأخوة والاجتماع التي يبتغيها الإسلام للمجتمعات عامة.

١٥) ويكون في السلام أمان من المخاوف، لان (السلام) له عدة دلالات، وعدة احتمالات، الدلالة الأولى: أن السلام يمثل المسالمة، وإن الابتداء به يعني أن المسلم أو الشخص المبتدى بالسلام، نيته خيرة، وليست شريرة، الدلالةالثانية: أن السلام هو سلوك منظورللعقيدة الإنسانية، وهويته الروحية، التي تخفى عن الآخرين، فيكون تمظهرها في استظهار السلام فيصبح السلام دليلا على عقيدة الفرد، فحين تكون التحية إسلامية يتبادر إلى الأذهان أن الشخص المبتديء بالسلام هو على الاسلام، ويحمل هذه الهوية الكبيرة والناصعة، الدلالة الثالثة:- هو أن السلام هو وشيجة من وشائج التقارب، والصلات الاجتماعية، والروابط الإنسانية فحين نبدأ الحديث مع الآخرين بالسلام، وعن طريق التحية، يكون التجاوب أكبر، والتفاعل أكثر.

١٦) ثم يقول عليه السلام أن الأمانة نظامٌ للأمة إن لهذا الكلام أبعاداً كثيرة تتمحور في كون الأمانة طريق ووسيلة لتهيئة النظام الاجتماعي، وإيجاد نظام منسجم عن طريق الأمانة، لان الأمانة إذا روعيت في الأعمال والمعاملات القائمة بين بني البشر كان في هذا نظامٌ لشؤونهم، وفق انسيابية تكون فيها الثقة موجودة، والإخلاص متبادل بين كل الأطراف المتعاملة، أما لو كان هناك خلل في أداء الأمانة إذ لم تراعى، من قبل البعض أو الجميع، فأن في هذا خللا وانفصالا عن النظام وتقدمة لانحراف، أو انحراف يبدأ أولا على مستوى

العلاقات، والتصالح بين هذه العلاقات، وبالتالي فهو فساد عملي وظيفي، له أضراره الاقتصادية، والسياسية، فضلا عن أضرار الاجتماعية.

١٧) ثم يختم الإمام فقرات هذا النص بحديثة عن الإمامة، حيث يقول (والطاعة تعظيما للإمامة) إن إمامة الناس من قبل شخص معروف بصفاته الحميدة وبخصائصه الروحية، والمعرفية والدينية تؤهله لان يتولى مهمة الإمامة، ولذا فإن الإمامة هي وظيفة، يكون القيم فيها والمنصب بها، مأمورا من الله وموجها من الله، ولابد من التعاطي مع هذا الأمر على اعتباره حقيقة لابد منها، وواقعاً لايجوزالتغاضي عنه، وحاجة اجتماعية ضرورية لابد من انخراطها في المجتمع.

ولأن البشر هم غير قادرين على تسيير أنفسهم وغير قادرين على تمييز أنفسهم. فكيف بهم الوقوف إزاء العالم والطبيعة والوجود، وما فيه من مظاهر ومخاوف واختلاجات وأزمات وكوارث طبيعية وكوارث اصطناعية وحروب وتعقيدات اجتماعية أخرى.

كيف بهذا الإنسان القاصر عن فهم هذه الأمور، كيف يسعى إلى حلها، والتواصل معها، والتماشي مع الوجود، بلا واسطة وبلا معين روحي، وبلا قائد نفسي يقتاده إلى جادة الطريق، ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم. ومن هنا كانت الإمامة ولا زالت، وظيفة ربانية موضوعة في طريق البشر، وفي خدمة بني البشر، من أجل إنقاذ البشر، ومن أجل الخلاص لهم، على يد الإمام، وعلى يد من هو أقرب منه إلى الله، ومن هنا كانت طاعة الإمام واجبة، وهي باب عقائدي واعتمادي مهم جداً، يوازي النبوة، ويرتقي معها في الأداء والرسالية. ولما للإمامة من آثار وأهداف في إصلاح المجتمع والنهوض به سياسياً واقتصادياً وفكرياً وثقافياً وعلمياً ومعرفياً.

ويتمثل هذا المعنى في نص له عليه السلام: ((أيها الناس إن لي عليكم حقا، ولكم على حق فأما حقكم علي فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم

كيلا تجهلوا، وتأديكم كيما تعلموا وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم والطاعة حين أمركم)) [1].

(١) نهج البلاغة ، ج١ ، ص٧٧ ، خطبة ٣٤.

المبحث الأول
نظرية الإصلاح العقائدي

- فلسفة الاعتقاد والضرورة الاجتماعية
- ثوابت الاعتقاد والنظام الاجتماعي
- مستويات الاعتقاد واتجاهات السلوك الاجتماعي
- منهج الإصلاح العقائدي

فلسفة الاعتقاد والضرورة الاجتماعية:

يقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام):

((إن الإيمان يبدو لمظة في القلب كلما أزداد الإيمان ازدادت اللمظة))

لننطلق من هذا النص للإمام الذي كان موجزاً في كلماته، مستوعباً لحقيقة الاعتقاد وأسسه ومبادئه وفلسفته فالإيمان هو الجذوة الروحية، والبذرة الصغيرة التي تعتاشنا في فترة من الفترات قد نتطور معها ونرتفع ونتواصل بها، وقد ننزلق ونفقد هذه البذرة الصغيرة إذا لم يتهيأ لهذه البذرة سبل الإنبات الصحيح، والعناية الفائقة، وقد تتوفر هذه البذرة في كل شخص وفي كل ذات منذ الفطرة والتولد، وقد تكتسب من المحيط الخارجي عن هذه الذات.

ما دامت في الذات الإنسانية تلك الجذوة الروحية وتلك النقطة الايجابية المضيئة المثمرة، فلابد من التواصل لها، وتعميقها وتجذيرها، ومحاولة الإنعاش والإنماء لها بالغذاء اللازم فإيماننا بالأمور إذن فهو شيء أما فطري ذاتي فينا، وإما مكتسب، من معطيات العالم الخارجي عن الذات، وفي كلا الحالتين فإن ذلك النوع الإيماني الموجود فينا وذلك الضوء البدائي المنير في أرواحنا لابد من سبل وطرائق للتقدم به، والتواصل معه وأحياؤه بالاكتساب، ويكون هذا الإحياء عن طريق التواصل مع المعطيات الصحيحة. مع الأسس والمبادئ التي ترتفع به، مع النماذج البشرية المؤهلة للارتفاع به.

ومن هنا كان الإيمان نقطة انطلاق نحو الصحيح والصواب، وهو الغاية التي نصل اليها أيضا، وبمعنى أدق، أن الإيمان سمة لابد من التحلي بها وهو وسيلة نصل بها لما هو أرقى وأجمل، وأفضل. بوصف الإيمان ذلك الدافع وتلك الطاقة وتلك القوة نسمو بها لاستحصال أفضل الدرجات، وأرقى المكاسب الدنيوية والأخروية، ويجب أن لا نتناسى في هذا المقام تلك العلاقة الوثيقة بين الإيمان كمنطلق وبين نتائجه الايجابية في المجتمع وبنائه إذا ما ترجم إلى عمل واجتهاد

وتقديم وعطاء وفي ذات الوقت يكون الإيمان غاية نفسية غاية روحية، غاية قد لا يستذوقها الكثير ويحرم منها الكثير، كنعمة إلهية وكبركة ربانية، وكثمرة عطاء، وجذوة اعتقاد، تحيا بها النفس وتسمو فيها الروح إلى أعلى مراتبها، وأرقى درجاتها.

وهذا ما نلمح دلالاته واضحة في قوله (عليه السلام):

((فبالإيمان يستدل على الصالحات، وبالصالحات يستدل على الإيمان))، ومن هنا يكون الإيمان تقدمة للعمل الصالح، وهو غاية سامية في حد ذاته. تبتغى من خلال العمل الصالح.

فالإيمان يكون أحياناً هو البداية وهو المنطلق للأعمال الصالحة الخيرة، حين يكون مجرد جذوة نفسية يعمل الإنسان على تقويتها، وتطويرها، وتهيئتها، للتطور والتقدم حيث تتمحور تلك الجذوة وتتقادم في المسير والتطور حتى تتجسد بشكل عملي وكسلوك متطور، وتتمظهر كنتيجة فعلية عملية تتشكل من خلال الأداء الصحيح للأعمال الحياتية الكثيرة بعضها مفروض كالواجبات العبادية، وبعضها مستحب كأعمال الخير الفاعلة، والمنتجة اجتماعياً ولربما كان الإيمان، هو الغاية، وهو الذروة، التي يود بعضنا الوصول إليها، فيكون وسيلة للرقي إليها والتعايش معها، كحالة وكصفة، وكطبع ذاتي، من خلال العمل، من خلال السعي، من خلال الجهد للوصول إلى هذه اللذة الروحية والجذوة النفسية والكمال الذاتي، المسترسل في نفس الإنسان ودواخله.

ولذلك يكون الإيمان قيمة رفيعة ومستوى ذاتي رفيع يتجوهر في دواخل النفس، يسعى بعضنا إلى تثبيته، ويسعى بعضنا إلى تطويره، ويسعى بعضنا إلى إيجاده، كحالة مفقودة ضائعة في متاهات الوجود، والعالم المادي المليء بالهموم والمشاكل والاختلاجات العصبية والنوازع والرغبات الشخصية الاهوائية، والنزعات الشيطانية، والرغبات العاطفية الأخرى وكل هذه النوازع والهموم والمغريات، كفيلة بأن تحبط الحالة الإيمانية، وتسقط هذه اللذة الروحية وهذه

النشوة الوجدانية، هذه النعمة الإلهية. وأن تضعها في مصاف المادة، وفي حيز الماديات، ولم أجد أوضح من هذا النص للإمام (عليه السلام)، كدلالة على ما أقول:

((لقد علق بنياط هذا الإنسان بصفة هي أعجب ما فيه: وذلك القلب. وأن له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه اليأس قتله الأسف وإن عرض له الغضب أشتد به الغيظ...))[1].

ولذا يكون الإيمان حالة استشعارية حالة قلبية متأثرة بالمحيط، متأثرة بالواقع الخارجي، ومعطيات العالم المحيط، إما سلباً وإما إيجاباً.يقول الإمام (عليه السلام): ((إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن أحب الدنيا وتولاها أبغض الآخرة وعاداها، وهما بمنزلة المشرق والمغرب، وما شيء بينهما، كلما قرب من واحد بَعُدَ من الآخر، وهما بعد ضرتان))[2].

ولذلك فأن الشريعة الإسلامية، قد أباحت للذات الإنسانية البشرية، إحياء هذه الرغبات وإشباع الشهوات الجسدية عبر الطرائق المشروعة، وبالأحكام المتعارف عليها دينياً واجتماعيا،لاعن طريق الاساليب المحرمة دينيا، أو المنحرفة اجتماعياً، والمستهجنة في التقاليد والأعراف الإنسانية. وبهذا فقد أوجدت الشريعة الإسلامية حالة من التوازن، حالة من التكافؤ بين المبادئ الروحية وبين الرغبات الجسدية، ولأن الإسلام أكثر الأديان واقعية في أحكامه وتشريعاته وقوانينه،((فالإسلام ليس ديانة صوفية تحمل الإنسان على أن يتجرد من الواقع ويرفضه ويتخلص منه بل ديانة ذات صلة حميمة بالواقع الإنساني))[3].

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٢٥-٥٢٦.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٢٤.

(٣) رسالتنا، ص١٠٥-١٠٦.

ولعل أبلغ ما قيل في هذه الدلالة، وفي ذلك التكافؤ بين الرغبات الروحية، والشهوانية الجسدية.

هي في قوله (عليه السلام): ((إذا كثرت المقدرة قلت الشهوة))[1]. ومن جانب آخر فإن الإيمان، أو الروح الإيمانية لها أن تتعمق أكثر وتتغلغل بشكل أكبر، حين تتوفر لها المعطيات الخارجية الصالحة، فالروح الإيمانية، والجذوة الإعتقادية، بأن هذا الكون الكبير، وهذا الوجود العظيم، مرتبط بقدرة هائلة فريدة، قدرة غير محدودة، قدرة مطلقة، وهذا الارتباط الوجداني، الاستشعاري، التعاطفي، التفاعلي مع الله، ممكن أن تتطور هذه الحاجة الوجدانية، وهذه الحالة العاطفية إلى مستوى إيماني أكبر، ودرجة أرقى، وعقيدة أقوى وارسخ، حين يكون التواصل عقلياً تفكرياً فضلاً عن التواصل التعاطفي والوجداني.أي التواصل بالوسائل العقلية، بالجوانب التفكرية، نستدل به على أن الله موجود فعلاً، موجود لأنه خالق مطلق، ولأنه قدرة عليا، وطاقة هائلة، موجود لأن العقل موجود يفكر، ويتفاعل ويستدل على الله، لا كونه ضرورة عاطفية، ولا كونه استدلالاً شعورياً وحاجة وجدانية، ولا كمنطلق ذاتي فطري فقط، بل كمنطلق عقلي استدلالي تفكري، يصل إلى ضرورة حتمية، ضرورة لابد من كونها موجودة، مادام الخالق، مادام الكون، ما دام العلم، مادامت الإنسانية، إذن لابد من خالق واحد، خالق يحتوي كل الحقائق، كل الموجودات، لابد من قدرة هائلة، وطاقة لا محدودة، ولا موصوفة، ولا معلومة، طاقة أزلية، توليدية، وغير مولودة، لا مبدوءة ولا مسبوقة.

يقول الإمام (عليه السلام): ((ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته الذي ابتدع الخلق على غير مثال امتثله، ولا مقدار احتذى عليه من خالق معهود كان قبله. وأرانا من ملكوت قدرته، وعجائب ما نطقت به آثار

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٥٠.

حكمته، واعتراف الحاجة من الخلق إلى أن يقيمها بمساك قدرته ما دلنا باضطرار قيام الحجة له على معرفته، وظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته وأعلام حكمته، فصار كل ما خلق حجة له ودليلاً عليه، وإن كان خلقاً صامتاً فحجته بالتدبير ناطقة، ودلالته على المبدع قائمة)) [1].

ومن هنا يكون الاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته، وبأزليته، وبتفرده في الخلق، ضرورة عقلية لابد منها، لابد من التسليم المطلق بصحتها، وإذا عرفت الإنسان كيف يتفاعل مع العقيدة، واستغل هذه الجذوة، وهذه البذرة في الارتقاء، تفاعل معها عاطفياً، تفاعل معها فكرياً، كانت له ضرورة عاطفية، ضرورة عقلية، كانت عقيدته الارتباطية الإيمانية بالله، أقوى، وأثبت، وأعمق، كانت حالة توازنية، حالة رسوخية، غير قابلة للاضمحلال، غير قابلة للضمور، والتغيير، كانت قاعدة للعمل والتوجيه، وكانت أساساً لبناء وارتقاء وشموخ، ومرتكز للعمل الصالح، فهي إذن ضرورة اجتماعية، تنبعث كسلوك، كأخلاق، وكأداء، وكأعمال اجتماعية صالحة لخدمة المجتمع.

((الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان)) [2].

ومن هنا يبتدئ الاعتقاد كضرورة عاطفية فطرية ذاتية ثم يتدرج كضرورة تفكرية عقلية، ثم يتطور كأنظمة اجتماعية، وحاجات سلوكية، ونزعات أخلاقية، تكون المثال والنموذج السلوكي، لرسوخ وثبات العقيدة، نموذج بشري سام متكامل روحياً وفكرياً وسلوكياً.

ولذا فإن الاعتقاد هو ذلك العصب الذي يحيي القلوب وينير العقول، ويمنح الحياة إنسانيتها، ونظامها الحيوي المتوازن وانسيابية العمل المشروع، ويوجد ذلك التوازن بين العواطف والأفكار ثم السلوك والأخلاق التي تطفو فوق سطح

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص١٤١-١٤٢.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٤٧.

الواقع ((من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ)) [1].

ثوابت الاعتقاد والنظام الاجتماعي:

نظر الإمام (عليه السلام) إلى الاعتقاد، والى ثوابته، والى أسسه، نظرة واضحة، ذات منطلق واضح، لالبس فيها ولا غموض، ولا خيالات ولا أوهام، ولا غيبيان محضة كما يتصور البعض، بل جاءت أفكار الإمام في العقيدة والأسس العقائدية، والثوابت الإيمانية، كعلم وكحاجة اجتماعية ضرورية، مستنيرا بقوة الاستدلال، وحكمة الاستباط والاستنتاج، فجاءت أفكار الإمام في التوحيد أفكاراً واضحة، ومنتظمة ومتسلسلة، تسلسلا منطقيا رياضيا، ومنهجيا،صرح الإمام بهذه الأفكار على أنها (علم) و(حاجة اجتماعية وتطبيقية في الحياة)، ولنا أن نستخلص الآراء والأفكار في ضوء الخطاب، والحكمة، والكتاب في رحاب نهج البلاغة، أو عن مؤلفاته الأخرى، (عليه السلام) ولا نكاد نقع على أراء اضبط، وأوضح واصدق، وأعمق في علم التوحيد، من أراء ونصوص الإمام (عليه السلام) فجاء الكتاب في نهج البلاغة حافلا بهذا النوع من الآراء الدالة على وحدانية الرب، ودلائل قدرته، وعجيب صنعته وأهمية التوحيد في الحياة،وضرورة الانفتاح على التوحيد من كونه نقطة انطلاق للنظم والتشريعات وان التوحيد هو الدين بعينه، وهو التوجيه، وهو الطاقة المسيرة للحياة، وهو معنى الحقيقة، وكل الحقيقة، ولا حقيقة مع أنكار التوحيد، والتغاضي عنه ولسنا هنا، بصددتقديم عرض آراء الأمام في التوحيد، وبسطها، وشرحها، وليس هو موضوع البحث الذي نرمي إليه، وما نريد الوصول إليه هو

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٢١.

في إلقاء الضوء على التوحيد كونه ضرورة اجتماعية، لابد منها، لابد من الاعتراف بأهميتها، لتنظيم الحياة، وشؤون الحياة، ويبرز القانون وتسود العدالة، بهدي التوحيد، ولان التوحيد هو الفكر الذي ((ربط الإنسان بكامل وجوده وجميع جوانب حياته بإله واحد أحد هذه الفكرة هي القاسم المشترك بين كل رسالات السماء وهي الأصل الذي ترتكز عليه جميع التعليمات الإلهية، خلال الفترة التي عاشها الإنسان فمنذ أن خلقه الله سبحانه على وجه الأرض إلى خاتمة الرسالات، رسالة سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). والتوحيد بدوره الأساس الذي ارتكزت عليه الأصول الإسلامية، ومبادئ الإسلام الخالدة)) [1].ولنا كان التوحيد، فكرة، ومبدءاً، وثقة، واطمئنانا، وعبودية، والتزاما، وطاعة، وأخلاقا، وسلوكاً.يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذه المعاني: ((أيها الناس، إنه من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلا هُدي للتي هي أقوم، فان جار الله آمن، وعدوه خائف وانه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظم، فان رفعة الذين يعلمون ما عظمته أن يتواضعوا له، وسلامة الذين يعلمون ما قدرته أن يستسلموا له" [2] وان "التوحيد هو الإسلام، والإسلام هو التوحيد لان فروع الإسلام وتشريعاته وكامل ما يشتمل عليه من أحكام وأخلاق ومفاهيم يعود إلى التوحيد، وبينما تكون كل واحدة منها مظهرا تتجلى فيه حقيقة التوحيد)) [3].

ومن هنا، فان التوحيد لايعني العبودية، وأداء الفرائض والتزام الواجبات الدينية المحضة فقط، بل هو انفتاح على طاعة الله، في كل الميادين وفي كل المجالات، التوحيد المتمثل في العادات، والسلوك، والأخلاقيات والالتزامات،

---

(١) الخالق العظيم أدلة وبراهين، حسن الظالمي، ص١٢٢.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٣) الميزان، ج٦، ص٦٤.

بالشرائع والنظم والقوانين الإلهية، هذا فضلا عن الاعتقاد بعدالة الله، في كل الأمور، التكوينية منها والتشريعية.

يقول الإمام (عليه السلام):

((أمره قضاء وحكمة، ورضاه أيمان ورحمة، يقضي بعلم، ويعفو بحلم))[1].

لان ((العدل الإلهي يعتبر من مصاديق الحكمة الإلهية، أو هو الحكمة نفسها، وان إثبات صفة الحكمة هي إثبات للعدل نفسه، فالله سبحانه يمتلك أسمى مراتب القدرة والاختيار وانه قادر على أن يفعل أي عمل أو لا يفعله، دون أن يخضع لأي تأثير من أي جهة كانت، لكنه جل شأنه لا يفعل كل ما يقدر عليه، بل يفعل ما يريد وقد ذكرنا سابقا أن أرادته سبحانه وتعالى ليست جزافية ولا عبثة، بل يفعل ما يناسب حكمته وأرادته، أذن فمقتضى صفاته الكمالية هو أن يخلق العالم بصورة يتوفر فيها غلبة الخير والنفع على الشر والنقص)) [2].

ومن هنا فأن ((اختلاف المخلوقات في وجودها وصفاتها وقدرتها هو أمر لازم لنظام الخلق لأن التساوي بينها، هو أمر ساذج كونه يعني ترك الخلق ببساطة وهذا خلاف العدل، فعلى سبيل المثال لو خلق الله سبحانه وتعالى البشر من الرجال فقط أو من النساء فقط لما تحقق التوالد والتناسل أبدا ولا تقرض البشر)) [3].

هذا من الجناب التكويني، أما من الجانب التشريعي، فأن عدالة الله، لها أن تظهر، وتستوضح في كل مفاصل الحياة، لو كان هناك التزام حقيقي وواع بأوامر الله، وتطبيق هذه الأوامر، والتزام بها في تشريعاته وقوانينه، التي أوجدها في سبيل تنظيم حياة البشر، وتيسيرها وفق نقاط واضحة، وفق منهج محدد، وفق مسار تكاملي، تسمو به نحو الكمال والرقي الروحي، والأخلاقي، والسلوكي،

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٤٨.

(٢) حواريات إلهية، ص٣٨.

(٣) حواريات إلهية، ص٣٩.

وما جاءت به الرسالات السماوية والسنن الإلهية، والكتب والأطروحات التي انزلها الله على خليقته، إلا في سبيل أيجاد نظام، وإيجاد نوع من التناسق بين المفاصل الحياتية، تناسق يتماشى وقانون الله، وعدالة الله، وحقوق الناس، وحقوق الطوائف، وجاء نظام الإسلام كأكمل، وكأروع، وكأ شمل أطروحة إلهية، وكأفضل منهاج حياتي، ونظري قرآن الماضي، وقرآن الحاضر، وقرآن المستقبل.

((إن الله تعالى انزل كتابا هاديا، بيّن فيه الخير والشر، فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشر تقصدوا،الفرائضَ الفرائضَ،ادوها الى الله تؤدكم الى الجنة، ان الله حرم حراما غير مجهول،واحل حلالا غيرمدخول،وفضل حرمة المسلم على الحُرم كلها،وشدّ بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها،فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق، ولايحل أذى المسلم إلاّبما يجب،بادروا أمَر العامة،وخاصة احدكم وهو الموت، فان الناس امامكم، وان الساعة تحدوكم من خلفكم، تخففوا تلحقوا، فانما ينتظر باولكم اخركم،اتقوا الله في عباده، وبلاده،فانكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم،اطيعوا الله ولا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به،واذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه)) [1].

وهذه هي حقيقة التوحيد الذي يتحول عن واقعه النظري والإيماني والاعتقادي المطلق بالله وعدالته إلى عمل وإلى أخلاص وإلى تفانٍ، وإلى نظام، وإلى حياة سعيدة مثالية، قائمة على النظام، والقانون، واحترام الإنسان لا عن خوف من العقاب الدنيوي بل خوفاً من الله وإطاعة لله.

والتوحيد الصحيح، هو ما يجعل صاحبه بمستوى المسؤولية، بمستوى التكليف، وأن لا يستصعب ما كلف به، وإن كان عسيراً لأن الله لايكلف نفسا إلا

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٦٧-٢٦٨.

وسعها، فالتوحيد أذن هو انطلاقة للحق، وهو طاقة العمل، وهو توجه صحيح لسلوك أخلاقي منسجم مع الآخرين، وفي سبيل خلق مجتمع متماسك موحد، متفاعل على أساس العقيدة الواحدة، المشتركة المنتظمة في كيان المجتمع أجمع.

وإن العقيدة الصائبة ذات الهوية الواضحة، والرؤية النظرية المتينة، وهي من تتماسك مع حب الله وطاعته وتوحيده والإيمان بعدالته، مع حب النبوة، والإيمان بالرسول، والوثوق به، وبوصاياه، والتسليم لأوامره، وبنبوته تسليماً مطلقاً، والتماشي والالتزام مع رسالته السماوية، على إنها الصورة النظريةالواجب إتباعها، والانصياع لها في كل الظروف والمواقف والأحداث، لأن ما جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الدين الحق، والرسالة الكاملة، الشاملة، وإن الانحراف عن هذه الرسالة بتعاليمها وقوانينها وتشريعاتها وأحكامها، هو الهلاك بعينه، وهذا ما تلمح دلالته واضحة في قوله (عليه السلام):

((إن الله... غيركم)) [1].ومن هنا يكون للنبوة أثرها في تمهيد النظام الحياتي، لأن النبوة هي الواسطة بين الله وخلقه، فهم حلقة الوصل وميدان التطبيق لعدالة الله في الأرض والأنبياء الأنظمة والقانون، وكان في إرسالهم إلى الخلق حجة لله على خلقه لئلا تكون العقوبة أو المثوبة بلا حجة ظاهرة أو دلالة دامغة. ((بعث الله رسله بما خصهم به من وحيه)) [2].

وطالما كان الإيمان بالنبوة ضرورة لازمة، وحجة قائمة على الخلق فمن أنتهجها وفق ومن تركها شقي، ومن تمام حكمة الله وعدالته في خلقه أن جعل لهذه النبوة (التي هي مرحلة من مراحل الحياة) امتدادا وخلافةً وارتباطاً بمبدأ (الإمامة) التي هي سبيل إلى الله، بعد النبوة وبعد انقطاع النبوة عن حياة الأمة.

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٦٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٢٥.

والإمامة هي النظام للأمة، والأمان من الفرقة، والاعتصام بالله، وهي ركن عقائدي مهم، وواجب التكليف، على كل فرد عاقل.

وها هو الإمام (عليه السلام) يقف مخاطباً أمة الإسلام بعد أن تنكرت لإمامته، وانحرفت عنها، متجاهلة وصايا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأوامر الله بوجوب التزام الإمامة والانقياد لها بعد نبوة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم):

((فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب)) [1].

ثم يقول: ((إنما الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم...)) [2].

وتكاد تكون رؤية الإمام علي للإمامة أوضح الرؤى وأعمقها وأصدقها، ذلك حين يصفها بأنها نظام الأمة، وهي مركز التوجيه، والتقويم.

ذلك حين يقول في إحدى خطبه (عليه السلام):

((ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه، فإن أنقطع النظام تفرق وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً)) [3].

ومن هنا كان لابد من التسليم بـ ((ضرورة وجود إمام لكل زمان بحكم العقل)) [4].

ولذا فإن الأئمة ((امرهم أمر الله تعالى، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته، ووليهم وليه، وعدوهم عدوه، ولا يجوز الرد عليهم، والراد عليهم كالراد على الرسول والراد على الرسول كالراد على الله تعالى)) [5].

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٣٠.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٣٧.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٤) الإمامة والشيعة، ص١٢.

(٥) عقائد الإمامية، ص٥٠.

ولذلك كان الأئمة هم المرجع الذي ترجع له الأمة في كل أمورها، ومشاكلها، ولأن ((الأحكام الشرعية الإلهية لا تستقى إلا من نمير مائهم ولا يصح أخذها إلا منهم، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع إلى غيرهم)) [1].

وأما الأصل الخامس، من أصول العقيدة، وثوابتها الإيمانية التي لابد من التسليم بها، والاعتقاد بحصولها عاجلاً أو آجلاً، فهو (المعاد).

والمعاد هو الإيمان والتصديق بوجود حياة أخرى أبدية خالدة، تعقب الحياة الدنيا، ولذا فإن هذا الإيمان بالمعاد ((ينقل الإنسانية من وجود تافه يعيش لحظات في هذه الدنيا ثم يسلم نفسه إلى الفناء، ينقل هذه القيمة إلى وجود مكرم متكامل يعمر الأرض خلال حياته الدنيا ويهيئ نفسه لحياة أخرى في ظل رضوان الله تعالى)) [2].

يقول الإمام في قراءة له (للمعاد) والاستغراق في وصفه وتحديده:

((يذهب اليوم... بالنذر)) [3].

فهذه هي رؤية المعاد للإمام، وهذه رؤية لحقيقة الاستغراق في الحياة الدنيا، ورغباتها، وشهواتها، والانسياق خلف ملذاتها، وها هنا لحظة الرهبة، لحظة الحساب، لحظة مواجهة الحقائق المرة، مواجهة الأعمال والمحاسبة عليها، ثم يقول الإمام (عليه السلام): ((عباد الله، إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب، عباد الله: احذروا يوماً تفحص فيه الأعمال ويكثر فيه الزلزال، وتشيب فيه الأطفال)) [4]. وإذن فالمعاد، هو الوعد، وهو الحق الذي لا محيص عنه، ولا باطل له، وهو الحساب والعقاب الذي لابد منه في سبيل تحقيق العدالة، وفي سبيل تحقيق الجزاء الحق، الجزاء الوافي لكل الناس، على اختلاف

---

(١) عقائد الأمامية، ص٧٠.

(٢) الدولة الإسلامية دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية،ص١٤٣.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٤٦.

(٤) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٤٦.

أعمالهم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وها هنا تورد الأعمال وتفحص النوايا والآثام، وتفضح السيئات ولذلك تكون الآخرة هي الميزان، وهي ميدان نظر البصير الذي ينفذها ببصره، ويمتد برؤاه إليها، فلا يغفل عنها، بينما الأعمى هو من ينتهي ببصره عند الدنيا، فلا يكاد يرى ما وراءها.((وإنما الدنيا منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره ويعلم أن الدار من ورائها، فالبصير منها شاخص، والأعمى أليها شاخص، والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود)) [1].

ومن هنا كان الإيمان بالآخرة، والتزود من الدنيا لها، والاستفادة من الحياة الحاضرة لبنائها، وترميمها، وهذا هو التكامل في الحياة، وصولاً إلى الكمال والرقي والسعادة الأخروية.

وبذلك يكون هو إحياء للحياة الأخرى:- ((وأعلموا أنه ليس من شيء إلا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله إلا الحياة،فإنه لا يجد له في الموت راحة، وإنما ذلك بمنزلة... والسلام)) [2].

وإن المعاد لهو الجد، وهو الحق، وهو دار القرار، ومستقر الإنسان.

((فإنه والله الجد لا اللعب والحق لا الكذب... للزيال)) [3].

مستويات الاعتقاد واتجاهات السلوك الاجتماعي:

سئل الإمام (عليه السلام) عن الإيمان، فقال:

((الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهاد)) [4].

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢١٧.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص٢١٧.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص٢١٥-٢١٦.

(٤) نهج البلاغة، ج٤، ص٥١١.

لنقف الآن عند هذا الحديث، الإيمان وكما أوضحنا سابقاً هو حالة روحية (فكرية وعاطفية) تجاه المعتقد الأساس، وهذه الحاجة الروحية، واللذة الإيمانية، والجذوة الاعتقادية، تتجلى ذاتياً وفي عدة أنماط، أو مستويات، أو درجات كما حددها الإمام في النص أعلاه.

وهذه المستويات أو الأنماط، هي أشكال روحية لهذه الطاقة الذاتية والجذوة المضيئة في ذات الإنسان. وأن في توفر أي شكل من هذه الأشكال الإيمانية، أو الأنماط الاعتقادية، أو المستويات الروحية، يمثل حالة من الارتقاء، حالة من التسامي، حالة من الكمال النفسي والسعادة الروحية، حالة من التواصل مع المعتقدات، مع الثوابت، مع الأسس، مع المبادئ السامية، والقيم الرفيعة. تستلهمها الذات الإنسانية والعقل الإنساني في محاولة للارتقاء، والتطور الروحي والاجتماعي (السلوكي والأخلاقي).

يقول الإمام في الصبر (المستوى الأول للاعتقاد):

((والصبر فيها على أربع شعب: على الشوق، والشفق، والزهد، والترقب، فمن أشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات))[1].

هنا حالة في التتابع بين النظرية والعمل، وبين الطاقة والتوجيه وبين الفكرة والجذوة الروحية، وبين الاتجاهات السلوكية الاجتماعية، وبين الفكرة الإيمانية ونتائجها الاجتماعية والأخلاقية.

فمن أشتاق إلى الجنان الأخرى اشتعلت فيه جذوة الرغبة في الوصول إلى هذه الغاية السامية والى هذا الأجر العظيم، فمن أشتاق إلى هذا الأمل الكبير، عمل له، وسلا بدينه عن الشهوات المحرمة، والرغبات المنحرفة، التي تنحرف به عن الطريق، وعن الدرب المستقيم. إذن هنا تقدمة إيمانية ذاتية تتطور إلى عمل

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥١١.

إيماني ناضج كان به صلاح الفرد وصلاح المجتمع الذي يتفاعل مع هذا الفرد، ويتأثر به، ويتجاوب معه، ويرى الإمام أن في أشفاق العبد من النار، وتفكره في أمر العقاب الأخروي، الذي استلهمته ذاته المؤمنة الموفقة، بما حملته من رؤية حقيقية صائبة للأمور، وما سيجني الإنسان جراء انسياقه وراء الملذات الزائفة الزائلة، بعد حين، وتبقى تبعاتها ما شاء الله، كان له أن يجتنبها وأن لا يقع في مزالقها، وأن لا يكتوي بنيرانها، وعذابها كان لنفسه واعظاً، مشفقاً، زاجراً لنفسه من أهوال يوم تشيب فيه الرضع.

ثم يصف الإمام حالة الزهد التي تكون مقدمة الاستهانة بالقضاء والقدر، والتسليم بهما مطلقاً، والانصياع لأمر الله المحتوم. كان هذا رضاً لقضاء الله، كانت هذه حالة راقية من الوعي الإيماني الفكري الذي يصل به إلى نوع من الثقة المطلقة بإرادة الله وبأوامر الله وبقضاء الله، لا السخط والأنتقام والاستفادة من هذه الارادة، والإيمان بحكمة الله، وبعدالته في قضائه وقدره وأحكامه، وتشريعاته وتكويناته، وإن خير الإيمان ما تجمل بالزهد. فالزهد زينة الإيمان، وزينة المؤمن.

ثم تتمثل هذه الجذوة الاعتقادية، وهذا الترابط الروحي الوجداني في رؤية المعتقدات، والإيمان بها، عقلياً وروحياً والأعتبار بحتمية المعاد، الذي لا مناص من قبوله، والاستعداد له بما يكفي من المؤونة والمتاع. وأن رسوخ هذه الفكرة وتجليها في ذات المؤمن كطرح روحي وعقلي يتجلى في سلوكياته، وأخلاقياته، الذي يوقن أن الحياة زائلة لا محالة، وإن الأخرى هي الدار، فيسارع إلى الخيرات وينأى عن المنكرات.

ولنقف الآن عند الدعامة الثانية من المعتقدات والشكل الروحي والمستوى الاعتقادي الثاني ألا وهو (اليقين):

((واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين، فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين)) [1].

إذن هنا حالة من التتابع المنطقي العقلي بين الحالة الوجدانية الروحية الإيمانية وبين نتائجها المطلوبة في إنهاض المجتمع والارتفاع به عن المستويات الرذيلة، فاليقين هو حالة من التبصر، حالة من الوعي الروحي، الذي يتطور إلى نوع من الحكمة والنفاذ في دقائقها التي تتطور بدورها إلى الاعتبار والموعظة بأحوال الأولين والاتعاض بها.

أما المستوى الاعتقادي الثالث فهو (العدل)، نستشهد بقوله (عليه السلام): ((والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم، فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميدا)) [2]

فالإمام جعل الفهم مقدمة لعلم غور العلم أي بواطن العلوم وأسرارها، وهي حقيقة لشرائع الحكم، ومن مهد عن الشرائع وهي الظاهرة المستقيمة من المذاهب، حلم، ومن حلم عاش في الناس حميداً.

إذن رؤية إيمانية اعتقادية تكون مقدمة لصلاح اجتماعي صلاح في السلوكيات الفردية، وفي الأخلاقيات، وفي الاتجاهات الاجتماعية التي تصدر عن هدي البصيرة والفهم والوعي بالأمور والتفكر منها.

والمستوى الاعتقادي الرابع (الجهاد)، يقول الإمام (عليه السلام) في الجهاد:

((والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين،

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥١١.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٥١٢.

ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله، غضب الله له وأرضاه يوم القيامة)).

الجهاد إذن حالة إيمانية وقوة اعتقادية، ودعامة مهمة من دعائم العقيدة، التي تشكل قوة للإسلام وعزاً وفخراً وتمجيداً له، ولما للجهاد من آثار اجتماعية إيجابية تتجسد هذه الآثار في عدة اتجاهات:

أ- الأمر بالمعروف

ب- النهي عن المنكر

جـ - الصدق في المواطن

د- شنآن الفاسقين

وكما عبر عنها الإمام في النص أعلاه:

- فالأمر بالمعروف نوع من الإصلاح، تكون به قوة للإسلام، وللمؤمنين وشد لظهورهم، ولقضية الحق والخير.

- والنهي عن المنكر هو نوع آخر من الإصلاح، تكون به الغلبة للحق، والأنتصار لله، وإرغام لأنوف المنافقين والمفسدين والفاسقين، وهو درع للأعمال المنكرة، القبيحة.

- وأما الصدق في المواطن، فهو حالة الجهاد والذود في سبيل إعلاء كلمة الحق عن طريق الجهاد والقتال والمجابهة المسلحة ولمعارضة، وما لهذا الاعتراض على الباطل ومحاربته ومجابهته وإحقاق الحق، من آثار إصلاحية اجتماعية يتوضح بها الكثير من الغموض واللبس، وتتحدد من خلالها مسارات الخير والشر والحق والباطل، فتكون في هذه المجابهة والمعارضة، خدمة للمجتمع وتبصرة للناس من الاشتباه بين الخطين.

- ثم إن في مناوأة الفاسقين، وتحقيرهم، ومجابهتهم بالأيدي والألسن، كفيل بأن يضع من شأنهم، وتتوضح عند ذاك نواياهم الفاسقة في إضلال الناس والمجتمع، وتمويه المجتمع وصرفه عن الحقيقة إلى الباطل. فيكون في هذا الاعتراض عليهم، أهداف وغايات اجتماعية، إصلاحية نبيلة يسعى بها المؤمن المجاهد إلى إحقاق الحقيقة وإنكار الباطل.

منهج الإصلاح العقائدي:

وفي ضوء ما تقدم من توضيحات وتفصيلات في استقصاء مظاهر الانحراف العقائدي للمجتمع الإسلامي، وأسباب انحرافه، ومظاهر انحرافه، وآثار هذا الانحراف الاجتماعية وبعد أن بويع الإمام (عليه السلام) للخلافة، وقيادة الأمة، دينياً واجتماعياً، أخذ الإمام على عاتقه توجيه الأمة وتنقيتها تنقية روحية، واصلاحها عقائدياً ومبدئياً، وتوعية الأمة على ضرورة استثمار العقيدة، كوازع للعمل والانتاج، منطلقاً بأن المقدمة العقائدية الصحيحة، لابد أن تأتي بنتائج صحيحة، ولا جدوى من الحصول على المنافع الدنيوية، والمكاسب المادية، واستحصال المغريات والرغبات والشهوات، واستكمالها واستنزافها، بلا تقديم صحيح، وبلا سبيل مستقيم، وعمل ومنطلق مبدأي صحيح، وعقيدة يتجسد بها النظام، والعمل والأداء القويم.

ولنا أن نوجز منهج الإمام الإصلاحي العقائدي في مجموعة من النقاط الرئيسية، التي تبناها الإمام، واعتبرها أهدافاً وغايات في مجال الإصلاح الروحي، ولنا أن نستخلص هذا المنهج الإصلاحي في ضوء الخطاب والنص والحكمة للإمام:

١) تحديد هوية عقائدية للفرد المسلم، وصولاً إلى المجتمع ككل، تجتمع هذه الهوية العقائدية على الإيمان الطلق في الثوابت والأسس العقائدية (المتمثلة في

الإيمان بالله، وبالنبوة، وبالإمامة، بالعدل، وبالمعاد). واعتبار هذه الثوابت أصولاً ومسلمات لابد من التسليم بها، والتواصل معها، روحياً وفكرياً، الى ما شاء الله.

٢) بناء شخصية عقائدية للفرد المسلم، وصولاً إلى المجتمع ككل، تتلخص هذه الشخصية العقائدية في كونها ذلك (البعد) الناتج أو الماثل عبر اندماج جانبين هما:

أ- إحياء الجانب الروحي والعاطفي في الشخصية العقائدية (أي إحياء طريقة أسلوب التفاعل مع العقيدة روحياً، والتواصل معها عاطفياً ووجدانياً) وصولاً إلى الكمال الروحي المنشود.

ب-إحياء الجانب الفكري والعقلي من الشخصية العقائدية (أي إحياء أسلوب التفاعل مع العقيدة عقلياً، وتفكرياً، والتواصل معها على أنها ضرورة عقلية، نستدل عليها ونستنتجها، لذا لابد من التسليم بها، والألتزام بضرورتها في العقل والفكر والضمير.

ج- إحياء الجوانب الظاهرية في الشخصية العقائدية، الجوانب السلوكية والأخلاقية في الأقوال المسموعة والأفعال المنظورة.

٣) ضرورة توجيه العقيدة كمنطلق نظري للعمل وعلى مستويين العمل للحياة الدنيا، والعمل للحياة الأخرى، ومحاولة إيجاد توازن وتكافؤ بين المستويين (الدنيوي والأخروي) أي إيجاد حالة تعادل بين الحب الدنيوي، وتحقيق الرغبات والشهوات والنزعات الدنيوية، وبين الحب الأخروي، وتحقيق العمل الصالح النافع، الذي يزود الإنسان بمتاعه الأخروي.

أي يتوازن ويتعادل السعي البشري في إحياء حياة حرة كريمة، وبين البناء للحياة الأخرى الخالدة.

يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذه الدلالة:

((الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها)) [1].

ويرى عليه السلام أن أخسر الناس من أخلق بدنه وأتعبه في سبيل الدنيا، ونسي الأخرى، فخرج من الدنيا بحسرته:

((إن أخسر الناس صفقة، وأخيبهم سعياً رجل أخلق بدنه في طلب ماله، ولم تساعده المقادير على إرادته، فخرج من الدنيا بحسرته، وقدم على الآخرة بتبعته)) [2].

وقال (عليه السلام): ((الركون إلى الدنيا...)) [3].

٤) توجيه العقيدة كمنطلق وكمنهج يحقق التوازن بين إشباع الرغبات الجسمية، وتفعيل الرغبات الروحية، أي لا تكون العقيدة إنزواء، وإنطواء على أحد الجانبين، وأن يعمد الفرد إلى إيجاد توازن وتكافؤ بين الجانبين وبالتالي يتحقق الجانب المثالي الشخصي المتوازن الماثل في السلوك والأخلاق، والأفعال الصالحة اجتماعياً يقول الإمام في معرض هذه الدلالات:

((إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها فإن القلب إذا أكره عمى)) [4].

٥) توجيه العقيدة كمنطلق وكواقع عملي للتصالح مع الله أولاً، ومع الذات ثانياً، ومع المجتمع ثالثاً، ذلك حين تصبح العقيدة، مرآة لرؤية الواقع، لرؤية الحق، والحقائق تستوضح من خلالها، غوامض الأمور، وتتجلى دواخل الأشياء وجواهرها.

يقول الإمام (عليه السلام):

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٨٩-٥٩٠.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٨٩.

(٣) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٨٣.

(٤) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٤٢.

((من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته، أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ)) [1].

ويقول الإمام واصفاً أولياء الله الذين تمكنوا من أرواحهم، وبصيرتهم، فرأوا ما لا تراه الناس، وآمنوا بالله، وبثوابه، حين أنشغل الناس بدنياهم، فوثقوا بعقيدتهم، وبآجل الحياة، لا بعاجلها، وتركوا منها ما عملوا أنه سيتركهم:-

((إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا أشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالاً، ودركهم لها موتاً، أعداء من سالم الناس، وسلم ما عادى الناس، بهم علم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً فوق ما يخافون)) [2].

٦) توجيه العقيدة كنظام وكمسؤولية تقع على عاتق الفرد وصولاً إلى المجتمع على العموم، وتلزمه ضرورة التعامل مع العقيدة، على أنها احترام للنفس، أولاً، واحترام لله، والتزام بقوانين الله، وتشريعاته وضرورة التواصل مع القانون والالتزام به، لا بدافع الخوف من العقوبات الآنية الحاضرة دنيوياً، بل خوفاً وخشيةً من الله، وفي سبيل الله، وإيمانا وثقة بما في يد الله من الثواب والجزاء الأخروي، وعند هذا تتطور العقيدة عن كونها رؤية استشعارية أو حالة إيمانية، إلى تطبيق جهادي عملي، في سبيل إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أي تطبيق جهادي عملي يتناسب مع معطيات الواقع، ويعمل بما هو صالح للمجتمع والدين.

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٢١.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٩٠.

وقال (عليه السلام):

((إحذر أن يراك الله عند معصيته ويفقدك عند طاعته، فتكون من الخاسرين، وإذا قويت فاقو على طاعة الله، وإذا ضعفت فاضعف عن معصية الله)) [1].

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٨٣.

المبحث الثاني:

نظرية الإصلاح النفسي

- فلسفة الإصلاح النفسي
- منهج الإصلاح النفسي
- مظاهر الإصلاح النفسي والضرورة الاجتماعية
- نوازع النفس وأبعادها السلوكية والأخلاقية

فلسفة الإصلاح النفسي:

كانت للإمام علي (عليه السلام)، وقفات كثيرة عند النفس، ولو استقصينا خُطب ونصوص الإمام (عليه السلام)، التي وضعها في النفس البشرية، لأمكننا أن نؤسس نظرية شمولية تكاملية في إصلاح النفس وتكاملها، ويكفينا هنا اقتصاص بعضاً منْ هذهِ النصوص، لنستشف بها فلسفةً متكاملةً للنفس، وسُبل الارتقاء بها، عن الأمور الدنيئة والموارد المهلكة، والنهوض بها إلى مستوى الكمال، الذي هو الأمل المنشود، وهو الغاية المرجوة لكل ذات إنسانية

يقولُ الإمامُ (عليه السلام) في صفة خلقِ الإنسان:- ((ثُمَ جَمَعَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حَزْنِ الأرض وسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ. وَلاَطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ. فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَوُصُولٍ، وَأَعْضَاءٍ وَفُصُولٍ. أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَأَمَدٍ مَعْلُومٍ. ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا. وَفِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا وَمَعْرِفَةٍ يُفَرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالأَذْوَاقِ وَالْمَشَامِّ، وَالأَلْوَانِ وَالأَجْنَاسِ. مَعْجُوناً بِطِينَةِ الأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ. وَالأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَالأَخْلاَطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْبَلَّةِ وَالْجُمُودِ.)) [1]. ومن هنا فإنَّ ((النفس البشرية جزء من مخلوقات هذا الكون وهب الله تعالى بفضلهِ لها وجودها وصورها فأحسن صورتها ووهب لها العقل والإدراك والفكر و الإحساس ووهب لها أيضاً الغرائز والشهوات زوّدها بكثير من الميزات، والطاقات، وفضلها على كثيرٍ ممّا خلق بما أعطاها من نِعمة

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة ١، ص٢٦-٢٧.

العقل لتميز بها صالحها من فاسدها وتعرفُ بِهِ ربّها وتطيعُ بِهِ أوامرِهِ ونواهيهِ وتحدُ به مِن شهواتِها ونزواتِها وسعى به نحو الفضيلة والكمال)) [1].

ولهذا كانت النفس ولا زالت، ذلك المركّبَ الهائل، والمُكْون الغريب ذات الطاقة الخيالية، والإمكانية اللا محدودة، ذات التوجهات المختلفة، والنزعات المتباينة، والمشاعر المتنافرة، والمواجد المتوالدة. ومن هنا تنزع النفس في كُلّ مواطنِ وفي كُلّ موقف، بَل في كُلّ ساعةٍ وفي كُلّ لحظة منزعاً مختلفاً، واتجاهامختلفاً وإحساساً مختلفاً.

فهذه النفس نزاعة إلى الخير، ميّالة إلى الشر، لا تكاد تقع منها على صفةٍ، ولا على إقناع، ولا على رأي، متغيّرة بما يلائمها، وبما يعالجُ رغباتِها، وما يوائِمُ شهواتِها. ومن هنا كانَ لابدّ من وجود نظام تَصلُحُ بِهِ وتنقادُ له، وتأتمُ بِهِ، فكان مستودع ذلك النظام، ومُجْمَلِه في حِكْمةٍ إلهية وإرادة ربّانية تستوعب هذه النفسُ، وما يتراكمُ بها من رغبات وشهوات واختلاجات، ومن هنا لنا أن نقول ((الله تعالى أذن أعلم بها وبما زوّدها من الطاقات وبكيفية تكوينها وأسلوب خلقتها وهو الذي يعلم - على وجه التحديد - ما تحتاج إليه في سبيل تكاملها ورقيها وما يجب أن تبتعد عنه لئلا تتسافل إلى الحضيض وتكون ظالمة لنفسها من حيث تدري ولا تدري)) [2]،

ومن هنا لنا أن نتوصّل إلى أنّ الله نظّمَ الحياة، وَجَعَلَ لها شريعةً ومنهاجاً، وَسنّ لها السنن والقوانين الرادعة للنفس، الحاكمة عليها، القيّمة على اضطراباتها ونزواتِها، فضلاً عن الأعراف والتقاليد الاجتماعية والعادات العشائرية الرادعة لها.

---

(١) مقالات الشهيد الصدر في الصحافة النجفية، عبد السادة الحدّاد، ص٧٣-٧٤.

(٢) مقالات الشهيد الصدر في الصحافة النجفية، ص٧٤.

ولهذا يكون علاج النفس، واطمئنانها، في الاتصال بالربّ وبالقوةِ العظمى الإلهية، وكان في هذا الاتصال تبديداً للخوف وتغلباً على الضعف واطمئنانا للقلب[1].

وكان في ذكرِ الله جلاءً للهموم، واطمئنان للنفوس و ((الّذينَ آمنُوا وتطمئنُ قلوبُهُم بذِكرِ اللهِ ألا بذِرِ الله تطمئنُ القلوب)) [2].

يقولُ الإمام (عليه السلام)، في معَرِضِ هذه الدلالة:- ((إنّ اللهَ سُبحانَهُ جَعَلَ الذّكرَ جلاءً لِلقلُوب، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الوَقْرِه، وتُبصِرُ بِهِ بَعْدَ العشوة، وتنقادُ بِهِ بَعْدَ المُعانده،وما بَرِحَ لله - عَزّتْ آلاؤُهُ - في البُرْهَةِ بَعْدَ البُرهَةِ وفي أزمَانِ الفَترات،عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وكِلّمَهُمْ فِي ذاتِ عقُولِهِمْ، فاستَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةِ فِي الأَسْماعِ وَالأَبْصارِ والأفئدة)) [3].

ولذا يكونُ في ذكرِ الله، والتوجّه إليه، تَبْصرَةً ووعيٌ وإمعانٌ في حقائق الأمور، وخوافيها، مّا لا يخفَى على من تفتّحَتْ بواطنُهُ على الإيمان، واستارت بأنوارِ العرفان، واستضاءت بأفياء القرآن.

وما دامَ لهذِهِ النفس إقبالٌ على المعرفة واستعداد مظري للإيمان، كانَ لابّد من أن تُوردَ من موارد الخير والنور والاستبصار متغذّية بغذاء المعارف القرآنية، وناهِلة مِن صفاء علومِها الربّانية، وإنّ في قراءةِ القرآن والتزوّد منه وسيلةَ للاستشفاء، وسبيلاً للراحةِ والاطمئنان، وثقةً بالنفس عبر التوكّل على الله، في كلّ الأحوال وفي كُلّ الأمور وفي كُلّ المواقف.

يقولُ الإمام (عليه السلام)، في معرض الحثّ على قراءةِ القرآن والتزوّد منه:

((وعليكُمْ بِكتابِ الله، فإنّهُ الحَبلُ المتينُ، والنُورُ المُبينُ، والشفاءُ النّافعُ، والريُ النّاقعُ، والعِصْمَةُ للمُتمسّكِ، والنّجاءُ، للمتعلّقِ، لا يَعْوجُ فيُقَامُ، ولا يزيغُ

(١) يُنظر الإيمان والكفر وآثارهما على الفرد والمجتمع، الأستاذ عباس ذهيات، ص٨٢.

(٢) سورة الرعد آية ١٣: ٢٨.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ٢٢٢، ص٣٧٠ - ٣٧١.

فيستعتبَ، ولا تُخلقهُ كثرةُ الردّ، وولوجُ السمع، مَنْ قالَ بِهِ صدَقَ، ومَنْ عمِلَ بِهِ سبَقَ)) [1]،

ومن هنا تصبح مرحلة النقاء النفسي، واليقين الإيماني، والوصول إلى غاية الهداية الربّانية المقدّسة، هي مرحلة متوسطة بين نوعين مِن القوى، قوّة الاستعداد النفسي الفطري للهداية، وقوّةِ الهداية الربانية والنعمة الإلهية، التي يهبها إلى عبادهِ وأوليائِه،ممّن يستحقون مثل هذهِ النعمة، وهذه العَطية الجزيلة، والبركة الوفيرة منه جلَّ وعلا، ((إنَّ اللهَ يهْدِي مَنْ يشاء)) [2]. لأنَّ النفس البشرية ليست في موقع الجبر المطلق، ولا في موقع التفويض المطلق (الأختيار)، بل تكون بين أمرين وبين طاقتين (طاقة ذاتية فطرية تكون ذات جاهزية واستعداد لقبول الهداية، واستقبالها وتنميتها وتغذيتها ومراعاتها وصولاً إلى حالة الكمال والسعادة النفسية، التي هي أسمى غاية، وأهم متطلبات الحياة، ومن أجل غاية قدسية هي التكامل مع المجتمع، والتصالح معه، يقولُ الإمام (عليه السلام)، في مَعْرِضِ تشخيص النفس، وتحديد موقعها بين الإرادة الذاتية لهذهِ النفس، وبين الإرادة الالهية:

((فإنّكُم لَوْ عاينتُم مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنكُمْ، لَجَزَعتُمْ ووهلتُم وَسَمِعتُمْ وأطَعتُمْ، ولكِنْ مَحجوبٌ عَنكُمْ مَا قَدْ عايَنُوا، وقريبٌ ما يُطْرَحُ الحِجَابُ ولَقَدْ بُصّرتُمْ إنْ أبْصرتُمْ، وأسْمِعتُمْ إنْ سَمِعتُمْ، وهُدِيتُمْ إنْ اهْتَدَيتُمْ)) [3].

ولهذا ترى هذه النفس البشرية، ألّتي استمالَتْ للدُنيَا وانشغلَتْ بأمورِها، ولهوِها، وملذّاتِها، وماديّاتها، ومغرياتها، قَدْ سُلِبَتْ هذه الذات مِنْ جانبها الروحي، وَمِنْ بَصيرتها التفكُريّة التفاعُليّة مع الله، فَلَمْ تَعُدْ ترى إلاّ ما هو مادّي، ما هو ملموس، ما هو زائف، ما هو مظهر باهر فقط مع أستغناء عن الجواهر،

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٥٦، ص ٢٤٣.

(٢) سورة الرعد / ٢٧.

(٣) نهج البلاغة، ج١، خطبة ٢٠، ص ٥٦ - ٥٧.

والحقائق، والدرر المكنونة خلف هذه المعاني المغفول عنها، عند الكثير من بني البشر، ممّن لا يستشعرون إلاّ الملذّات المادية الدنيوية الزائلة، غافلين عن معالم ما وراء المادّة، العَالم الأخروي عالم الموت والبرزخ، والحياة الأخرى القادمة في رحاب الله. ولو سعى الإنسان إلى قوتِه الروحي، عما يَسعَى إلى القوت المادي، الذي يستكمل بِهِ أسباب العيش والبقاء، لكانَ هذا كفيلاً بأنْ يرفع الوضع النفسي له، وأنْ يفتحَ لَهُ آفاق الحكمة والمعرفة والتطلُّع على دقائق الأمور، والتفقُّهْ فيها، والتبصرُ إليها، ولكان قادراً على إصلاح شخصِهِ وإصلاح سلوكِهِ، كانَ ناجحاً في أسْرتِه، في مجتمعِه، في محيطه، لأنّ النفس هي داخل السلوك، وهي منجم الأخلاق، ما ظَهَرَ من سلوك إيجابي أو سلبي، وهو مظهر، وهو شكل مِن أشكال هذه النفس، لأنّ النفس هي وعاء الأخلاق، وهي وعاء السلوك، ولطالما كانت النفس أمّارة إمّا على السلوك الحسن، أو السلوك السيئ، يقولُ الأمامُ (عليه السلام)، في مَعْرض هذِه الفكرة، ألّتي نستدلُ بها على أنّ السلوك هو مَظهر لدواخل وبواطن الذات الإنسانية:- ((فَمَنْ طَابَ ظاهِرُهُ طَابَ باطِنُهُ، وَمَا خَبُثَ ظاهِرُهُ خَبُثَ باطِنُهُ)) [1]، وفي هذه الدلالة أيضاً يقولُ (عليه السلام): ((وأعْلَمْ أنّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَباتاً، وكلُّ نَبَاتٍ لا غِنَى بِهِ عَنِ الْماءِ وَالْمِياهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ، وَحَلَتْ ثُمَرَتُهُ)) [2].

وهذا ما يقودنا إلى نظرية أخرى والى رؤيةٍ أخرى، تعتمد على تغذية النفس بالغذاء الاكتسابي المعرفي الصحيح وفي مرحلة مبكرة مِنْ مراحل حياة الإنسان، لأنّ النفس الصغيرة الحديثة التكوين والوجود، تكون ذات قابلية على الاكتساب أكثر بكثير من النفس، التي أنطلقت في الحياة، وأستزادت بالكثير من الآراء والثقافات المزدوجة. ولذا تكون مرحلة الاكتساب المعرفي المبكرة، ذات تأثير،

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٤٠.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٤٠.

وذات فعالية وذات عمق أكثر فيما لو كانت مبكرة وخصوصاً فيما لو غُذّيت هذه النفس الحديثة بالافكار الصحية، وبالعلوم النافعة، يقول الأمامُ في إثبات هذه الدلالة في وصيةٍ له إلى الإمام الحسن (عليهما السلام): ((وإنّما قَلْبُ الحدث كالآرض الخالية، ما ألقي فيها من شيٍ قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك، ويشتغل لُبُّكَ))[1].

ومن سبل الأرتفاع بالنفس وصيانتها، عن الإنحراف في مطبات الدنيا وزخارفها وملذاتها الزائفة، هو في مُحاسبة النفس ومراقبتها ومراقبة الذنوب التي تصدر عنها ومن هنا كان في هذه المحاسبة والمراقبة إكرام للنفس وتحصين لها عن الإنزلاق في المهالك وتحذير من الإنحرافات الأخلاقية والسلوكية، التي تصدر كمظهر للنفس المنحرفة التي ليس لها رادع ولا حسيب ولسنا أن نستدل على هذه المعاني والدلالات في قوله (عليه السلام):

((فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم، فأتقى عبد ربه، نصح نفسه وقدم توبته، وغلب شهوتهُ)) [2].

ومن هنا كانت مراقبة النفس، ومحاسبتها على الذنوب، صيانةً لها، وإنصرافاً بها عن الملذات السافلة اللا مشروعة، وكان هذا كفيلاً بأنْ يرفع حالة اليقين والإعتقاد المطلق بالله، ومن ثمّ هو تمهيدٌ للسلوك الفاضل والأخلاق المنسجمة مع هذه الذات العاقلة العارفة بصالحها من طالحها، الموقنة بربها، الواثقة به، والمستبصرة لمسيرتها، وصولاً إلى الكمال وله (عليه السلام) رؤيةٌ مرتبطةٌ بهذه الرؤية، تتضمن التعريف بفلسفة محاسبة النفس آنياً خيراً لها من أن تُحاسب أخروياً، وأن تستعد للحساب الدنيوي، قبل ضيق الحساب الأخروي، يوم لا تنفع معذرة، أو توسُّل، أو أسترحام، يقول (عليه السلام) في هذه الفكرة:

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، وصية الإمام للحسن، ص٤٢٥.

(٢) م. ن، ج١، خطبة ٦٤، ص ٩٩.

((عباد الله زنوا أنفسكم من قبل أن توزنوا وحاسبوها من قبل أن تحاسبوا، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وأنقادوا قبل عنف السياق، وأعلموا أنه من لم يُعن على نفسه، حتى يكون له منها واعظٌ وزاجرٌ، ولم يكن له من غيرها زاجرٌ لم يكن له من غيرها زاجرٌ، ولا واعظٌ)) [1]، ومن هنا فلتكن كل نفسٍ رقيباً على نفسها، وحسيباً من تبصرتها:

((فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس عليها حسيبٌ غيرك))[2].

وربما تكون في هذه المراقبة والمحاسبة في الحياة، رحمة لها في الآخرة وقبل وقوع المحذور، وإنصرام الوقت، والزمان والمكان، ومن كلام للإمام قاله عند تلاوتهِ ((يَأيُها الإنسان ما غرك بربك الكريم)).

قال (عليه السلام):

((أدحَضُ مسؤولٍ حجةً، وأقطعُ مغترٍّ مَعذرةً، لقد أبرح جهالة بنفسه، يا أيها الإنسان ما حرّاك على ذنبك، وما غرّك بربك، وما آنَسك بهلكة نفسك؟ أما من دائك بلولُ! أم ليس من نومتك يقظة! أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك؟ فربما ترى الضاحي لحر الشمس فتظلهُ، أو ترى المبتلي بألمٍ يمضُ جَسَدَهُ، فتبكي رحمةً لهُ، فما صبرك على دائك وجلدك على مُصابكَ، وعزاك عن البكاء على نفسك، وهي أعز الأنفس عليك؟! وكيف لا يوقظك خوف بيات نقمةٍ، وقد تورطت بمعاصيهِ مدارج سطواته))[3].

ولطالما كانت للإمام فلسفةً في إكرام النفس، والأرتفاع بها، عن مستوى الرذائل، ومهاوي اللذائذ، وله نصوص بهذا الشأن ومنها قوله (عليه السلام):

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة ٩٠، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ٢٢٢، ص ٣٧٢.

(٣) م. ن، ج٢، خطبة ٢٢٣، ص ٣٧٢ - ٣٧٣.

((من كرمت عليه نفسه، هانت عليه شهواته)) [1]، وكان في هذا الإرتفاع عن الشهواتِ، وإماتة الرغبات اللامشروعة، والتسامي عن الصفات الذميمة تزهيد للنفس، حيث يصبح الزهد أسلوباً مهماً من أساليب النهوض النفسي والتطهير عن الأمراض والادران الجاهلية، وأصولها النزّاعة للشهوات.

منهج الإصلاح النفسي:

وللإمام (عليه السلام)، نظرية في صيانة النفس والتسامي بها. يقول الإمام في معرض هذه الوصية لولدهِ الحسن (عليهما السلام):

((أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّهِ باليقين، ونوّره بالحكمة، وذلله بذكر الموت، وقرّره بالفناء، وبصرهُ فجائح الدنيا، وحذّره صولة الدهر، وفحش تقلب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسر في ديارهم وآثارهم، فأنظر فيما فعلوا، وعمّا أنتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا، فإنك تجدهم قد أنتقلوا عن الأحبة)) [2].

من يقفُ عند هذا النص، متعمقاً في دلالاتهِ، مستقصياً توجهاته، له أن يجد ويستخرج منهجاً متكاملاً مستوفياً للإصلاح النفسي، وأساليب الإرتقاء الروحي الذاتي، حين حدّد الإمام مجموعة من النقاط التي أوصى بها الإمام الحسن (عليه السلام)، وحيث تتصالح النفس مع بارئها وتنقادُ لهُ عن رغبةٍ وإشفاق، ويمكن أن نُلخّص هذه النقاط وهذا المنهج عما يلي:

١- إحياء النفس في قبول الموعظة (المواعظ الإلهية، مواعظ الرسول، مواعظ أهل بيت النبوة، مواعظ الأولياء والصالحين والمؤمنين من صفوة خلقِ الله)،

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٩٢.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، الوصية،ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

وعبر التزوُد من (القرآن الكريم، وكُتب الدعاء، والمناجاة، والأحاديث النبوية، والحكم والأقوال، والنصوص الإمامية).

٢- أماتة الشهوات اللامشروعة، والإنحرافات والميول اللامقبولة شرعياً وأجتماعياً، عن طريق التزهيد، والزهادة، في هذه الملذّات الزائفة الزائلة بعد حين، في الوقت الذي يعاني مرتكبوها تبعاتها وعقوباتها، ما شاء الله، يقول الإمام (عليه السلام):

((أذكروا أنقطاع اللذاتِ وبقاء التبعات)) [١].

٣- تقوية النفس باليقين، واليقين هو مرحلة متطورة من مراحل الإيمان الحقيقي بالله، الذي تكون فيه النفس على بصيرةٍ من أمرها، وبهذا اليقين تهتدي الطريق، وتستوضح الغامض، وتستبين الحقائق.

٤- تنوير النفس بالحكمة، وتغذيتها بغذاء المعرفة، والعلوم النافعة، وتزويدها بأسباب التعقل، والإستبصار والتفقه ومعرفة الأحكام الشرعية، ومسائل العبادات والمعاملات، وأحكام الحلال والحرام، وقوانين الشريعة وسنن العدالة الإلهية، التي قضى بها بين خلقه [٢].

٥- تذليل النفس بذكر الموت والعقاب الأخروي، العقاب المحتوم، والمعاد الذي لا بدّ منه. يقولُ الإمام في معرض هذا المعنى: ((وأعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة، وأنّ الخالق هو المميت)) [٣].

٦- إقرار النفس وإطلاعها على الفناء وحتمية الهلاك، والقضاء الذي لا محيص عنه، والقدر الذي لا بد من الإقرار به، والانصياع لأحكامهِ الصادرة عن مبدأ العدالة الإلهية المطلقة في التكوين والتشريع، وفي القضاء والقدر.

---

(١) م. ن، ج ٤، ص ٥٩٠.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، وصية الإمام للحسن، ص٤٢٥.

(٣) نهج البلاغة، ج٣، ال،ص ٤٢٧.

٧- الإبتعاد عن الغرور والأغترار بالحياة الدنيا، والجري في منعرجاتها، والإستسلام لنزواتها وشهواتها، ولأنّ الدنيا، ليست بدائمة وهي للفناء لا محالة.

٨- الإعتبار بأخبار الماضين، والاستفادة من تجاربهم في الحياة الفانية، والنظر في آثارهم، والأستزادة من أخبارهم وعواقب أمورهم.

٩- جعل النفس ميزاناً في ما بينها وبين غيرها، فتحبُ لغيرها ما تحبُ لنفسها، وتكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحبُ أن تظلم، وهذا ما نستقرئهُ من قوله (عليه السلام) في الوصية:

((يا بُنيّ! إجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره لهُ ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحبُ أن تظلم وأحسن كما تحبُ أن يحسن إليكَ، وأستقبح من نفسك ما تستقبحهُ من غيرك، وأرضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك)) [1].

١٠- تأدية الأركان الدينية المهمة، والفرائض الواجبة، كالصلاة والصيام، والزكاة، لما لها من آثار نفسية وسلوكية، ولنقف الآن عند قوله عليه السلام:- ((وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات، والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلاً لنفوسهم وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم لما في ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغراً ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللاً مع ما في الزكاة من صرف لمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر)) [2].

وفي ضوء هذا النص لنا أن نقول أنّ للأركان الدينية، (كالصلاة والصيام، والزكاة) ابعاداً كثيرة، ودلالات عميقة، وإنّ الإلتزام بها، له فلسفة خاصة،

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، الوصية، ص ٤٢٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

ودلالات ومعاني روحية ومعنوية، ونفسية لأنّ هذه الواجبات والفروض تشكلُ نوعاً من الأختبار الإلهي الذي يختبرُ به العباد، وتمتحنُ طاقاتهم النفسية، والإيمانية والروحية، ولأنّ هذه الواجبات هي ليست حركات جسمية ورياضية مفروضة على الخلق، ولا هي أستشعارات إجبارية بالجوع والعطش، ولا هي عطاء قسري مفروض على الاغنياء.

وإنما المطلوب منها هو في تلك الدلالات الخفية، والأعماق التواصلية والتجاوبية مع الخالق العظيم، وبالتالي هي نوع من الإنصياع والطاعة والشكر لهذا المانح المعطي بلا منّة، ولا مقابل، فضلاً عن هذا فلهذهِ الفروض والعبادات أبعاد أخلاقية، وسلوكية، لها تأثيراتها الإجتماعية، وأهدافها في خلق الإنسجام بين طبقات المجتمع، لأنّ حالة التذلل والخشوع والتواضع، لله الخالق العظيم، يكون مقدمة، يكون بداية لتصحيح العلاقات مع المجتمع وإستشعار آلامهم، والتواضع لهم، والتواصل معهم إيمانياً وروحياً عبر إستشعار مآسي الناس ومآسي الفقراء على الخصوص. هذا فضلاً عن كونها باباً جهادياً يتطلّب مجاهدة النفس عن المحرمات نحو التسامي، نحو التكامل، نحو الإصلاح، فالصيام مثلاً هو جهاد ضد الشهوات، هو جهاد ضد النظرة المحرّمة، ضد الفكرة المشبوهة، ضد الشهوات المنحرفة غير المشروعة، إذن فهو ترويض نفسي، تطهير روحي، يتبعه أستشعار بآلام المجتمع، آلام الفقراء، والإحساس بعوزهم ومجاعتهم. ولهذا أيضاً كانت الزكاة باباً جهادياً، يَستلزم التضحية بالمال، الذي كان حصيلة للعمل والجهد المشروع، فيكونُ في تقديمه للفقراء، تضحية ونوع من التفاني والإيثار، (فضلاً عن أثره الأقتصادي هذا، فهو حاجة معنوية، حاجة روحية، يستشعر بها كلا الطرفين، المعطي والمستفيد) [1]، وهو (بابٌ من أبواب التواصل الإجتماعي،

---

(١) ينظر: فقه الأخلاق، ج٢، كتاب الزكاة، ص ٣-٤، الشهيد الصدر.

والتبادل المنفعي، والتكامل الروحي بين عنصرين مهمين من عناصر المجتمع[1]، أمّا الصلاة فلها، فلسفتها الخاصّة، التي تتلخّص في كون الأفعال والحركات، التي يقوم بها المُصلّي (كالركوع، والخشوع، والقيام، والقعود)، هي نمط تذلُّلي، ومستوى تواصلي، وترابطي مع الله يقود إلى نوع من التواضع الذي يتحول وبمرور الزمن إلى تواضع مع الآخرين، مع المجتمع.

مظاهر الإصلاح النفسي والضرورة الفردية والإجتماعية:

إذن فالإصلاح النفسي هو إطمئنان، هو ثقة باطنية، تكون فيها النفس أمّارة بالخير، بعيدة عن الشر، ومرّتْ بنا في البحث السابق، طرق وأساليب ومنهج الإصلاح النفسي، فضلاً عن كون الإصلاح النفسي، هو أرتياح داخلي وأستقرار باطني، وهو نوع من الضرورة نوع من الحاجة الإجتماعية، حيثُ تصبح فيه الرؤية السلوكية واضحة متوازنة متآلفة مع الكيان الروحي الذي يقودها، وعصب الحياة الذي يغذيّها.

هنا تصبح الحالة السلوكية الصحيحة، مظهراً فضيلاً يكتسح المجتمع بإخلاقياته الحميدة، التي تستحق الثناء والتقييم والتشجيع، تستحق الإنصهار في المجتمع، وفي بوتقة الواقع المؤلّف من مجاميع السلوك المختلفة، مجاميع السلوك المتباينة، التي تتميّزُ فيها السلوكية الصالحة المنسجمة مع المبادئ مع القيم الروحية مع الفضائل الحميدة، ولهذا يكون الإصلاح الذاتي النفسي، ضرورة فردية، ضرورة إجتماعية، لا بُد من تطبيقها، لا بُد من تعريفها بمناهج الإصلاح، التي قدّرها الله لتقييم البشر، وأنزالها، كأطروحات وكتب سماوية، لتطهير الذات، من الأمراض النفسية، وربّما يكون (الأعتراف) هو خير طريقة لتطهير الذات، والأعتراف بالذنوب والخطايا، فهو نوع وشكل من أشكال التصالح مع الله، عبر

---

(١) ينظر: م. ن ، ج٢، كتاب الزكاة، ص٥.

حالة (الأعتراف)، الأعتراف بالذنوب المتراكمة، الذي يكون مقدمة لحالة الإنسلاخ عن الأوساخ، التي تصدأ بها النفوس، حالة تصالح مع الله أولاً، ومع الذات ثانياً، حالة تجاوب روحي، وتواصل وجداني، أستغفاري، تنفرجُ فيه النفس عن واقعها المؤلم، وعن قناعاتها المُزيَّفة، وعن نوازعها الشريرة لتتصالح مع الرب، مع الخالق، مع من هو أقربُ إليها من حبل الوريد، مع من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، مع من هو أرحمُ بها من أقرانها وأوليائها، وآبائها، وأمهاتها، هي حالة إئتلاف مع الرب، حالة تسامح وأستغفار، وتوبة.

ومن هنا تكون لهذه الحالة النفسية المتوائمة مع العقيدة، مع المبدأ، مظاهر سلوكية وإتجاهات أخلاقية، وشخصية إجتماعية، تكون موضع إعجاب وتقدير وتقييم المجتمع، وهذه الفكرة أو النقطة هي مرحلة إيجابية فبها ((يتعرف الإنسان على نواحي القوّة والضعف في نفسيته وسلوكه، وعلى إمكانات خافية أو غير معلومة وعلى الأغراض والدوافع التي تقوم وراء سلوكه))[1].

يقول الإمام في أهمية التقييم الإجتماعي للإنسان:-((المرآة التّي ينَظُرُ الإنسان فيها إلى أخلاقه هي الناس، لأنَّهُ يَرَى محاسنه من أوليائه فيهم ومساويهِ من أعدائه فيهم))[2].

ولعل أهمُ مظهر من مظاهر الإصلاح الباطني الذاتي، والإنسلاخ عن الذنوب، هو (الاستغفار):

فالأستغفار هو حالة من حالات التصالح مع الله إن كان صادقاً نابعاً عن حاجة ماسّة وضرورية، حاجة ذاتية ورغبة عارمة للتصالح مع الله، وهو مرتبة إيمانية، بل هو ذروة يقينية ينسلخُ فيها الفرد عن ذنوبهِ وآثامهِ. فهو ليس مجرد كلمة ينطق بها المستغفر، بل هو حالة إنفراج عن المنكرات، حالة أنصهار وتقارب

---

(١) المنهج التربوي عند أهل البيت، السيد سعيد كاظم العذاري، ص ١٦٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، شرح بن ابي الحديد، ج٢، ص ٢٧١.

روحي وسلوكي مع الله، وبالتالي فهو إخلاقي إجتماعي ولنقف الآن عند هذا النص للإمام يختصر فيه رؤيته عن الإستغفار، وفلسفتهِ في أستجلاء معانيهِ ودلالاتهِ وأهميتهِ الأجتماعية:

((الإستغفار درجة العليين، وهو أسم واقع على ستة معانٍ: أولها: الندم على ما مضى. والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً. الثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعةٌ. والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحمٌ جديدٌ. والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقتهُ حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: ((أستغفر الله))[1].

أذن فالاستغفار حالة روحية مع إلتزام سلوكي واجب على المستغفر، فهو إلتزام سلوكي تجاه الرب وتجاه الناس، وتجاه المجتمع، وذلك ما يتضحُ في نظرية الإمام، وما لهذه النظرية من أبعاد إجتماعية يصلُحُ في هديها الفرد والمجتمع، ولأن الاستغفار هو إقرار روحي وهو إلتزام إخلاقي يفرض السلوك الإيجابي الإخلاقي ومن ثم يكون نتيجة حتمية للتصالح مع الله. يقول الإمام (عليه السلام) في هذا المعنى:

((مَنْ أصلح سريرتهُ أصلح اللهُ علانيتهُ، ومن عمل لدينهِ كفاه أمر دنياهُ، ومن أحسن فيما بينهُ وبين الله أحسن ما بينهُ وبين الناس)) [2].

إذن فالتصالح مع الله، والتنقية النفسية، والتوبة الباطنية، والإنسلاخ عن الذنوب والآثام، وتأدية ما فرض الله، من واجبات بصدقٍ وإلتزام، حيث يكون هذا باعثا للتصالح مع المجتمع، حين يتحول التطهير إلى دفعة سلوكية، وطاقة

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٨٧.

(٢) م. ن، ج٤، ص ٥٨٨.

أخلاقية، يهبها الله لمؤمنيه، ومصدّقيهِ، يكون كثواب وكحافز للعمل الصالح، وهو نوع من التطمين نوع من التهدئة، التي يمنحها الله لعبادهِ الصالحين يقول الإمام (عليه السلام)، في هذه الدلالة:

((التقى رئيسُ الأخلاقِ)) [1].

ومن مظاهر الإصلاح النفسي، هو (الشكر)، أي شُكر اللهِ وحمدهِ على نعمهِ وآلائهِ، ولطالما كان الشكر باباً من أبواب الرزق الدنيوي والفوز الأخروي، أذن فهو حالة من حالاتِ التصالح بين العبد والرب، حالة إنسجام وتقبُّل للنعمِ الإلهية بالحمد والثناء والتكريم، هذا فضلاً عن كونهِ حالة أخلاقية سلوكية، فضلاً عن آثارها الإجتماعية المتمثلة في زيادة الرزق، والاستقرار الإجتماعي الناتج عن هذه الزيادة. يقول الإمام في هذا المعنى:- ((ما كان اللهُ ليفتحَ على عبدٍ باب الشكرِ، ويغلقُ عنهُ باب الزيادةِ، ولا ليفتحَ على عبدٍ باب الدعاء ويغلق عنهُ باب الإجابةِ، ولا ليفتحَ لعبدٍ بابَ التوبةِ ويُغلقَ عنهُ بابَ المغفرةِ)) [2].

فضلاً عن كلِّ المعاني والدلالات المترتبة على الشكر، لنا أن نصل إلى مرحلة متطوّرة، تعكس أهمية الشكر في كونه نجاحاً وفوزاً في إبتلاء وأمتحان دنيوي، والذي لا يتجاوزه إلاّ من أستوضحَ أمرَ الدُنيا، وعاجلها بالعمل والشكر والصبر على كُلِّ الإبتلاءات والظروف والمتغيرات، وصولاً إلى الثقة العالية بعدالة الله المطلقة في كُلِّ عطاءاتهِ وتوزيعاتهِ، وما الله بظلام لعبيده، ولم يكن ليميّز بينهم في أمرٍ ما، أو عطاءٍ ما، لو لم يكن في هذا التمييز حكمة ربّانية، وعدالة إلهية، لا تستوضحُها العقول القاصرة. وهذا ما نلمحُ دلالاته في قولهِ (عليه السلام):

---

(١) م. ن، ج٤، ص ٥٨٦.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٩١.

((وقدر الأرزاق فكثرها وقللها، وقسمها على الضيق والسعةِ، فعدل فيها ليبتلي من أرادَ بميسورها ومعسورها، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها))[1].

ويقودنا هذا النص، إلى رؤية مظهر آخر من مظاهر الإصلاح النفسي، ولعلها من أبلغ المظاهر وأنفعها للعبد، نفسياً وإجتماعياً، ألا وهي ظاهرة (الدعاء)، فالدعاءُ هو أحدُ أهمُ مظاهر التجاوب الروحاني مع الرب، والتواصل الوجداني، وهو صلة وثيقة بين الخالق والمخلوق، ومن حيث كونه باباً مفتوحاً للعباد، مُيسراً للعباد متى شاؤوا ولَجوه، ولطالما كان الربُ ولا زال، يُعاملُ عبادهُ بالحسنى، فلا يؤاخذُ هُمْ بذنوبهم وآثامهم، وسعت رحمتهُ كلَ شيء (جلَ وعلا). ولنقف الآن عند هذه الفلسفة الدعائية للإمام، التي ضمّنها تضاعيف وصيتهِ للإمام الحسن (عليه السلام):

((وَاعلم: أنَ الذي بيده خزائنُ السمواتِ والأرضِ، قد أذن لك في الدعاءِ، وتكفل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيكَ، وتسترحمهُ ليرحمكَ، ولم يجعل بينك وبينهُ من يحجبهُ عنك، ولم يلجئكَ إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنعك إن أسأت من التوبةِ ولم يعاجلك بالنقمةِ، ولم يعيرك بالإنابة ولم يفضحك حيثُ الفضيحةُ بك أولى، ولم يُشدّد عليك في قبُولِ الإنابةِ، ولم يناقشكَ بالجريمةِ، ولم يؤيسكَ من الرحمةِ بل جعل نُزُوعكَ عن الذنبِ حسنةً، وحسبَ سيئتكَ واحدةً، وحسبَ حسنتك عشراً، وفتح لك بابَ المتابِ، فإذا ناديتهُ سمع نداءكَ، وإذا ناجيتهُ علم نجواكَ فأفضيتَ إليه بحاجتك،، وأبثتهُ ذات نفسك، وشكوت إليه هُمومكَ، وأستكشفتهُ كرُوبك، وأستعنتهُ على أمورك، وسألتهُ من خزائن رحمتهِ ما لايقدرُ على إعطائهِ غيرهُ، من زيادةِ الأعمار، وصحّةِ الأبدانِ، وسعةِ الأرزاقِ، ثم جعلَ في يديك مفاتيح خزائنهِ، بما أذنَ لك من مسألتهِ، فمتى شئتَ

---

(١) م. ن، ج١، خطبة الأشرباح ٩١، ص ١٥٤.

أستفتحت بالدعاءِ أبواب نعمتهِ، وأستمطرت شآبيب رحمتهِ)) [1].في ضوء هذا النص،لنا أن نستخلص بعضاً من جوانبِ فلسفة الإمام الدعائية، والأبعاد الإجتماعية المنطوية تحته:

١- الدعاء هو حاجة روحية، وأستشعار باطني بالأمن، والاستقرار النفسي المنبعث عن الإحساس بوجود (حارس أمين)، يتولى حماية الإنسان، ومتابعة أمورهِ، وحفظهِ عن الهواجس الشيطانية، والشكوك النفسية، والنزعات الإنحرافية، التي تعتري الذات الإنسانية، فيكون في وجود حالة الإستشعار الإلهي، والتقارب الروحي، رادعاً وحافظاً، عن مثل هذه الأختلاجات المنحرفة، التي تسبّب إحباطاً ذاتياً، وإعراضاً روحياً عن الأعمال الصالحة، وتحجب عن المرء رؤية الجانب المشرق، الجانب الخيّر في كل شيء، آني أو مستقبلي. ومن هنا يكون الدعاء استقراراً نفسياً، واستقراراً إجتماعياً.

٢- إنّ إستفتاح النفوس بالدعاء، إستمطار لنعم الله، وأستجلاب لآلائهِ ونعمهِ. على العباد، أذن فهو زيادة في الرزق، يُعبّر عن حاجة إجتماعية ضرورية، تستجلب بها قوت الفرد والمجتمع على العموم.

٣- إنّ التوجُّه الدعائي، هو بابٌ من أبواب التوبة، الذي فتحهُ الله لعبادهِ، من المذنبين والآثمين، كان فيه نجاةً من جحيم المشاكل النفسية المترتبة عن تأنيب الضمير، وإنسلاخاً عن أدران الهموم والكروب. فضلاً عن كونه باباً للإسترحام والغفران والإستعطاف الإلهي.

٤- أنّ الدعاء هو بابٌ من أبواب الشكوى، وردّ المظالم، ولطالما كان الله، سّماعاً لهموم الناس ومشاكلهم، وحلالاً لمظالمهم والإقتصاص من الظلمةَ والجبّارين، أذن هو حاجة إجتماعية تتجسّد في بثّ الشكوى، ونشر المظالم، والإقتصاص من الظلَمةَ.

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، الوصية، ص ٤٣٠ - ٤٣١.

أنّ الدُعاء هو شكل من أشكال المناجاة، واللّذة الصوفية، هذه اللذة الإستشعارية، الوجدانية، العاطفية، التي تنشأ كعشق، وكحب عذري، بعيد عن الرغبات الدنيوية، والحاجات المادّية، والطلب المادي، هذا الدعاء الذي يتجسّد كشكل من المناجاة الروحية الإلتذاذية، المتسامية فوق سطح المادّة، وفوق مستوى التجسيم، والمادّة، وفوق كلّ سطوح المقاييس الدنيوية الزائلة عمّا حين. ترتفع كحالة سماوية، كحالة لا محسوسة من قبل الآخرين، كحالة فردية يتفرّدُ بها المؤمن، كوضع أستشعاري، أقترابي من الله، الذي لا تليق بهِ، وبعطاياه الجزيلة، وبنعمهِ الجمّة على الخلائق، الأكهذا النوع من التواصل والعبادة الخالصة له،هذا التوجُّه الخاص، الذي ينطلق من درجة الصفر إلى حدود المطلق اللامحدود، اللاموصوف، اللامتناهي في العطاء، المستجيب بلا منّة، والمستعطف بلا مقابل.

هذا النوع من التوجّه، هو حالة رقيّ إنساني وحضاري قد لا تصل إليه أعظم الحضارات الإنسانية، وأكبر الأمبراطوريات الوضعية. بعلومها، وإمكاناتها، التكنولوجية الخارقة والصارمة.

ومن هنا، لنا أن نوجز فلسفة الإمام في تعريف الدعاء في ((الدعاءُ بذاتهِ قيمة، لأنّه إرتباط المحدود بالمطلق، فمهما كان أحدُنا قوياً فهو مفتقرٌ في أصلِ وجوده إلى الخالق سبحانه، وهو في أستمرار حياتهِ وفي نموهِ وتكاملهِ، ضراعةٌ دائمةٌ لتلّقي التموين والعطاء من الغني بالمطلق سبحانه، فدعاؤه إنسجامٌ مع هذا التكوين والإحتجاج)) [1].

وأخيراً.. نودُ أن نسلّطَ الضوء على فلسفة الإمام، ورُؤيتهِ الخاصّة في أسباب تعطيل الإجابة عن العباد. نتنزعُها في ضوء الوصيّة، وفي هذا النص منها حيث يقول (عليه السلام):

---

(١) مقدمة كتاب (من أدعية الحبيب المصطفى)، الشيخ علي الكوراني.

((فلا يُقنطْكَ إبطاءُ إجابتهِ فإنّ العطيّةَ على قدرِ النيّةِ، وربّما أُخّرت عنكَ الإجابةُ ليكونَ ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربّما سألت الشيءَ فلا تُؤتاهُ، وأُتيتَ خيراً منهُ، عاجلاً أو آجلاً، أو صُرفَ عنكَ لما هو خيرٌ لك، فلربَّ أمرٍ قد طلبتهُ فيه هلاكُ دينكَ لو أوتيتهُ، لتكن مسألتُكَ فيما يبقى لك جمالُهُ، ويفني عنك وبالُهُ، فالمالُ لا يبقى لك ولا تبقى لهُ)) [1].

وفي ضوء هذا النص لنا أن ننتزع ونستخلص بعضاً من ملامح فلسفة الإمام في أسباب تأخير الدعاء عن العباد:

١- إنّ الإستجابة قد تكون على قدر النية، فكلّما سلُمت النيّة في غايتها عن الموبقات، وكانت خالصةً عن الأغراض المشبوهة، والنزاعات المشوبة، وكانت مقبولة أكثر عند الله، العالم بما في النفوس وبخفايا الصدور، ومكنونات الضمائر والعقول.

٢- أحياناً يكون في تأخير الإجابة، رؤيا إلهية، وبُعد مُضمر خافٍ، قد لا نقع عليه بعقولنا القاصرة، فقد تكون لثواب أخروي، يكونُ أعظمُ قوةً، وأكبرُ شأناً، حين يُصرفُ السائل عن الأمر المرغوب فيه، إلى أمرٍ أعظمُ وأجزل، لحكمةٍ إلهية ترى في هذا الأمر المرغوب فيه هلاكاً دينياً، ومنفعةً دنيوية زائلة عمّا حين، فتصرفُ عن هذا العبد، لخيرهِ في آخرتهِ الباقية لَهُ بعد فناءِ دنُياه، ولأنّ المال لا يبقى للعبد، ولا يبقى العبدُ له.

٣- وقد يكون في هذا التأخير، نوع من الإختبار وضرب من الأمتحان الذي يُختبرُ فيه العباد، حين يبتليهمُ الله بقلةِ الرزق، وتغيرُ الظروف المعاشية لهم.

ويقول الإمام في معرض هذه الدلالة:

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٣١.

((وقدرَ الأرزاق فكثرها وقللها، وقسّمها على الضيق والسعة، فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسُورها ومعسورها)) [1].

(١) نهج البلاغة، ج٣، الوصيّة، ص ٤٣١.

نوازعُ النَّفس وأبعادها السلوكية والأخلاقية:

مرّ بنا في الأبحاث السابقة، أنّ النفس مركّبٌ ومكُونٌ غريب يأتلف عبر مجوعة من الغرائز، والرغبات والأفكار والأختلاجات تتباين سلباً وإيجاباً وتتنافر شراً وخيراً وطالما كان منهج الإصلاح توجيهاً وتهذيباً لهذه النفس.

ولم يقف الإمام بفلسفته تلك عند حدود المنهج بل كانت له رؤى وفلسفات أكثرُ عمقاً وأكثر تجاوباً مع الواقع، أكثر قُرباً من الحقيقة، كانت له فلسفة ورؤية تستوضح الأمور والحقائق المكنونة، التي يستعصي النظر إليها، وأستبيانها، ومشاهدة مكنوناتها وجواهرها إلاّ عبر فكرٍ كفكر (علي بن إبي طالب)، حيثُ واءَم بفكرته تلكُ بين النفس كجانب نظري يُصدرُ التوجيه بل هي عصبُ الإيعاز، عصبُ الحياة الذي يغذّي السلوك بروحيته وبأتجاهاته الفاضلة أو عكسها. ومن هنا كنّا قد أوضحنا سابقاً أنّ النفس هي جانب ذاتي باطني خفي، وهي روح وحياة السلوك) إلاّ أنّنا سنحاول أن نتعمق أكثر في هذا البحث، ونستجلي غوامضه، عبر التعمُّق أكثر في رحاب فكر الإمام ونصوصه وخطبه حيثُ وقف عند النفس مؤكداً علاقاتها النظرية والعملية بالسلوك والأخلاق. وكانت له قدرة هائلة وطاقة إبداعية إعجازية في الربط بين هذين الجانبين (النفس والسلوك) لم نستطع أستيضاحها في أي مصدرٍ أو مرجع وتكاد تخلو كتب الفكر القديم عن هذا النوع من التنظير الذي لم يرقَ إليه أيُ باحثٍ قديم، أو مستبصر جديد.

يقف الإمام عند هذه النفس مستذكراً قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلّم):

((إنّ الجنة حفت بالمكاره وإن النار حُفت بالشهوات)) [1] مستنبطاً (عليه السلام): أنّ ((ما من طاعة الله شيءٌ إلاّ يأتي في كرهٍ، وما من معصيةِ الله شيءٌ إلاّ يأتي في شهوةٍ)) [2].

ومن هنا كانت النفس، موضع إلافتتان الدُنيوي، حيثُ الوجود والحياة الدنيا، المليئة بالزخارف، والمبهرجة بأنواع الشهوات، والمشحونةِ بالفتنةِ والجمال الزائف الخدّاع، وطالما أنقادت نفوس الناس لهذا البهرج الفتّان والجمال الزائف يقف الإمامُ ناصحاً واعظاً:

((أنتفعوا ببيان الله وأتعظوا بمواعظ الله، وأقبلوا نصيحة الله، فإن الله قد أعذر إليكم بالجلّية، وأتخذ عليكم الحُجّةَ، وبين لكم محابه من الأعمال ومكارههُ منها لتتبعوا هذه وتتجنبوا هذه)) [3].

وطالما شدّد الإمام على منطق الرجوع للهِ في كُلّ المواطن والمواقف وكان هذا هو الحل الأمثل والطريقة الأشمل في الخروج من المآزق، وإنفراج المشاكل، وإنّ الأيمان واليقين بالله بابٌ للحلول، وملاذ للهاربين، ومرتع للخائفين إلاّ إنّ نفوس الخلق نزّاعة إلى المعاصي، وعليه ((فإنّ هذه النفس أبعد شيءٍ منزعاً وإنّها لا تزالُ تنزعُ إلى معصيتهِ في هوى، وأعلموا عباد الله إنّ المؤمن لا يصبحُ ولا يُمسي إلاّ ونفسهُ ظنونٌ عندُ فلا يزالُ زارياً عليها ومُستزيداً لها)) [4].

ومن هنا كانت أدواء الخلق وأمراضهم الباطنية (الكفر، والغنيُ والنفاق، والظلال، والطمع، والحسد، والرياء، والكذب، والعُجُب، والفخر، والظلم والغيبة، و... إلخ). وهذه الأمراض التي أخذت مأخذها من النفوس وضيّعت أصحابها وكان بها هلاكهم وهلاك المجتمع الذي صحبهم وساعدهم في مساعيهم

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٧٦.

(٢) م. ن، ج٢، ص ٢٧٦.

(٣) م. ن، ج٢، ص ٢٧٦.

(٤) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٧٧.

الخبيثة وقد ((بسط الإمام للإنسان معرفة ذاتهِ ومعرفةِ نفسهِ كما بسط لهُ معرفةِ جسمه)) [1].

وتوضحت تلك القدرة الإستغراقية وذلك الـ ((تعُمق في معرفة الكوامن النفسية من المظاهر الحسيّة للإنسان فأجلى معميات خواطرهِ بعيون مظاهرهِ متعمقاً في أستنتاجاتهِ متسلطاً على بحثهِ)) [2].

ولنقف الآن عند هذه النظرية والتي هي من روائع رؤاه ونظرياتهِ النفسية التي يستجلي فيها نظريته السلوكية من واقع النفس وقوّتها الإيمانية اليقينية بالله. ونلاحظ ذلك التلازم، وتلك القوة الإرتباطيّة بين الأثنين عبر قول الرسول (ص) حيثُ يقول: ((لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتّى يستقيمَ قلبُهُ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتّى يستقيمَ لسانُهُ)) [3].

فالأستقامة النفسية والقوة الإيمانية اليقينية بالله، هي مظهر من مظاهر السلوك مثلما يكونُ السلوك مظهراً لهذه الإستقامة والقوّة الإيمانية. أذن هناكَ علاقة تناسبية طردية بين النفس والسلوك كلاهما متأثرٌ بالآخر كلاهما مظهرٌ للآخر كلاهما متلازمان كقوّة فعل وردِ فعلٍ ومن هنا وجب العناية بالنفس وتهذيبها، وبالسلوك المستقيم، وتنميتهِ عن طريق الإكتساب الصحيّ، الإكتساب المنهجي المؤطر بأطُر الأخلاق والأفعال والأقوال المحكومة بمعاني ومعالم الإسلام والعقيدة.

يقول الإمام ((وقد قلتم ربّنا الله)) فأستقيموا على كتابهِ وعلى منهاج أمرهِ، وعلى الطريقة الصّالحة من عبادتهِ، ثمّ لا تمرقوا منها ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا

---

(١) ملامح من عبقرية الإمام، مهدي محبوبة، ص ٣٢.

(٢) م. ن، ص ٣٢.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٧٩.

عنها، فإنّ أهل المروق منقطعٌ بهم عند اللهِ يوم القيامة، ثم إياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها)) [1].

هنا توجيه وأمر من الإمام للخلق، الذين أدّعوا الإيمان بالله، أن ينتهجوا طريقة الصالحين والمؤمنين من عبادِ الله، وقد قالوا (ربنا الله)، فليحترموا الله في سلوكهم المنظور عبر (الأفعال أو الأقوال)، وأن لا يمرقوا أو يبتدعوا من عند أنفسهم ولا يخرجوا عن الجادّة الصواب، والمنهج الحقّ والصراط المستقيم عبر الإقتداء بالأخلاق النبوية وبالخصال الإمامية وجعل الأخلاق واحدة والسلوك واحد، ينتسب إلى الإستقامة والصلابة، لا ينحدر عن الحق ولا ينزل إلى الباطل، ونهي النفس والقلب عن النفاق والتلوّن في الأخلاق وغيرها من صفات الشقاق والغيبة والحسدوالرياء والعجب والبغض والكذب التي تظهر في رؤية سلوكية معينة وتكون البواطن مختلفة ومتباينة ومنقلبة من السلوك وهذا هو التلوّن في الأخلاق وتصريفها، وهو يقول: ((الغيبةُ جُهدُ العاجزِ))[2].

ثمّ ينصح في إختزال اللسان وعدم التلوّن به: ((وأجعلوا اللسان واحداً وليخزن الرجل لسانه فإنّض هذا اللسانَ جموحٌ بصاحبه، والله ما أرى عبداً يَتقي تقوى تنفعهُ حتى يختزن لسانه، لأنّ المؤمن إذا أرادَ أنْ يتكلّم بكلام تدبرهُ في نفسه فإن كان خيراً أبداهُ، وإن كان شراً واراهُ، وإنّ المنافقَ يتكلّمُ بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا لهُ وماذا عليه))[3].

أذن ليكن لسانُ المؤمن واحداً بلا تلوّن وتلوين بعيداً عن المنافقات والبغي والمشاققات والرياء والعجب والحسد والكذب)، وكُلُّ الصفات التي أحتيج فيها للسان لذلك كانت هذه الصفات مذمومة لأنّ (الظاهر) فيها (السلوك) لا يلائم (الباطن) منها (الروح والنفس)، وهذه الصفات مذمومة قبّحها الإسلام، وعدّها

---

(١) م. ن، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص ٥٩٤.

(٣) م. ن، ج٢، ص ٢٧٩.

من كبائر الذنوب، لما لها من آثار إجتماعية وخيمة،وقد تكون سبباً في هلاك المجتمع وكما يقول الإمامُ فإنّ هذا اللسان جمحٌ بصاحبهِ فقد يؤدي هذا اللسان إذا ما أفرط في الحديث إلى هلاكهِ فضلاً عن المشاكل الإجتماعية التي تسبّبها قبل هذه الإنحرافات الكلامية حيث تكون سبباً رئيساً في إحياء الضغائن والتنافر والتباغض بين أبناء المجتمع الواحد أو القرية الواحدة أو البيت الواحد وكثيراً من المشاكل بسبب الغيبة أو الرياء أو النميمة أو الحسد. ولهذا يقولُ الإمامُ ((لسان المؤمن من وراءِ قلبهِ، وإنّ قلب المنافق من وراء لِسانه)) [1].

ولهذا ترى الإمام ((يعطي العاقل صفته اللازمة حيث لا ينطق إلا بعد تدقيق ورويّة، إذ تنبع الفكرة من القلب أي العقل ثم تأتي عن طريق اللسان، على نقيض الأحمق الجاهل يلقي بكلامهِ جُزافاً بلا تحقيق أو إدراك)) [2].

فضلاً عن هذا فلهذه الأمراض النفسية آثارٌ إجتماعية تتمثّل في تخلخل وحدة الصف الإجتماعي والتفريق الناتج عن مثل هذه العادات والسلوكيات المرفوضة دينياً وإخلاقياً، يقولُ الإمام في معرض هذه الدلالة:

((فإيّاكمْ والتلوّن في دين الله، فإنّ جماعةً فيما تكرهون من الحقّ، خيرٌ من فُرقةٍ فيما تُحبّون من الباطل، وإنّ اللهِ سُبحانهُ لم يعطِ أحداً بفُرقةٍ خيراً ممّن مضى، ولا ممّن بقيَ)) [3].

أي أن ((من يحافظ على نظام الألفة والإجتماع، وإن ثُقل عليه أداء بعض حقوق الجماعة وشقّ عليهِ ما تكلفّه به من الحق، فذلك الجدير بالسعادة دون من يسعى للشقاق وهدم نظام الجماعة، وأن نالَ بذلك حظاً باطلا وشهوة وقتيّة فقد يكون في حظه الوقتي شقاؤه الأبدي، ومتى كانت الفرقة، عمّ الشقاق وأحاطت

---

(١) م. ن، ج٢، ص ٢٧٦.

(٢) ملامح من عبقرية الإمام، مهدي محبوبة، ص ٣٢.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٨١.

العداوات وأصبح كُلّ واحدٍ عرضةً لشرور سواه فمحيت الراحة وفسدت حالُ المعيشة)) [1].

وتقودُنا هذه الرؤية إلى رؤية أخرى تمثّل إنسجاماً إخلاقياً، يناقض الشقاق، وبث الفرقة، تلك الحالة حين يقولُ (عليه السلام):

((يا أيُها الناسُ: طوبى لمن شغلهُ عيبهُ عن عيوبِ النّاس، وطوبى لمن لزم بيتهُ، وأكل قوتهُ، وأشتغل بطاعةِ ربهِ، وبكى على خطيئته، فكان من نفسهِ في شغلٍ، والناسُ منه في راحةٍ)) [2]، وكان أحرى بمن يشغلُ نفسُه في أمور النّاس مثيراً الفتن، ومعمّاً الفساد، عبر إذاعةِ الغيبة، أو النميمةَ أو الكذب... إلخ، أن ينشغل بنفسهِ وبأمورهِ، ويوصل البحث عن عيوبهِ لا عن عيوب الآخرين.

وقد كانت للإمام (عليه السلام) وقفاتٌ يصفُ فيها النفاق والمنافقين، ولعلّ أبرز ما جاء على لسانه، في معرض النفاق خطبتِهِ العصماء، التي وقفها (عليه السلام) على وصف المنافقين فأجاد وأبدع، ولنقف الآن عند بعض نصوصها:

((أوصيكم عباد الله - بتقوى الله - وأحذركم أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون والزالون المزلون، يتلونون ألواناً ويفتنون أفتاناً ويعمدُونكم بكل عمادٍ ويرصدونكم بكلّ مرصادٍ، قلوبُهم دويّة، وصفاحهم نقيّةٌ يمشون الخفاء، ويدبّون الضّراء، وصفهم دواءٌ وقولهم شفاءٌ وفعلهُم الدّاء العياءُ)) [3].

أذن فالنفاق يكادُ يكونُ من أفضع الآفات النفسيّة وأكرهها عند المجتمعات الإنسانية، ولطالما كانت صفة النفاق، وبما تجسّده من تباين بين بواطن الذات والأقوال، أو بين دواخل النفس والأفعال وهي صفةٌ تنمُ عن ضعفٍ نفسي، ونقصٍ إجتماعي يستشعره من يلجأ إلى هذه السلوكية تعويضاً للنقص الداخلي أو المظهري، وغالباً ما يلجأ المنافق إلى تضليل المجتمع والمحيط عبر تشتيت ألباب

---

(١) هامش شرح محمد عبده لنهج البلاغة، ج٢، ص ٢٨١.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٨١.

(٣) م. ن، ج٢، ص ٣٣٥.

الناس وخلط الأمور عليهم فيظهرون شيئاً من السلوك الحسن ويضمرون أشياء من البغض والحسد والكراهية للناس والمحيط ممّن يتفوّقون عليهم علمياً أو روحياً أو نفسياً أو أخلاقياً أو أقتصادياً أو أجتماعياً. وهو تعبير واضح عن ضعف إيماني وإنحراف فكري تكون نتيجته محاولة إبتزاز الأمن والطمأنينة في المجتمع عبر التضليل والعبث غير المشروع بالأعراف والقيم والمبادئ الدينية والايمانية فتراهم يعمدون إلى كل قلب مؤمن وإلى كل فكر مبدع وإلى كل قول صحيح وإلى كل حقّ بالتمويه، والتضليل وحجب الحقائق، وإبراز المساوئ، والتعتيم على المحاسن وهم يبالغون في السؤال كاشفين عن عيوب وفضائح الآخرين، مستهترين بمشاعر الناس وأسرارهم، أقوالهم شبهات وأوصافهم تمويه يهونون الصعب ويعسرّون اليسير، وهم تبعيّة الشيطان وأزلامُهُ ممّن تجنّدوا في خدمته وتحزّبوا في حزبه، يقول الإمامُ (عليه السلام)، في معرض هذه المعاني: ((حَسَدَةُ الرّخاء ومؤكدوا البلاءِ ومقنطو الرّجاء لهم بكلّ طريقٍ صريعٌ وإلى كلّ قلبٍ شفيعٌ ولكل شجوٍ دموعٌ، يتقارضونَ الثناء، ويتراقبون الجزاء، إن سألوا الحفوا، وإن عدلوا كشفوا وإن حكموا أسرفوا قد أعدّوا لكُلّ حقّ باطلاً ولكلّ قائم مائلاً ولكل حيّ قاتلاً، ولكُلّ بابٍ مفتاحاً، ولكُلّ ليلٍ مصباحاً، يتوصّلونَ إلى الطمع باليأسِ ليقيموا بِهِ أسواقهم وينفقوا به أعلاقهم، يقولونَ فيشبّهُونَ ويصفونَ فيموهون، قد هوّنوا الطريقَ وأضلعوا المضيقَ، فهم لُمّةُ الشيطانِ وَحمّةُ النّيرانِ)) [1].

ولعلّ مِنْ أبشع المظاهر النفسيّة والأمراض الباطنيّة، التي تعمّ أذاهَا الفرد، والمجتمع، هي ظاهرة (الظُلم): فالظلم مرضٌ نفسيّ وإجتماعي خطير، وهو رغبةٌ داخلية باطنيّة، تحول أحياناً إلى رغبةٍ جامحةٍ ظاهرةٍ في السلوك السّادي الذي يميل ويستلذّ عبرَ إيذاء الآخرين وأستلاب الحقوق، وإنتهاك الحُرمة الإنسانية والإجتماعية لهم.

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٩٤، ص ٣٣٥.

يقف الإمام (عليه السلام) عندَ الظّلم مصنّضفاً ومُعرّفاً ذلك حين يقول: ((ألا وإنّ الظُّلم ثلاثةٌ: فظُلم لا يُغفَر، وظُلمٌ لا يتركُ وظلمٌ مغفورٌ لا يُطلبُ))[1]. و ((أمّا الظُّلمُ الذي يغفرُ فظُلمُ العَبدِ نفسَهُ عندَ بعضِ الهنات وأمّا الظُّلمُ الذي لا يُتركُ فظُلمُ العبادِ بعضهم بعضاً))[2].

إنّ الظّلم في أشكاله الثلاثة، هو رغبةٌ خطيرة، ومرض نفسي خبيث، يكادُ يكونُ فيه هلاك الفرد والمجتمع، لأنّ الظُّلم سواء كان فردياً على مستوى الذات (أي ظلم الإنسان لنفسه)، أو كان إجتماعياً (في ظلم الآخرين)، هو حالة مرفوضة دينياً، حالة قبّحتها كُلُّ الأديان السماوية، والطوائف العالمية، ناهيك عن الإسلام الذي هو صفوة الأديان وأعزّها وأكرمها، ومن هنا كان لا بُد من تعميم شيء أو مبدأ أو ظاهرة مناقضة للظلم، الذي كان سائداً في دساتير الظالمين وإلى يومنا هذا، ألا وهو (العدل)، لأنّ ((شرف صفة العدل خارج عن حيّز الوصف وحدّه، ويكفيك في ذلك أن ترى رجال العدل قد ضمنّهم التراب، لكن ذكرهم يملأ الآفاق، وبهم تُضربُ الأمثال ويتحسّر الناسُ لدولهم بينما يمُر بعدهم آلاف الحكّام الذين تطوى صفحتُهم ويمحى ذكرهم بسبب ظلمهم لأنّ الناس ينتظرون ساعةَ الخلاص منهم)) [3]،و لأنّ ((ظلمُ الضّعيفِ أفحشُ الظُّلم)) [4]، ولذلك كان عقابُ الظالم عسيراً ((القصاص هُناك شديدٌ، ليس هو جُرحاً بالمدى، ولا ضرباً بالسّياط ولكنّهُ ما يُستصغرُ ذلك معهُ)) [5]. ولرّبما يكونُ في هذا العقاب والقصاص الأبدي تحقيقاً لأهمّ مبادئ العدالة الإلهية، وما كان الله ليترك حقوق المظلومين من بني البشر، تذهبُ سُدىً لأنّ الله لم يخلق هذا الخلق عبثاً فـ ((قد

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٧٦، ص ٢٨٠.

(٢) م. ن، ج٢، خطبة ١٧٦، ص ٢٨٠.

(٣) خمسون درساً في الإخلاق، الشيخ عبّاس القمي، ص ٢٤.

(٤) نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٣٤.

(٥) نهج البلاغة، ج٢، ص ٢٨٠.

كرّمَ الله الإنسان فأهانه الظالمون: وأكثر من ظُلمهِ حكّام الجور الذين تسلّطوا على الناس بالقهر والغلبة، وصادروا حقّهم في إختيار حاكمهم أو أختيار الله لهم، ثم صادروا حرّياتهم ومقدّراتهُم، وساموهم سوء العذاب)) [1].

يقول الإمامُ محذّراً من ظلم العباد والنفس، موضّحاً عليه السلام، أنّ ظلم النفس غالباً ما يكون في (الفخر والتكبُّر)،ولنقف الآن عند هذا النص للإمام في ذمّ صفة الفخر، والتكبُّر وفي تخويف الناس من سوء عاقبتِهما:

((فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامةِ الظُّلم، وسوءِ عاقبة الكبر، فإنّها مصيدةُ إبليس العظمى، ومكيدتَهُ الكبرى التي تُساور قُلُوبَ الرِّجالِ مُساورةَ السُّمومِ القاتلةِ فما تكدي أبداً ولا تشوي أحداً لا عالماً لعلمهِ ولا مُقلاً في طمرهِ)) [2]، كما هو واضحٌ من خلال هذا النص أن التكبُّر وما ينتجُ عنهُ من فخر وأعجاب بالنفس، وغرور هو فلسفة الناقصين ومن يستشعرون النقص في دواخلهم وتتغلّب عليهم أحاسيس الحقد والضغينة ويتولّد عنه حالة التكبّر والترفُّع تعويضاً عن حالة النقص الفكري أو العاطفي أو الجسمي الذي يستشعرُ به المصابون بهذا النوع من الداء، الذي يظهر في هذا السلوك السادي والغرور والترفُّع، متناسين أنّ هذه الصفة التي ذمّها الإسلام هي من صفاتِ إبليس التي كانت سبباً في ضآلة شأنه عند الله بعد أن كان عابداً لله. يقول الإمامُ: ((ألا ترون كيف صغّرهُ الله بتكبُّرهِ ووضعهُ بترفُّعهِ فجعلهُ في الدنيا مدحوراً وأعد لهُ في الآخرةِ سعيراً)) [3]، ثم يقولُ (عليه السلام) : ((فأعتبروا بما كان من فعلِ الله بإبليس إذ أحبط عملهُ الطويل وجهدهُ الجهيد وكان قد عبدَ الله ستّةَ آلافِ سنةٍ لا يدرى أمن

---

(١) مقدمة كتاب حقوق الإنسان عند أهل البيت، علي الكوراني.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٢١.

(٣) م. ن، ج٢، ص ٣١٣.

سني الدُنيا أم سني الآخرة، عن كبر ساعةٍ واحدةٍ، فمن ذا بعد إبليس يسلمُ على اللهِ بمثلِ معصيتهِ)) [1].

وفضلاً عمّا ذكرنا من النتائج الوخيمة لصفات التكبُر والغرور، فإنّ لها آثاراً إجتماعية خطيرة، تجسّد عبرَ، حصول تكتلات إجتماعية طبقية، ذلك حين تتكبر بعض المجاميع الإجتماعية على مجاميع أخرى. مما يُمهّد لحصول ظاهرة الطبقية والتمايز الإجتماعي، حيث تتميّز بعض الطبقات كالأثرياء والمتنفذين، على الطبقات الفقيرة والضعيفة إجتماعياً. وهذا نوعٌ من الإستهتار بمبادئ الإنسانية التي كانت من أهم مبادئ الإسلام، ولأنّ الرؤية الإسلامية للحياة، لا تبنى على أساس الأموال أو المناصب أو الجاه أو السلطان بل إنّ المقياس عند الله، هو التقوى، وما كان الله ليقف عند حدود هذا التكبُر ويترك الناس يعمهون في الكبر والخيلاء ولنقف عند هذا النص للإمام عليه، نرى فيه تَدخُل العناية الإلهية، والإدارة الربّانية في سبيل إنتزاع صفات الغرور والعُجب والتكبُر عبر الإبتلاء والإختبار بأنواع الإبتلاءات والإختبارات التي قصد بها الله إنتزاع صفات القسوة والإغترار من قلوب البعض، حيثُ يقولُ (عليه السلام) في معرضِ هذه الدلالة: ((ولكنّ الله يختبُر عبادهُ بأنواعِ الشدائدِ، ويتعبّدُهُم بأنواعِ المجاهدِ ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً للتكبُر من قُلوبهم وإسكاناً للتّذلل في نفوسهم وليجعل ذلك أبواباً فُتحاً إلى فضلهِ، وأسباباً ذُللاً لعفوهِ)) [2].

ومن هنا فقد كان لله أن يبتلي عباده المتكبرّين ورعيّتهِ المترفعين، عن احسابهم، وأنسابهم بأنواع الإبتلاء، وأشكال الإختبار، ليكون هذا باعثاً على إذلال النفوس، ووازعاً لتهذيب الأرواح عن مثل هذه الضغائن المستهجنة عند الله وخلقه. وقد كان الرسول، وأهل بيت النبوة، قدوةً ومثلاً أعلى، في التواضع،

---

(١) م. ن، ج٢، ص ٣١٤.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص ٣٢١.

والتجاوب مع الناس على إختلافِ طبقاتهم ومستوياتهم الماديّه أو الإجتماعية أو الشخصية، وقد ((رُئيَ عليهِ إزارٌ خلقٌ مرقوعٌ، فقيل لهُ في ذلك فقال: - يخشَعُ له القلبُ وتذلُ بهِ النفسُ، ويقتدي بهِ المؤمنون)) [1]. وتقودُنا هذه الرؤية في التكبُر إلى رؤية أخرى قد تكونُ من آثارها ونتائجها إيضاً، ألا وهي ظاهرة (العُجب)، والعُجبُ هو مظهر من مظاهر الخُبث النفسي، ونوع من ((عبادة النفس والعُجب بها، فإنّه ذنبٌ بلدرتُهُ الكفر، وأرضُهُ النفاق، وماؤه الفساد وأغصانه الجهل، وأوراقه الضلالة وثمرته اللعنه والخلد في الجحيم)) [2]. والعُجبُ هو صفةٌ من صفاتِ إبليس ونفثة من نفثاتهِ، التي ينزغها في نفوس ذوي الأنفس الضعيفة. وهو أحدُ وساوس الشيطان التي يوسوس بها في قلوب العُبّاد، فيحيلُ عباداتهم وأعمالهم الحسنى إلى إفتتان وإغترار بهذه العبادة فيُخرجُها عن معناها، وروحها ويحليها إلى أفتتان بالنفس، وإعجاب مُهلك بما قدمّت. ومن هذه الظاهرة ألا وهي الإفتتان بالنفس، يستشري حبّ الإطراء والمديح والثناء ويكون في هذا أستشعار الغرور والتعالي والتباهي على الآخرين. يقولُ الإمام في ذمّ الإعجاب، على إعتبارهِ آفةً مناقضةً للعقل والصواب.

((وأعلم أنّ الإعجاب ضدّ الصّواب وآفةُ الألبابِ)) [3]. ولا يفوتُنا ونحنُ في صدد الحديث عن مظاهر الخُبث النفسي وتوجُهاتهِ السلوكية المنحرفة (القولية والفعلية) أنْ نُسلّط الضوء على صفةٍ خبيثةٍ أخرى ألا وهي (الطمع) فالطمع هو أحد الأمراض الباطنية الخبيثة، التي تعتري بعض المرضى، وللإمام عليه السلام فلسفة مهمة وحديثة جداً في وصف الطمع وتنظيره كمرض نفسي ينالُ من صاحبه. إذا لم يحاول التغلُب عليه، وقد صوّر الإمام حالة الطمع تصويراً دقيقاً وعميقاً، في صورةٍ حقيقية، تتجسّد بها ملامح هذا النزغ النفسي في صورةٍ لا

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص٥٢٤.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٢٩.

(٣) نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٢٩.

يلبغها واصف ولا يتجاوزها مفكّر. يقولُ الإمام في تضاعيف الوصية، لولده الحسن (عليه السلام): ((وأعلم يقيناً إنكَ لن تبلغ أملك، ولن تعدُو أجلكَ وإنّك في سبيل من كان قبلك، فخفض في الطلب وأجمل في المكتسب، فإنّهُ ربّ طلبٍ قد جرّ إلى حربٍ فليس كُلّ طالبٍ بمرزوق ولا كُلّ مُجملٍ بمحرُوم، وأكرم نفسكَ عن كُلّ دنيّةٍ، وإن ساقتكَ إلى الرّغائب، فإنّكَ لن تعتاضَ بما تبذلُ من نفسكَ عوضاً، ولا تكن عبد غيرك، وقد جعلكَ اللهُ حرّاً، وما خيرُ خيرٍ لا ينالُ إلاّ بشرٍ، ويُسرٍ لا يُنالُ إلاّ بعُسرٍ)) [1]. ومن هنا فأنّ الطمع هو ((توأم الحرص، وضدّهما الإستغناء عن الناس)) [2]. لأنّ الطمع يؤدي بصاحبهِ إلى النظر عمّا في أيدي الناس، من أموال وجاه وسلطان، محاولاً الوصول إلى غاياتهِ، بكُلّ الوسائل، والطرائق المتاحة، مع أنّ مثل هذه المحاولات والوسائل لن تبلغ به أكثر ممّا قسم الله له من الرزق، فكلّ رزق مُسجّل عند الله، وكلّ ما يُستحصل من أموال، أو سلطان هو بتقدير وبتخطيط إلهي فلا يُبالغُ الطالبُ بطلباتهِ، ولا يستعجل ما قسُم له، وقد يصلُ الأمر ببعضِ الناس إلى التنازل، وتهوين النفس وإذلالها في سبيل رغبةٍ جامحةٍ، أو رفعةٍ زائلةٍ، وأنّ هوان النفس لهو الخسران الكبير والعوض السقيم، وقد تكون في هذه الرغبات عبودية للبشر عبر استرحامهم وإستعطافهم مما يؤدي إلى إذلال النفس وهلاك الذات وأستبدال الحرية بعبودية الناس، ومن هنا فإنّ ((رغائب المال إنّما تُطلبُ لصون النفس عن الابتذال فلو بذل باذل نفسه لتحصيل المال فقد ضيّع ما هو المقصود من المال فكان جمع المال عبثاً ولا عوض لما ضيّع)) [3]، وبالتالي فإنّ إحياء هذه الصفة والتمادي فيها قد يؤدي إلى هلاك الفرد، وبالتالي هلاك المجتمع والإنحراف به. وكما يقولُ الإمامُ (عليه السلام): ((وإيّاك أن تُوجفَ بك مطايا الطمع فتُوردُكَ

---

(١) م. ن، ج٣، ص ٤٣٢ -٤٣٣.

(٢) خمسون درساً في الإخلاق، ص ١٧.

(٣) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٣٣.

مناهل الهلكةِ وإن أستطعت أن لا يكُون بينكَ وبين الله ذو نعمةٍ فأفعل، فإنّكَ مُدركٌ قسمك وآخذٌ سهمك وإنّ اليسير من الله سبحانهُ اعظم وأكرمُ من الكثير من خلقه وإن كان كُلٌ منهُ)) [1]. إذن فهو الهلاك الروحي والإذلال الباطني، الذي يستشعرُ به من يطلب الكثير بلا شبع، مضحياً في سبيل هذه الأطماع بكبريائهِ وبشخصيتهِ الإجتماعية، يقول الإمام في تأكيد وتوثيق هذه الفكرة: ((أزرى بنفسهِ من أستشعر الطّمع ورضي بالذُلّ من كشف عن ضُره، وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانهُ)) [2].

وأخيراً يوصي الإمام بأن نأخذ من الدنيا ما أتانا وأن نتولّى عمّا لم يأت وأن لا نتمادى في الطلب بل نطلب وفي حدود الحق وأن لا نتجاوزه هذه الدلالات تجدها ماثلة في قولهِ (عليه السلام): ((خُذ من الدُنيا ما أتاكَ وتولّ عمّا تولّى عنك، فإن أنت لم تفعل فأجمل في الطلبِ)) [3].

ومن السلوكيات والصفات الذميمة التي أستهجنها الإمام هي (البخل)، في قولهِ ((البخلُ عَارٌ)) [4]، و(الجُبن) في قوله ((الجُبنُ منقصةٌ)) [5]، و (التملّق والحسد) في قوله ((الثّناء بأكثر من الإستحقاق ملقٌ والتّقصيرُ عن الإستحقاق عيٌ أو حسدٌ)) [6].

ومن السلوكيات اللامحبّبة عند الناس هي (الإفراطُ في المزاح) وهو من الصفات والأعراض التي تأخذ بوزن ويعقل من يتعاطاها بإستمرار ويتمادى بها وبالتالي تُفقدهُ هيبتهِ الإجتماعية، وشخصيّتهِ المتوازنة بينهم، يقولُ الإمام (عليه

---

(١) هامش الاول من نهج البلاغة بشرح محمد عبده، ص ٤٣٣.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص ٥٠٧.

(٣) م. ن، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص ٥٨٤.

(٤) نهج البلاغة، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص ٥٠٧.

(٥) م. ن، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص ٥٠٧.

(٦) م. ن، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص ٥٧٤.

السلام)، في ذمِ هذه السلوكية، والحثُ على عدم الإعتياد عليها:- ((ما مزحَ أمرؤٌ مزحةً إلاّ مجّ من عقلهِ مجّةً)) [1].

وأخيراً لنُسجل هذه الدعوة المفتوحة للإمام عليه السلام، وهو يدعو الناس والمجتمعات الإنسانية، إلى نبذ صفات التعصُّب والإغترار وإن كان لا بُد من التعصُّب فليتعصّب الناس إلى مكارم الأخلاق ومحامدِ الفعال ومحاسن الأمور. تلك الدعوة تتّضحُ معالمها في هذا النص:

((فإن كان لابُدّ من العصبيةِ فليكن تغصّبُكم لمكارم الخصال ومحامد الأفعال ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداءُ والنُجداءُ من بيُوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق الرّغيبة والأحلام العظيمة والأخطار الجليلةِ والآثار المحمودة فتعصّبُوا لخلال الحمد من الحفظ للجوار والوفاء بالذّمام والطاعةِ للبرّ والمعصيةِ للكبر والأخذ بالفضل والكفّ عن البغي والإعظام للقتل والإنصاف للخلق والكظم للغيظ وأجتناب الفساد في الأرضِ)) [2].

---

(١) م. ن، ج٤، باب الحكم والأمثال، ص ٥٩٣.

(٢) نهج البلاغة، ج٢، ص٣٢٢ - ٣٢٣.

الفصل الثالث:
رسالة الإصلاح السياسي
بين الواقع النظري والواقع العملي

المبحث الأول: نظرية الإصلاح السياسي

- فلسفة الإصلاح السياسي من واقع الإسلام
- الإمام ومنهج الإصلاح السياسي النظري المبدئي
- صفات القائد وشخصيته الاجتماعية
- السياسة الحقوقية بين الراعي والرعية

المبحث الثاني: النظرية السياسية في حقوق الرعية وأبعادها العملية والتطبيقية

- المستوى الأول:- منهج الإصلاح السياسي النوعي

١- سياسة العدل والأنصاف والمساواة

٢- سياسة الحوار المشترك بين الراعي والرعية

٣- سياسة التسامح والتعاطف والتراحم بين الراعي والرعية

- المستوى الثاني:- منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة

١- الإصلاح الروحي (المبدئي) للهيئة الحاكمة

٢- الإصلاح النفسي للهيئة الحاكمة

٣- الإصلاح الفكري للهيئة الحاكمة

٤- الإصلاح السلوكي للهيئة الحاكمة

المبحث الأول: نظرية الإصلاح السياسي:

فلسفة الإصلاح السياسي من واقع الإسلام:

الإصلاح السياسي من واقع الإسلام: هو في إيجاد رؤية سياسية نظرية تشكل بمجملها، وتصنع ملامح خطة إصلاحية جديدة، تستبدل في ضوئها الآراء السياسية، والنظريات التي حملها الساسة بعد وفاة الرسول، وقادوا بها المجتمع الإسلامي، فانحرفوا عن مبادئ السياسة الإسلامية، التي أرساها الرسول، وأرادها الله، كنظام تنتظم به شؤون الأمة. ولأن السياسة هي ((تنظيم أمور دنيا الناس على أحسن وأرفه وجه)) [1]، وهذا التعريف تعريف عام شامل، ويمثل الرؤية الإلهية للسياسة، التي ينبغي أن تقود المجتمع، والناس، وبما يكفل راحتهم، ونظام حياتهم، وعلى كافة المستويات.

قال تعالى في محكم كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم((وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)) صدق الله العلي العظيم[2].

وإذن فالسياسة هي تنظيم حياة المجتمع، عبر إيجاد أنماط تنظيمية هيكلية يكون قوامها قائماً على أسس دينية إسلامية مرتبطة بأنظمة وأطروحة إلهية، وبرؤية إلهية، وبأهداف وغايات إلهية.

وبهذا لابد من صلة ارتباط، وتلاحم بين العملية السياسية وواقع النظرية الإلهية، التي يكون العدل والإنصاف، أهمُ خصائصها ومبادئها المعتمدة في تصوير العلاقات بين الراعي والرعية. وأن إيجاد هذا التلاحم والتواصل بين السياسة كمنطق تطبيقي عملي ورؤيا تنظيمية للمجتمع وبين الإسلام كنظرية ومنهج، هو ما يمثل منهج العدالة السياسية،التي أرادها الله حاكمة للبشر، ومنظمة لاتجاهات حياتهم المختلفة.

---

(١) السياسة من واقع الإسلام، السيد صادق الشيرازي، ص١١.

(٢) سورة الأعراف / ١٥٧.

وتوالت الأنظمة السياسية الحاكمة على البشر، منها ما كان وضعيا ومنها ما كان إلهياً. وعلى الرغم من توالي هذه الأنظمة، وتوازيها أحياناً، فهي لم تحقق ولم تجسد المنهج الإلهي العادل في حكم قيادة المجتمعات الإنسانية.

حيث لم تستوفِ هذه الأنظمة، مقومات النجاح ومؤهلات العمل السياسي الحقيقي، وإن وجدت فيها بعض عوامل النجاح والاستحقاق ألا أنها كانت ناقصة، كانت بحاجة إلى أطروحة تكاملية كانت بحاجة إلى رؤية إلهية شمولية، رؤية اعتدالية، رؤية فيها المساواة والإنصاف والعدالة الاجتماعية،

رؤية تمثل (أيديولوجية) عمل متكاملة، مستوفية الأجزاء، تواكب كل التطلعات، تواكب كل الاتجاهات، والمستويات الاجتماعية، تنصهر مع كل الاختلافات والتباينات الطبقية، لا تفرق بين غني وفقير، أو بين عالم وجاهل، أو بين حاكم ومحكوم.

تتعامل مع القوانين ومع السنن، وبما يضمن أمن ورفاه واستقرار المجتمعات، ويخضع لهذه القوانين أبناء المجتمع الواحد، بلا تمييز، وبلا تفريق.

وجاءت الأطروحة الإسلامية (خاتمة الرسالات السماوية)، بما تحمل من عقائد وتشريعات وسنن، كتجسيد وتمثيل حي وواقعي وصحيح، للأطروحة الإلهية العادلة في التواصل مع البشر، جاء الإسلام حاملاً التغيير، حاملاً الثورة والانقلاب على كل الظواهر السلبية، والأمور المختلفة، التي كانت سائدة في مجتمع ما قبل الإسلام. عصر التخلف، والجهل، والعصبية، حيث كان البقاء للأقوى ولا حاكم على المجتمع إلا النفود والمادة.

وحصل التغيير، وجاءت عدالة الرسول، كنموذج ناطق بلسان العدالة الإلهية، حكمت المجتمع القبلي، وقادته نحو التحضر، نحو التقدم، نحو النظام، بقيادة الحكيم العبقري، والسياسي المحنك، منقذ البشر والوجود، الإنسان الأعظم محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وكان أن بث الرسول، بحكمته وأخلاقه وشخصيته الفريدة، سياسة العدل والمساواة بين الرعية، سياسة الحكم

الفاضل، سياسة المثل والأخلاق، هذه السياسة التي طالما حلم بها عباقرة الفلسفة والنظام والنظرية إفلاطون وأرسطو، والتي لم توجد ولم تستوضح إلا عند قيادي محنك، كرسول الله، رسول الإنسانية، الذي حكم بروحه، وبأخلاقه وبمبادئه، وبشخصه المتواضع.

وما كان لهذه السياسة النبوية أن تأخذ امتدادها الصحيح، ومنهجها القويم إلا عند (أهل بيت النبوة)، الخلفاء الشرعيين، والقادة الأصليين، ساسة العباد، وأئمةالأمة بعد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

لكن الأمورجرت على غير مجراها المنصوص عليه، وسارت بتعرج واضح، وبانحراف فاضح، قاد الأمة الإسلامية إلى كارثة حقيقية، كارثة تجسدت في افتتان الأمة، واحتقان الوضع السياسي والتدهور الاقتصادي. كانت هذه هي نتائج حيازة الخلافة عن الإمام علي (عليه السلام)، الوصي الشرعي، والقائد المنصب من الله بعد الرسول (ص).

فكان أن انحرفت التجربة الإسلامية والقيادة السياسية الحاكمة على الأمة عن المسار الإلهي المرسوم من قبل الرسول (ص)، في وصاياه وأحاديثه[1]، التي أوصى بها المجتمع، وعندما ولي هذه التجربة، من هو ليس بأهل لها.

ولم أجد أظهر من هذه الخطبة للإمام (عليه السلام)، يُوضح بها بعض معالم الانحراف السياسي، ثم الانحراف الاجتماعي والتفرق والتشتت، الذي كان نتيجة لاستشراء، الخلل في فهم الأطروحة السياسية الإسلامية، من قِبَل بعض القادة ممن أداروا دفة الحكم، بعد وفاة الرسول (ص)، وساسوا الأمة بلا دراية، وبلا حنكة، وبلا علم نظري سياسي، يقول الإمام في معرض هذه الدلالات:-

---

(١) وقد ناقشنا هذا الموضوع في مبحث الانقلاب العقائدي بعد وفاة الرسول (ص)، راجع الفصل الاول.

((أيّتها النُفوسُ المُختلفَة والقلُوبُ المشتّتَةُ، الشاهِدَةُ أبدانُهُمْ والغائبَةُ عَنهُمْ عُقولُهُمْ، أظأرُكُمْ على الحَقّ وأنْتُم تَنفرونَ عنهُ نُفُورَ المِعزَى مِنْ وَعْوعَةِ الأسَدِ، هَيهَاتَ أنْ أطْلَعَ بِكُمْ سَرارَ العَدلِ، أوْ أقيمَ إعْوِجَاجَ الحَق.

اللّهُمَ إنكَ تَعلَمُ أنهُ لَمْ يَكُنْ الذي كَانَ مِنّا مُنافَسةً في سُلْطَانٍ، ولا ألتِمَاسَ شيءٍ مِنْ فُضُولِ الحُطَامِ، ولَكِنْ لِنَرُدَّ المَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، ونظْهِرُ الإصلاحَ فِي بِلادِكَ، فَيأمَنَ المظلومون مِنْ عِبادِكَ وتُقَامُ المُعطّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ)) (١).

إذن كان هناك انحراف سابق عن مرحلة تولي الإمام، كان هناك خلل في فهم الأطروحة الإسلامية السياسية، كان هناك تقصير من قبل الساسة والحكام، حيث الضعف الواضح في إقامة الحدود، وتطبيق الأحكام، والسيطرة على المجتمع عقائدياً وإسلاميا وفكرياً وأخلاقيا. كان هناك خلل في الرؤية النظرية، وفي العملية التطبيقية، إذن هناك انحراف حقيقي تخلل مفاصل الدولة. ووظائفها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية العامة، وفي ضوء هذا الانحراف السياسي المتجسد في النظرية والتطبيق كان لابد من إعادة صياغة جديدة لهذه الرؤية الفاسدة، وتوضيحها وإصلاحها، وتقديمها للناس، والمجتمع وكانت هذه الخطوة، هي من أولويات توجه الإمام (علي) في مسيرة الإصلاح.

وأنطلق الإمام في توجيه رؤيته السياسية النابعة من فيض ووضوح الشريعة الإسلامية، ثم تطبيقها كسياسة عامة يحكم بها المجتمع الإسلامي، حيث الحكم العادل، الحكم الفاضل المنطلق من واقع الإسلام، ومن روحه وحقيقة مبادئه وقيمه التي نزلت رحمةً للعالمين. حيث الإصلاح، والتعويض عن النقص الذي لحق المجتمع الإسلامي في مرحلة ما بعد وفاة الرسول (ص). جاء الإمام حاكماً للأمة برؤيته الإسلامية الشمولية وإستراتيجية إصلاحية تواكب المجتمع، وتتجاوب معه، بكل مفاصله، وبكل مستوياته، والدولة بكل أركانها، ووظائفها، على

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٣١، ص٢١٤-٢١٥.

اعتبار أنّ كل موظف في الدولة، هو حاكم على شيء، وهو مسؤول أمام الله والمجتمع عن هذا الشيء، والمحافظة عليه بإخلاص وتفان وحكمةٍ وتفكر.

وقد ((استطاع الإمام بذكائه الخارق، وبصيرته الفذة، وبمقدرته الفائقة على الإدراك واستنباط الأحكام، وأحاطته التامة بالكتاب والسنة أن يجتهد في حكومة صالحة، لأي ظرف وزمان، وتتمشى مع الشريعة بدون انفصال، ولذلك لم يؤخذ عليه ما أُخِذَ على غيره)) [1].

ومن هنا أستطاع الإمام أن يوجه فكره الإصلاحي السياسي بين وجهتين أو مستويين مهمين، يمثلان النهج الإسلامي السياسي لدى الإمام علي (عليه السلام):

- التوجه الأول: هو صياغة أطروحة سياسة نظرية إصلاحية.
- التوجه الثاني: هو إيجاد هيكلية لتطبيق معالم تلك الصياغة النظرية عبر إدارة الدولة الإسلامية وقيادة مجتمعها الإسلامي.

ومن هنا ((كان الإمام يجسم الحكم ككيان مجتمع الأطراف، معقود الحواشي، حيث الإنسان الصالح للتطبيق الصالح، وحيث الفرد الصالح في المجتمع الصالح)) [2]، ولأن الإمام لم يتقدم إلى حكم الأمة، قاصداً الجاه والسلطان والأموال، بل كان راغباً في الإصلاح، وإعادة التجربة الإسلامية، التي انحرفت في العهود السابقة، ومنذ وفاة الرسول (ص) إلى سابق عهدها، وصحيح نهجها، تلك التجربة الإسلامية التي ترى ((أن الحياة الدنيوية ما هي إلا مقدمة لحياة أخروية دائمة هي أوسع وأكبر وأعظم من هذه الحياة، ولذا فأنه يرى بأنه لابدّ من تمشية أمور هذه الحياة الدنيوية الزائلة بالشكل الذي ينسجم مع تلك الحياة الأخروية الدائمة والتي هي أهم من هذه الحياة الدنيا)) [3]،

---

(١) ملامح من عبقرية الإمام، مهدي محبوبة، ص٦٦.

(٢) ملامح من عبقرية الإمام، ص٦٦.

(٣) الإمامة وقيادة المجتمع، السيد كاظم الحائري، ص٣٦.

ومن هنا كان لابد من تصحيح رؤية القائد أو الحاكم للسياسة، على أنها مجرد جسر عبور وممر مؤدي إلى حياة أخرى، يكون فيها الثواب والجزاء أبدياً. ولتكن النظرة العامة والخاصة للسياسة على أنها وسيلة لقيادة المجتمعات، وتسهيل حياة هذه المجتمعات. لا أن تكون السياسة هي الغاية والذروة، فتنحرف هنا عن جادتها الصحيحة، وتتمحور عند ذاك في الرغبة والجاه والسلطة، خارجة بهذا عن كونها رؤية أو منهج تقويمي وتنظيمي لمرافق المجتمع الدينية والفكرية والأخلاقية والاقتصادية.

فالمسؤولية السياسية وفق الرؤية الإسلامية تمثل منهج وصول، ومنهج ارتقاء، ومنهج بلوغ ((حاجة الكمال الروحي والمعنوي الذي يجب على البشرية أن تصل إليه)) [1].

وكان لابد من توفر نمط تنظيمي وتنفيذي، لهذه الأطروحة السياسية ذات الأهداف السامية، والغايات الروحية، والجمالات المعنوية، وكان وجود هذه الطرائق والنظم على صعيد الشريعة الإسلامية، وصولاً إلى حماية المجتمع، وتهذيبه، حينَ يكون مقيداً بتشريعات وسنن توضح له مساراته المشروعة من اللا مشروعة.

الإمام ومنهج الإصلاح السياسي النظري المبدئي:

كانت من أوائل اهتمامات الإمام في مجال التنظير السياسي، وصياغة الأطروحة السياسية، التي تمثل امتدادا للأطروحة السياسية، التي أرسى دعائمها، وطبق قواعدها المصلح الأول، محمد (ص)رسول الإنسانية. هو في تحديد وتوضيح أهمية الإمامة، ودورها الوثيق في قيادة المجتمع، وتحديد مهام

---

(١) الإمامة وقيادة المجتمع، ص٣٩.

الإمام بوصفه قائداً وحاكماً دينياً واجتماعياً، يمثل امتداداً لدور النبوة في قيادة المجتمعات الإنسانية، وحكم البشرية بمبدأ الحكم الإسلامي الفاضل.

ويبدو أن الأمة الإسلامية، التي فقدت الكثير بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله سلم) فقدت شخصيتها الإسلامية، فقدت كيانها الروحي، فقدت المبدأ وضيعت الحقائق، والحرفت عن المسار القويم، المنصوص من قبل الله لهذه الأمة. قد غيبت العقل الوجودي لها، والحرفت عن المبدأ الفكري وعن الشخصية المعرفية والعلمية والتفكرية في الحياة، حيث كانت تعيش واقعاً ضحلاً، منحرفاً غارقاً في الشبهات، والفتن، كان ذلك نتيجةً وآثاراً أكيدة لعملية تغييب الحقيقة الأمامية، والتعتيم على دورها الأصيل في قيادة التجربة الإسلامية. وكان على الإمام وفور توليه زعامة الأمة الإسلامية، أن يحدد ويجسم معالم أطروحته السياسية الإسلامية، ذات الرؤية الشمولية، وأن يصنف هذه الرؤية، ويخطط لها ضمن منهج يتكون من مجموعة نقاط رئيسية:

١- تحديد دور الإمام، في قيادة المجتمع، والإشارة إلى وظائفه الدينية والسياسية.

٢- تحديد صفات القائد، أو الحاكم، الذي يتولى قيادة الأمة.

٣- تحديد ملامح الشخصية السياسية للقواد والولاة والساسة والموظفين ممن يتولون قيادة وإدارة المؤسسات الحكومية، التي تنظم أمور البلاد الإسلامية.

صفات القائد وشخصيته الاجتماعية:

كان من أولويات النظرية الإصلاحية السياسية، التي طرحها الإمام ومن أهم أهدافها، وأبعادها، هو في إحياء النزعة الفكرية للمجتمع الإسلامي، بعد حالة الركود والجهل، والتخلف والانحراف الفكري، التي عصفت به ما أن توفي الرسول (ص) وقد آمن الإمام بضرورة توجيه المجتمع الإسلامي، فكرياً وتوضيح غوامض الأمور التي جهلها، وخصوصاً فيما يتعلق بالسياسة، وأهمية توضيح

هذه الفكرة للناس. وأهمية توضيح ارتباط السياسة بالإمامة من جهة، وبتوضيح وتحديد حقوق المجتمع على الحاكم أو القائد، هذا المجتمع، الذي تنازل عن الكثير من حقوقه، ومن استحقاقاته، نتيجة حالة السبات والجهل، التي كان يقبع فيها قبل مجيء الإمام علي (عليه السلام)، وتولي دفة الحكم، لقد أراد الإمام أن يشخص السياسة للناس، أراد أن يقول، واستطاع أن يقول، وبكل جدارة، أن السياسة ليست كلمة عابرة، وليست مفهوماً بسيطاً، بل هي (عالمٌ)، عالمٌ من الأفكار، عالمٌ من الأحساس، عالمٌ من الاستشعار الروحي، عالمٌ من الأخلاق والسلوك المثالي. والسياسة أطروحة لابد أن يتكامل فيها (عالمُ الفكر مع عالم الروح)، وتكون النتيجة أو المحصلة النهائية في السلوك المتوازن الخلاق.

وطالما خرج ساسة العالم عن هذه الأطروحة، وهذا التصور الصحيح لحقيقة السياسة منحرفين عن المبدأ الأصيل، منحرفين عن هذا النهج المتكامل، منحرفين به أما عن (الفكر والعقل)، أو عن (الدين والعقيدة والروح)، أو عن الاثنين معاً.

وفي كلٍّ من الحالتين، يكونُ الطرحُ ناقصاً، بحاجة إلى إتمام، بحاجة إلى تقويم. فالرؤية السياسية الناجحة هي التي تطرح الرؤية العقلية في التعامل مع النظام، فضلاً عن الرؤية العاطفية الروحية في التعامل مع الرعية، وبالتالي وضع سلوك متوازن يتعامل مع النظام ويستبقيه في حكم الرعية، إذن لابد من تحديد ملامح الشخصية السياسية التي تتوفر لها شرائط الحكم، فالسياسي الصالح هو من يبتدئ من المبدأ الصالح كمقدمة وكنقطة انطلاق، المبدأ الصالح الذي يصنع القاعدة الأساس في منطلقات عمله (القاعدة العقائدية الأساس) للانطلاق والتقدم.

ومن هنا لابد من أن يتمتع السياسي بنزعة روحية، نزعة إيمانية، نزعة عقائدية، بأن الله عادل، وأنّ هذه العدالة لابدّ أن يكون لها امتداد، لابد أن يكون لها تطبيق على سطح الأرض، لابد أن تكون لها خلافة على وجه الأرض، فضلاً عن أهمية (النزعة الروحية والمبدئية والإيمانية)، فلابد أن يتمتع

السياسي (بنزعة عقلية تفكرية). لأن النزعة العقلية، هي التي تمنح القائد النظام، والإلهام، على إحلال النظام، كمنهج واجب التطبيق، تمنحه القوة في إيجاد الحلول، تمنحه التحديد بين الصائب من الخاطئ، بين الخير والشر بين الحق والباطل، تمنحه الوصفة الصحيحة مع كل موقف أو حدث عرضي، فضلاً عن هذا وذاك، فإن إتحاد النزعتين (الروحية والعقلية) يؤدي إلى نتيجة توازنية تتوازن فيها الروح مع الفكر، والعقيدة مع النظام.

وبالتالي نتحصل على السلوك المتوازن، والرؤية الأخلاقية الفعالة الرؤية التي يتعامل بها القائد مع الرعية، سلوك العدل والإنصاف والحق والإنسانية.ولنقف الآن عند هذه الخطبة للإمام، والتي يبين فيها سبب طلبه الحكم ويصف الإمام الحق، والقائد الحق:- ((اللهُمَّ إني أوَّلُ مَنْ أنَابَ وسَمِعَ وأجَابَ، لَمْ يسبقني إلاَّ رَسولُ الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصَّلاةِ، وقَدْ علمْتُمْ أنَّهُ لا ينْبَغي أنْ يَكُونَ الْوالي عَلَى الفُروجِ، والدِّماءِ، والْمَغَانِم، والأحكَام، وإمَامَةِ الْمُسْلمينَ، البَخيلُ، فتَكُونَ في أمْوالِهِمْ نَهمَتَهُ، وَلا الْجاهل فيُضلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، ولا الجَافي، فَيَقْطَعهُمْ بِجفَائه، ولا الحائفُ للدُّول، فيَتَّخذَ قَوماً دُونَ قَوْمٍ، ولا الْمُرتَشي فِي الْحُكم، فَيَذْهَب بالْحقُوقِ، ويَقِفَ بِهَا دُونَ المقاطع، ولا الْمعطِّلُ للسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الأمَّةَ)) (١).

وفي ضوء هذا النص، لنا أن نقف ونستخلص صفات القائد ومعالم شخصيته الاجتماعية، التي لابد منها للقائد، وللحاكم وللسياسي ولأن هناك مجموعة من الخصائص، التي يجب توافرها في القائد، أو الشخص الذي يقود مجموعة من الناس، من أكبر شخصية قيادية في الدولة، وحتى أصغر شخصية قيادية في الدولة، وكل قيادة سواء كانت لفئة اجتماعية كبيرة أو لفئة اجتماعية صغيرة فلابد

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ١٣١، ص٢١٥.

لها من خصائص، ومؤهلات، وسلوكيات متوازنة تنسجم مع الدور المركزي، الذي تتحمله هذه القيادة.

ولنقف الآن عند مجموعة الخصائص، التي لابد من توافرها في شخص القائد:

١- إن السياسي لابد أن يتمتع بشخصية فكرية عقلية، تكون قادرة على استيعاب تخطيط، وتنظيم شامل ورؤية فكرية شمولية تستوعب المجتمع وتحتويه، وتتجاوب مع طبقاته، ومستوياته، وتسيطر عليه، وبما يتوافق والسنن والشرائع والقوانين الإلهية، وأن يسوس المجتمع والرعية، على مبادئ العمل والإنصاف، والمساواة، وتوجيه هذا التخطيط يشمل كل المناطق، وكل مفاصل، وإرجاء البلاد الإسلامية.

٢- إن السياسي لابد أن يكون صاحب شخصية عقائدية ارتباطية، بالمعتقدات الاساسية، كالإيمان بالله، والإيمان بالوحي، الإيمان بالعدل، والمعاد، والإمامة، لأن العقيدة عند ذاك تكون هي الموجه، وهي المنطلق والمبدأ الذي يمد المسؤول أو السياسي أو القائد بالطاقة، وبالقوة، وبالنظام وبالأسلوب الذي سوف يتقدم به، وينطلق به نحو الأمام.

٣- إن السياسي المسؤول عن الرعية، على أختلاف عدد رعيته فئة كبيرة كانت أم فئة صغيرة، فهو إذن قدوة لهذه الفئة، قدوة اجتماعية، تكون محط أنظار الجميع، تكون محوراً تدور حولها عناصر المجتمع، ومن هنا كان من الضروري أن يتمتع المسؤول بسلوكيات وأخلاق نموذجية تشكل بمجملها المثل الأعلى، والشخصية المركزية في البلدان والأمصار، وأن تفرض هذه الشخصية وجودها على سطح المجتمع عبر الخصال الحميدة، والمزايا الفضيلة، لا عبر مبادئ القهر والتسلط والظلم والسرقة والطمع بما في جعبة الدولة من أموال هي ملك الله اولاً،وملك الرعية ثانياً.

وكانت هذه الصفات الشخصية النموذجية والسلوكيات المثالية، هي مقياس الإمام في إختيار ولاته وقادته وموظفيه في الأمصار الإسلامية المترامية الأطراف ومن هنا فقد كان الإمام يرى ((ان المجتمع الفاضل موكول بالحكم الفاضل ولا يتأتى الحكم الفاضل بدون ولاة أمر فضلاء يدركون موضعهم ويعملون بما يدركون)) [1].

وها هو يقف من الولاة والساسة والحكام، ممن نصبوا أنفسهم قادة على الناس، مخاطباً إياهم حيث يقول:-

((مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ للناسِ إماماً فليبدأ بتعليم نفسِهِ قَبْلَ تعليم غيرِهِ، وَلْيَكُنْ تأديبُهُ بسيرتِهِ قَبْلَ تأديبِهِ بِلِسانِهِ، وَمُعلِّمُ نَفسِهِ ومؤدِّبُها، أحَقُّ بالإجلالِ مِنْ مُعلِّم النّاسِ ومؤدِّبِهِمْ)) [2].

السياسة الحقوقية بين الراعي والرعية:

ينطلق الإمام (عليه السلام) في رحاب نظريته السياسية، أن الحاكم أو القائد لابد أن يكون ممثلاً عن الله يعكس بسلوكه وأدائه عدالة الله في تكويناته وتشريعاته، ومن هنا كان لابد أن يتمتع القائد بصفات تؤهله لأن يعكس ولو بشكل ضئيل وضعيف مثل هذه العدالة المطلقة للخالق العظيم والتي لا يرتقي لها أي وصف وأي تعبير، وأي شخصية وما كان ولن يكون بمستطاع الإنسان القاصر في كل شيء أن يتمثل هذه الصفات المطلقة، إلا إنّ الأمل موجود في الاكتساب والتعلم وعبر الاجتهاد وتوسيع المدارك الفكرية والروحية والسلوكية ومن هنا كانت وصايا الإمام في وجوب الاجتهاد والتوسعة للآفاق المعرفية عند السياسي، وأن لا يقف بعلومه ومعارفه وآدابه واكتسابياته الإيمانية والروحية والفكرية عند

---

(١) ملامح من عبقرية الإمام،ص٦٦.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، باب الحكم، ص٥١٨.

حد معين ويكون دأبه التواصل الجاد مع الأفكار التطورية مع الأبحاث الجديدة في علوم السياسة والمنطق والفلسفة ولأن السياسة وبحكم واقعها الوظيفي المركزي تكاد تتمفصل في شتى أرجاء الواقع الحياتي كالاقتصادية والثقافية والعلمية والدينية فالسياسة لا يمكن لها أن تتجرد عن مجمل هذه الحقول الإنسانية والتعاطي معها جميعاً في آن واحد وما دام السياسي منطلقاً بمنطلقات صحيحة وأهداف صحيحة وغايات سامية، فإن هذه المعطيات ستضمن له سلامة المنهج الذي سيسير على هديه في تحديد وتوضيح مساراته القيادية.

وأذن فإن على القائد مسؤولية ضخمة تقع على عاتقه، مسؤولية تتلخص في تنظيم أمور الحياة للجماعة مع وجوب احترام هذه الجماعة للقائد المخلص المتفاني، وتحمل على عاتقها المسؤوليات المناطة بها كأمة إسلامية، وكأفراد مسلمين لهم حقوق وعليهم واجبات ولأن المسؤولية بين الراعي والرعية تكاد تكون متبادلة فكما تطالب الرعية راعيها بوجوب تحمل المسؤولية كاملة فعليها أذن أن لا تقصر في أداء واجباتها تجاه هذا الراعي. وكل فرد يعمل من جانبه يتحمل مسؤولية معينة وعلى قدر مستطاعه.ولذلك تتجلى أهمية العمل المشترك، أهمية الكفاح والكدح من سبيل التوصل للحقوق في سبيل تحقيق الراحة والسعادة المنشودة. والوالي له حق على الرعية مثلما كان للرعية حق على واليها وهذه الفرضية أفترضها الله على عباده كجزء مهم من واجب تحقيق (حقوق الله) على الناس. وإن في تأدية الواجبات وإحقاق الحقوق المتبادلة بين الراعي والرعية صلاح الأمور واستقامتها.

وإن في طاعة الحاكم العادل، الحاكم العامل بالحق، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، صلاحاً للحياة، صلاحاً للأمة، صلاحاً للإنسانية، وتتوجب هنا مساندة الحاكم العامل بالحق والالتفاف عليه ومساعدته، والانصياع لأوامره. وهذه الطاعة للراعي الصالح هي امتدادلطاعة الإمام المعصوم القائد على الأمة.

الإمام المنصب من الله العارف بما هو خفي على الكثير، العارف بالدين والسياسة، المؤهل لتولي الأمور، والمؤهل للقيادة وهو أولى بالناس من أنفسهم.

ولنقف الآن عند هذه الخطبة للإمام (عليه السلام)، لجد فيها دلالات ما ألمنا إليه، حين يخاطب الأمة الإسلامية بصفين قائلاً:

((أمّا بَعْدُ: فَقَدْ جعَلَ الله لي عَلَيكُمْ حقّاً بولاية أمْرِكُمْ، ولَكُمْ عَلَيّ مِنَ الحَقّ مِثلُ الذِي لي عَلَيْكُمْ، فَالحَقّ أوسَعَ الأشْياءِ في التّواصف، وأضيَقُها في التناصُف، لا يجري لأحَدٍ إلاّ جرَى لَهُ، ولو كَانَ لأحَدٍ أنْ يجْرِيَ لَهُ، ولا يَجْرِي عَلَيْهِ، لكانَ ذلكَ خالصاً لله سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقه، لقُدرَته عَلَى عبَاده، ولَعَدْله في كُلّ مَا جَرَتْ عَلَيه صُرُوفُ قَضائه، ولكنّهُ جَعَلَ حقَّهُ عَلَى العبَادِ أنْ يُطيعُوهُ، وَجَعَلَ جَزاءَهُمْ عَلَيْه مُضاعفَةَ الثّوَاب، تَفَضُّلاً مِنْهُ وتَوسُّعاً بِما هُوَ مِنَ المزِيدَ أهلُه.

ثُمّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقوقاً افْتَرَضَها لِبَعْضِ الناس عَلَى بَعْضٍ، فَجَعَلَها تتكافأ في وجُوهِها، ويُوجِبُ بَعْضَها بَعْضاً، ولا يَسْتَوجِبُ بَعْضُهَا إلاّ بِبَعْضٍ.

وأعظَمُ ما افْتَرضَ سُبْحانَهُ مِنْ تِلْكَ الحُقُوقِ، حَقّ الوالي عَلَى الرعيّة، وحَقُّ الرعيّة على الوالي، فَرِيضَةٌ فَرَضها اللهُ سُبحانَهُ لِكُلٍ على كُلٍ، فَجَعَلَها نِظاماً لألفتِهِمْ، وعِزاً لِدينِهِمْ، فليست تصلُحُ الرَّعِيَّةُ إلا بِصَلاحِ الوُلاةِ، ولا تَصلُحُ الوُلاةُ إلا بإستِقامَةِ الرَّعيّة.

فإذا أدّت الرّعيّة إلى الوالي حقّهُ، وأدى الوالي إليها حَقّها عزّ الحَقّ بينَهُمْ وقامَتْ مَنَاهِجُ الدينِ، واعتدَلَتْ مَعالِمُ العَدْلِ وجَرَتْ على أذلالِها السُنن، فَصَلَحَ بِذلكَ الزّمَانُ)) [1].

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ٢١٦، ص٣٦٠-٣٦١.

فمن جسيم نعم الله على خلقه أن بعث فيهم الأنبياء والأوصياء والأولياء، ليكونوا منهاجاً ومعتصماً وحبلاً وأصلاً بالنعم إلى الخليقة، فلعظيم شأن الله وخطر جبروته وكبريائه، كان له أن يوجد الإدلاء عليه من المقربين المميزين الشأن من خليقته ليكونوا وسطاء فيما بينه وبينهم، وما دام الله هو ذلك المطلق اللانهائي اللامحدود وما كان لهذه الخليقة أن تتوصل بإمكاناتها القاصرة إلى تحديد بعض صفاته واستجلاء بعض جواهر معرفته، وحقيقته الأزلية، وأن هؤلاء الإدلاء على الله ممن يحملون بعض الصفات الجمالية والكمالية، ممكن أن يعكسوا ولو بشكل ضئيل صفات الكمال المطلق اللامحدود بكمال محدود بشري مجسم ومحدد في صور الأنبياء والأوصياء والأئمة والأولياء والصالحين.

وإن في التقرب والطاعة لهذه الفئة من الأولياء، المختصين بولاية الله هو من طاعته واعترافا من الناس بوحدانيته وبعبوديته المطلقة عبر هؤلاء الوسطاء بين الله وبين خلقه فكان من موجبات طاعة الله هو في إطاعة الأئمة والولاة وتأدية حقوقهم، والانصياع لأوامرهم فضلاً عن هذا الحق للأولياء، فإن على الأولياء أن يعملوا في سبيل البشرية وفي سبيل الإصلاح وفي سبيل التطوير وفي سبيل الهداية للحق.

ومن هنا فأن العلاقة التي تربط الإمام بالأمة ((ترتكز على محور الإمامة، فالإمام قائد ديني، وقائد اجتماعي، ولازم قيادته في كلا الأمرين، عمله على هداية الأمة وبيان الأحكام الإلهية لها، وصيانته من الانحراف وبالإضافة إلى كون الإمام قدوة للأمة في أخلاقه وشمائله وسلوكه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالإمام قائد للمجتمع يعمل على إدارته وحل مشاكله، وإنجاح الأطروحة الإسلامية، خصوصاً اذا كان الإمام مبسوط اليد وله قدرة سياسية مؤثرة، أما إذا لم يكن الإمام مبسوط اليد وليست بيده قدرته، فالحق الذي لا ينفك عن منصب

إمامته هو هداية المجتمع وبيان الأحكام الشرعية له، فهو حق ثابت في جميع الظروف والأحوال))[1].

ولنقف الآن عند هذا النص من خطبة للإمام (عليه السلام)، يصف فيها ويحدد وظائف الإمام تجاه الأمة، الوظائف الدينية والسياسية والاقتصادية الإدارية الاجتماعية :-

((إنَّهُ لَيسَ على الإمامِ إلاّ مَا حُمِّلَ مِنْ أمرِ رَبِّهِ: الإبلاغُ في الموعِظَةِ، والإجتِهادُ في النَّصيحَةِ، والإحْياءُ للسُّنَّةِ، وإقامَةُ الحُدُودِ على مُستَحقيها، وإصدارُ السُّهمانِ على أهلِها، فَبادِروا العِلْمَ مِنْ قَبْلِ تصويحِ كَبْتِه، وَمِنْ قَبلِ أنْ تُشغَلوا بانفُسِكم عَنْ مُستَثارِ العِلمِ مِنْ عِنْدِ اهْلِهِ، وأنهَوا عَنِ المُنكَرِ وتَناهُوا عَنْهُ، فإنّما أمِرتُمْ بالنَّهْيِ بَعْدَ التَّناهِي))[2].

ونحن حين نتحدث عن طاعة الإمام المعصوم، أو الوصي المنصب من الله، فنحن نمتد بهذه الرؤية إلى كل الولاة المخلصين العاملين بما أمر الله ولابد من إطاعتهم ومساعدتهم وإسناد حكومتهم في سبيل تحقيق بعض ملامح العدالة الإلهية المنشودة والكمال الإنساني الذي يكاد يكون مفقوداً إلا عند فئة نادرة في المجتمع ولنقف الآن عند هذه الدلالات والمعاني في هذا النص حيث يقول (عليه السلام):

((وإذا غَلَبَتْ الرَعِيَةُ واليها، وأجْحَفَ الوالي برَعِيَّتِه أخْتَلَفَتْ هُنَالكَ الكَلِمَةُ، وظَهَرَتْ مَعالِمُ الجَورِ وكَثُرَ الإدغالُ في الدِّين وَتُرِكَتْ مَحاجُ السُّنَنِ، فَعُمِلَ بالهَوَى، وعُطِلَتْ الأحكامُ، وكَثُرَتْ عِلَلُ النُفوسِ، فَلا يُستَوحَشُ بِعَظيمِ حَقٍ عُطِّلَ، وَلا لِعَظيمِ بَاطِلٍ فُعِلَ فَهُنَالِكَ تَذِلُّ الأبرارُ وَتَعِزُّ الأشرارُ، وَ تَعظُمُ تَبِعاتُ اللهِ عِنْدَ العِبادِ))[3].

---

(١) الإمامة وقيادة المجتمع، ص١٣٥-١٣٦.

(٢) نهج البلاغة، ج١، ص١٧٤.

(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص٣٦١.

ومن هنا كان لابد من استجماع الرأي، والاعتصام بالولاة النصحاء، النجباء، والمساهمة معهم في سبيل إصلاح الأمور وتأدية الواجبات، واستنزال الصعاب، وتنظيم الحياة، وفقاً لأسس التعاون والتباذل والتناصح، والصبر الجميل يقول الإمام في معرض هذه الدلالة :

((فَعَلَيْكُمْ بالتّناصُحِ في ذَلكَ، وحُسْنِ التّعاوُنِ عَلَيْهِ، فَلَيس أحدٌ وإنْ اشْتَدّ على رِضَاء الله حِرْصُهُ وطَالَ في العَمَلِ اجْتِهادُهُ، بِبالِغِ حَقيقَةَ الله عَلَى العِبادِ: النّصيحَةُ بِمَبلَغِ جُهْدِهِمْ، والتّعاونُ على إقامَةِ الحَقّ بَيْنَهُمْ، ولَيْسَ أمرؤٌ، وإنْ عظُمَتْ في الحَقّ مَنْزِلَتُهُ، وتَقَدَمَتْ في الدّين فَضيلَتُهُ، بفوقِ أنْ يُعاوِنَ على ما حَمّلَهُ اللهُ مِنْ حَقّهِ، ولا أمرؤٌ، وَإنْ صغّرتْهُ النُفُوسُ، واقتَحَمتْهُ العُيُونُ بِدونِ أنْ يُعينَ على ذلكَ اوْ يُعانَ عَلَيْهِ)).

ومن واجبات الرعية تجاه الله، في التعاون والتناصح والصبر والالتفاف على الراعي في سبيل إحياء الصلاح، إحياء المعرفة والحياة الكريمة، وأن ينضوي تحت راية هذه الفكرة وهذه المهمة، كل أفراد المجتمع من أكابرهم إلى أصاغرهم وليس صغر الفرد في نفوس الناس أو عظمته تنأى بالفرد عن الإعانة والمساندة في بناء المجتمع وإصلاحه.

واذن فخلاصة أو مجمل الرؤية السياسية الحقوقية بين الراعي والرعية هو في إيجاد قناعة مشتركة، بين جانبي العملية السياسية (الراعي والرعية)، قناعة تهدف إلى إحقاق الحقوق، وتأدية الواجبات المتبادلة بين الطرفين، وأخيراً فهي عملية تبادل منفعة عملية تواصل وتعاون وتصالح في سبيل الغاية ووصولاً إلى بناء المجتمع.

المبحث الثاني:
النظرية السياسية في حقوق الرعية وأبعادها التطبيقية:

أوضحنا في البحث السابق (أهمية تكوين قناعة مشتركة بين طرفي العملية السياسية، الراعي والرعية). وأوضحنا أن نجاح هذه السياسة المشتركة، يعتمد على الجانبين (المسؤول والمجتمع) أو (الحاكم والمحكوم) أو (الوالي والرعية). يعتمد على نوع التجاوب، نوع التعاون، والتصالح، والحوار، والتواصل، فلا سبيل إلى إنجاح العملية السياسية بين طرفين احدهما الرئيس والآخر المرؤوس، في ظل غياب أحد الطرفين وكان لابد من انسجامهما وتجاوبهما لماله صالح الأثنين وكانت هذه هي الرؤية الإسلامية السياسية العادلة التي تؤمن بوجود الآخر، تؤمن بوجوب التحاور، وبالحقوق والبناء المشترك والعمل المشترك والتطور المشترك، ولو أردنا استقصاء الواقع، وانتهلنا من التاريخ، راشفين بعض أحداثه ومنعرجاته، لوجدنا أن المجتمعات وعلى مر العصور، كانت هي الضحية هي المغلوبة على أمرها هي المستغلة هي المستلبة حقوقها، وهي من تقدم التنازلات هي من يتحمل الظلامات والانتهاكات والقسوة والعنف ناهيك عن معالم الفقر والجهل والخوف الذي أعتاشته المجتمعات، جراء السياسات الظالمة الحاكمة بالقهر والتنكيل والقتل.

اللهم إلا على أيدي رجال كالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الإمام علي (عليه السلام) ممن كسروا طوق الباطل وحكموا بالمبدأ وبالمعروف وبالتراحم. سالكين سبل الصلاح ومنتهجين مناهج الإسلام القويم في سياسة الرعية، فحين أعتلى الإمام علي (عليه السلام) منصة الحكم جاء قاصداً التطهير، نزّاعاً إلى التغيير حاملاً أطروحة البناء الجديد بعد حالات التنازع والاختلاف والانحراف وكما كانت للإمام، خطط في تطهير المجتمع الإسلامي، من آفات

الانحراف ومحاولة الرجوع به إلى جادة التجربة الإسلامية، الصحيحة التي انحرفت أبان رحيل الرسول الأعظم عن الأمة.

كانت للإمام خطط تطهيرية، خطط تغيير بشأن السياسة والسياسيين وكانت الفرصة مواتية للإمام في تحقيق دولة العدل الإلهي المرجوة منه لما يمثله الإمام من امتداد للرسالة المحمدية العادلة في حكم البشرية، ولعالمية الرسالة التي قادها الرسول (ص) وقد آن للإمام أن يتولى حمل هذه الرسالة وبما تجسده من مبادئ وقيم وأخلاق ومعاني حيث العدل والإنصاف والمساواة والتوافق والتصالح والتغيير الشامل، رسالة المنطلقات السامية والاهداف النبيلة وفضلاً عما أسلفنا من خطوط نظرية ورؤى مبدئية في المباحث السابقة، فقد كانت للإمام خطوات عملية ملموسة في ميدان الإصلاح السياسي العملي حيث التغيير الشامل وقد كان لنا أن نستخلص تلك الخطوات التطبيقية العملية من خلال مجموعة الخطب والرسائل والكتب التي كان الإمام متواصلاً بها مع مجتمع الأمراء والقواد والولاة والموظفين والعمال.

وتكاد تضم هذه الكتب خزيناً ومورداً مهماً من موارد الأصول النظرية والعملية لسياسة الإمام علي (عليه السلام)، التي أنتهجها أبان قيادته الأمة الإسلامية، وقد تضمنت تلك الخطب التي وجهها لأبناء المجتمع أو الرسائل التي أرسلها إلى ولاته على الأمصار الإسلامية، الكثير من الأمور عن (حقوق) الرعية، حقوق الشعوب المظلومة الحقوق التي لابد من التعامل معها بجدية من قبل الساسة والمسؤولين، وصولاً إلى تحقيقها، وتنفيذها بحذافيرها.

وكان الإمام يركز في خطاباته وكتبه، على أهمية أداء هذه الحقوق والمحافظة عليها وعلى قدسيتها، وكان يحث ولاته بالتفاني والأستماته في سبيل تأدية هذه الحقوق لأصحابها من أبناء المجتمع المظلومين.

وتندرج الرؤية السياسية العملية التطبيقية للإمام في مستويين أو اتجاهين:

- المستوى الأول: تحديد نوع السياسة التي حكم بها الإمام وأرادها أن تكون نهجاً عاماً يحكم به الولاة على الأمصار الإسلامية المتفرقة، ويمكن أن نختصره تحت عنوان (منهج الإصلاح السياسي النوعي).

- المستوى الثاني: هو في تحديد مجموعة من الإصلاحات الذاتية للهيئة الحاكمة، وبمعنى أدق، أن الإمام أراد أن يكون التغيير والإصلاح شمولياً يبتدئ من الباطن ويعتلي الظاهر، وقد استطعنا أن نستخلص من خلال خطابات الإمام وكتبه ورسائله التي بعث بها إلى أفراد هيئته السياسية الحاكمة على الأمصار منهجاً إصلاحيا متكاملاً يتناول إصلاح النواحي الذاتية (الروحية، النفسية، الفكرية، السلوكية) للهيئة الحاكمة من ولاة وقواد وأمراء وعمال ولنا أن نختصر هذا المستوى تحت عنوان (منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة)

وسنتناول في ما يلي دراسة هذين المستويين (منهج الإصلاح السياسي النوعي) و (منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة).

المستوى الأول: منهج الإصلاح السياسي النوعي:

لقد أعتمد الإمام (عليه السلام) في بناء منهج الإصلاح السياسي النوعي، أي في تحديد المبادئ الأساسية ثم نوع السياسة التي أنتهجها الإمام وأراد من ولاته انتهاجها والمسير بما يوافقها وعدم المروق عنها. على مبدأ مهم جداً هذا المبدأ هو قوام المنهج الذي سار عليه الإمام. بل هو حجر الأساس الذي ابتنى الإمام دولته عليه وأركان حكمه ودعائم تجربته الإسلامية، هذا المبدأ هو (سياسة النزعة الإنسانية).

لقد أراد الإمام أن يجدد العهد مع رسالة محمد (ص) الإنسانية، هذه الرسالة التي جاءت لخدمة الإنسانية وفي سبيل تكامل الإنسانية، هذه النزعة التي اندثرت ملامحها ما أن رحل الرسول (ص).

وتتجسد ملامح السياسة الإنسانية التي انتهجها الإمام في ثلاثة مبادئ إنسانية مهمة أو سياسات إنسانية مهمة:

١- سياسة العدل والإنصاف والمساواة.

٢- سياسة الحوار المشترك بين الراعي والرعية.

٣- سياسة التعاطف والتسامح والتراحم بين الراعي والرعية.

سياسة العدل والإنصاف والمساواة:

كان من أولويات ومبادئ الحكم في نظر الإمام هو في إحياء جانب من جوانب العدالة الإلهية، وإيجاد صورة مصغرة ولو بشكل بسيط جداً لملامح تلك العدالة المطلقة المثالية.

وعمل الإمام جاهداً في سبيل إحياء هذه النزعة باطنياً وذاتياً عند (الهيئة الحاكمة) من قواد وأمراء وولاة وساسة، وسوف نتابع هذا الموضوع مفصلاً في المستوى الثاني من منهج الإصلاح الذاتي للهيئة الحاكمة.

وكان الإمام يعمد في كل موقف وفي كل مواجهة مباشرة أو غير مباشرة، مع الهيئة الحاكمة التابعة لدولته، أن ينبّه على أهمية هذه السياسة وضرورة انتهاجها وفي كل الميادين والمجالات تمهيداً لإحقاق الحق وإبطال الباطل وكان الإمام يهدف عبر إحياء هذه السياسة إلى تعويض المجتمع الإسلامي، الذي عانى ما عانى بعد فقدان الرسول (ص) تعويض الفقراء تعويض المحتاجين تعويض المساكين، ممن بخست حقوقهم عبر الإقصاء والتنكيل حيث لقيت الطبقة العامة الفقيرة اجتماعياً جوراً وظلماً من الحكام والولاة السابقين عن عهد الإمام، يقول الإمام في معرض عهده للأشتر النخعي:- ((ثُمَّ اعلَمْ يا مَالِكُ: إنِّي قَدْ وَجهْتُكَ إلى بِلادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْها دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَورٍ، وَإنَّ النَّاسَ يَنْظُرونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فيه مِنْ أُمورِ الوُلاةِ قَبْلَكَ، ويَقولُونَ فيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وإنَّما

يُستَدَلُّ على الصّالحينَ بِمَا يُجري الله لَهُمْ على ألسُن عِبادِهِ، فليَكُنْ أحبّ الذّخائرِ إليكَ ذَخيرةُ العَمَلِ الصالِحِ)) [1].

ومن هنا كانت نظرة المجتمع إلى سياسة الحاكم فيما يقولون فيه وبما تتوضح منه من سلوكيات واخلاقيات، يتعامل بها معهم، وإنصاف الناس هو في تعميم نظرته أليهم بلا تفريق بلا تمييز وإن التمييز بينهم في العطاء أو الثناء أو المعاملة هو نوع من الظلم (ظلم النفس أولاً، وظلم الناس ومن وقع عليه التمييز ثانياً)، فضلاً عن كون هذا التمييز هو أنتهاك صارخ للأمانة وللمسؤولية التي يحملها المسؤول على عاتقه.

يقول الإمام، في معرض هذه الدلالة، مخاطباً الأشتر: ((أنْصِفِ الله، وَأنْصِفِ النّاسَ مِنْ نَفسِكَ، ومِنْ خاصّةِ أهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فيهِ هَوىً مِن رَعِيّتِكَ، فإنّكَ إلاّ تَفعَلْ تَظْلِمْ، ومَنْ ظَلَمَ عِبادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبادِهِ)) [2].

ومن هنا كان الإمام يستهجن سياسة التمييز والتفريق التي أتبعها بعض الحكام، في تقريب الخواص،، وإقصاء العوام وكان لابد من إعادة النظر في هذه الرؤية السياسية الجائرة، وأن توجد سياسة مناوئة في العدل والمساواة، وإنّ كان لابّد من التمييز، فإنّ في رضى العوام من الناس، والأغلبية فضلٌ وعدلٌ على رضى الخواص، من الحاشية والوزراء والعمال. ولأنّ العامة هُمْ عمادُ الدين، وجماعُ المسلمين، والعَدّةُ للأعداء:

((وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإنّ سخط العامة يجحف برضى الخاصة وإنّ سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة، وليس أحدٌ من الرعيّة أثقل على الوالي مؤونةً في الرّخاء، وأقلّ معونةً لهُ في البلاء، وأكره َللأنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقلّ شكراً، عند

(١) نهج البلاغة، ج٣، عهد الإمام الأشتر، ص ٤٥٩ - ٤٦٠.
(٢) م. ن، ج ٣، عهد الإمام الأشتر، ص ٤٦١.

الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند مُلماتِ الدهر من أهل الخاصة، وإنّما عمادُ الدّين وجماعُ المسلمينَ، والعدةُ للأعداءِ، العامةُ من الأمّةِ، فليكن صفوكَ لهم وميلك معهم)) [1].

وإن من أهم مناهج العدل والإنصاف في الرعية، هو في التمييز بين المحسن والمسيءمنهم، لما لهذا التمييز من أهمية معنوية ونفسية، فضلاً عن مبدأ التفريق بين الحق والباطل، في حالة التفريق بين المحسن منهم، الذي بذل جهداً في سبيل الإحسان، وإحياء الحق، وبين المسيءُ الذي بذل جهداً في إحياء الباطل وهذا ما تلمح دلالاته في هذا النص للإمام من عهده للأشتر أيضاً:

((ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سواء، فإنّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان،، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه))[2].

ولأن المسيء ألزم نفسه استحقاق العقاب، بينما المحسن ألزمها استحقاق الثواب والتكريم وعلى الوالي لزوم الحق قريبه وبعيده ((وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع، وأبتغ عاقبته بما يثقل عليك منه، فإن مغبةَ ذلك محمودة))[3]. ألا يكون للوالي أو الحاكم إستئثارٌ لخاصته وبطانته من المقربين، فيكون في هذا قلة إنصاف حين يكون لهم الحق في التصرف، بحقوق العامة، فعلى الوالي حينذاك قطع أيديهم عن التصرف في مال الناس وقطائعهم، ولربما في إقتطاع الأرض لهؤلاء الخاصة المتنفذين في الدولة، ضرراً بما يليها من أراضٍ وقطائع للعامة، ونصيبهم المفترض من الماء. وهذا ما نرى دلالاته ماثلة في هذا النص من عهده للأشتر أيضاً:

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤٦١- ٤٦٢.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦٣.

(٣) م. ن، ج٣، ص٤٧٦.

((ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة، فأحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب، أو عمل مشترك يحملون مئونته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة)) [1].

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٦.

سياسة الحوار المشترك بين الراعي والرعية:

إن من مناهج السياسة الحكيمة، والواعية هو في إحياء مبادئ التحاور مع الرعية، والتصالح معهم، والجدية في أداء حقوقهم وقضاء حوائجهم، وأن أفضل أسلوب لتأدية حقوق العامة، هو في إيجاد صيغ للتحاور، والتواصل والتجاوب معهم عبر الظهور عليهم، والنظر في أمورهم واحتياجاتهم، بشكل مباشر بلا وسيط أو عائق، وإن في ظهور الولاة على العامة تعويداً للنفس على العدل، وإظهاراً له لاسيما إذا ظنت الرعية حيفاً بواليها، وإن في هذه المجابهة، تبييناً للأعذار، وتوضيحاً للغامض، وإحقاقاً للحق ورياضةً للنفس، وإلزاماً للعدل ولهذا ترى الإمام ناصحاً الولاة، عبر قوله:

((وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصْحِرْ لهم بِعُذرك، وأعدل عنك ظنونهم بإصحارك، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك، ورفقاً برعيتك وأعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق)) [1].

وما دام الوالي محتجباً عن رعيته، فهو إذن لا يعرف ما توارى عنه، فإذن لابد من إيجاد وسيلة للتواصل والتجاوب ولأن طول احتجاب الراعي عن الرعية سبب في جهله بالكثير من أمورهم واحتياجاتهم ومتطلباتهم وكان في هذا الانزواء حيفٌ كبيرٌ عليه وعلى رعيته التواقين إلى لقائه، والإخبار عن معاناتهم ومشاكلهم وحين لا توجد صيغة حوار مشتركة بين طرفي العملية السياسية، فهنا يشاب الحق بالباطل وتكون الرؤية ضبابية غير واضحة بالنسبة إلى الطرفين، يشوبها سوء الظن والاعتقاد الخاطئ المجحف بحق الراعي.

ولذلك يقول الإمام محذراً الأشتر من مغبة الاحتجاب عن الرعية وضرورة التواصل معهم عبر الاجتماع واللقاء بهم ذلك حين قال (عليه السلام):

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٧.

((وأما بعد فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن، ويحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل، وإنما الوالي بشرٌ لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور، وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب))[1].

فضلاً عن هذا فإن التحاور مع الرعية، دليل على السلوك الراقي للمسؤول، الذي لا يرى موجباً للاحتجاب عن الرعية، وعلى الأخص إذا كان طالباً للحق، مريداً له، فيكون هذا التواصل دليلا قاطعاً على حسن نواياه تجاه الرعية، ورغبته المخلصة في تنظيم أمور حياتهم، يقول الإمام في الحث على الحوار، وفي استجلاب حسن نوايا الولاة عبره.

((وانما أنت أحد رجلين: أما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه، أو مبتلي بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسائلتك إذا أيسوا من بَذْلِكَ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مئونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة)) [2].

ومن هنا فقد أوجب الإمام على الولاة التفرغ للرّعية، من ذوي الحاجات والجلوس معهم، وإحياء طقوس الإصغاء والاستماع إلى طلباتهم، والتواضع لهم قدر الإمكان مع دراسة جادة لمشاكلهم، ومحاولة إيجاد الحلول، والإصلاحات العملية لها، والسماح لهم في الكلام وعرض العقبات بلا ترويع أو تخويف أو تهديد منطلقاً عن كون الرئاسة سعة الصدر، وحسن الاستماع، وبسط القلوب

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٥-٤٧٦.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٦.

والعقول، لتحقيق وأداء الواجبات الملقاة على عاتق المسؤول. يقول الإمام في معرض هذه الدلالة:

((واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك،، وتجلس لهم، مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك، من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع)) [1].

وعلى الوالي أن يتسع صدره للرعية، فلا يؤاخذهم بسوء أخلاقهم، ولا يضجر من شكواهم، ولا يضيق بهم، ولا يستنكف عن مجالستهم، وأن يتذكر بسط الله أكناف رحمته على الخلق لا ضائقاً بهم ولا مستكبراً عليهم:

((ثم أحتمل الخرق منهم والعني، ونحّ عنك الضيق والأنف، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً، وأمنع في إجمال وأعذار))[2].

وإذا أعطى الوالي، فلا يكون خشناً باستكثاره والمنّ به، وإذا منع فليكن بلطف وأعذار. فلا يمن الراعي بعطائه، ولأن المنّ يبطل الإحسان، ويمحق ثواب الأعمال، ثم أن العطاء كله من الله، فلا موجب للمنّ على الناس، إن كان هو ملك الله أولاً،والناس ثانياً، فهو إذن حقّ من حقوقهم.

((وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك، أو التزيد في ما كان من فعلك)) [3].

ومن مبادئ الحوار الأخرى، التي أوصى بها ولاته، هو في الوفاء بالعهود، التي يقطعها الراعي لرعيته، فلا يصح مخالفتها، أو التغافل عنها.

((أو أن تعدهم فتبع موعدك بخلفك))[4].

لأن ((الخلف يوجب المقت عند الله والناس))[1].

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤٧٤.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٤.

(٣) م. ن، ج٣، ص٤٧٩.

(٤) م. ن، ج٣، ص٤٧٩.

ومن المبادئ والأهداف الحوارية،التي شدد عليها الإمام،في وصاياه،وعهوده لولاتهِ وأعضاء هيئته السياسية، هو في إصدار الحاجات يوم ورودها،بلا تأخير أو مماطلة وكما يوصي (عليه السلام)مالكا الأشتر في عهده إليه:

((ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها،منها:- إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك،ومنها:- إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تخرج به صدور أعوانك،وأمض لكل يوم علمه فان لكل يوم ما فيه))[٢].

ولما كانت من مبادئ الحوار المهمة هو في الاستماع والتجاوب مع ألرعيه، فلم يكن من بد التعرض أو التعرف على عيوب الرعية على اختلاف أشكالها، فكان لزاما على الراعي المسؤول أن يستر عيوب ألرعيه، وأن لا يكشف عما عرض له منها، إلاماكان فيه ضرر على ألرعيه فالأحق هنا، تطهيرماظهرمنها للناس، والستر على ما خفي منها، يقول الإمام (عليه السلام):

((فأن في الناس عيوبا الوالي أحق من سترها، فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك، والله يحكم على ما غاب عنك، فأستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك، أطلق عن الناس عقدة كل حقد، وأقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما يصح لك)) [٣].

فضلا عن هذه الأهداف والغايات الناتجة عن سياسة الحوار، فأن في الحوار هدفاً وغاية سامية وهي حالة أقرب إلى التقارب الروحي، عبر إيجاد حالة ونوع من التجارب والتعاطف والتعاضد، وأخيراً فهي حالة (حسن الظن) بين الراعي والرعية، وبالتالي تحقيق نتائج إيجابية في ميدان العلاقات، وفي ميدان العمل والبناء والتطوير، وإن من حسن ظن الرعية في راعيها التفافها حوله والانصياع لأوامره ونواهيه، وبالتالي تطوير عملية البناء المشترك، عملية التنظيم، عملية

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤٧٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٤-٤٧٥.

(٣) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦٢.

التوزيع، وغير هذا من الأمور الإدارية التي تنتظم بانتظام علاقات الحوار بين الطرفين الراعي والرعية.

((وأعلم: أنه ليس بأدعى إلى حسن ظن راعٍ برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك إستكراهه إياهم على ما ليس قبلهم، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده))[1].

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦٤.

سياسة التعاطف والتسامح والتراحم الإنساني بين الراعي والرعية:

وكانت من أهم المبادئ والأسس، التي بنى عليها الإمام سياسته، وعلى ضوئها قدم الأوامر والنصائح والتوجيهات، هو مبدأ العفو والتسامح والتعاطف مع الرعية، قد وجدنا اصداء هذا المبدأ وآثاره واضحة في توجيهاته للولاة والحكام والقادة على الأمصار الإسلامية. ومنهم محمد إبن أبي بكر، حين قلده مصراً:

((فأخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وأبسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم فإن الله تعالى يسألكم - معشر عباده - عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة فإن يعذب فأنتم أظلم، وإن يعف فهو أكرم))[1].

وللإمام رؤية في هذه السياسة كونها نابعة عن مبدأ إنساني وعن رابطة إنسانية، فكان لابد من التعامل مع الرعية على أساس كونهم بشر، لهم مشاعر وأحاسيس، كان لابد من الوقوف عليها، واستجلائها والنظر فيها، والمحافظة عليها في طريقة التعامل، وأسلوب التفاعل وأن يؤمن ويتيقن الحاكم ويؤمن بأن من يتعامل معهم من رعيته، هم أناس بحاجة إلى استرحام واستعطاف وتسامح وتواصل وأنهم ليسوا بمعزل عن إرتكاب الأخطاء، والوقوع فيها. وأهم ما وصل ألينا من عهود الإمام إلى ولاته، هو عهده للأشتر، الذي نلمح فيه الكثير من أهتمام الإمام بهذا المبدأ، وأهمية استحضاره كأسلوب في التعاطي والتواصل مع الرعية. يقول الإمام:

((واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤١٣.

الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطاء، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه))[1].

ومن هنا فقد كان العفو هو الأعم الأغلب، أما العقوبة فكانت استثناءً واضطراراً، ومن هنا فقد ألزم الإمام ولاته بوجوب إتباع سياسة الجمع والتدرج بين اللين والرأفة، والمزج بينهما أحياناً، والتداول بينهما أحياناً.

يقول الإمام (عليه السلام) من كتاب له بعثه إلى أحد من عماله، حين تناهى له خبر قسوته وغلظته على الرعية:

((أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك، شكوا منك غلظةً وقسوةً واحتقاراً وجفوةً، ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يدنوا لشركهم، ولا أن يقصوا ويجفوا لعهدهم، فألبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداول لهم بين القسوة والرأفة، وأمزج لهم بين التقريب والإدناء، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله))[2].

ولهذا كان الإمام (عليه السلام) يحاسب الولاة المتنمرين على الرعية، ويوبخهم لقسوتهم وغلظتهم ولنا في هذا الكتاب لعبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة دليل على هذا المعنى:

((إعلم إن البصرة مهبط إبليس ومغرس الفتن، فحادث أهلها بالإحسان إليهم، وأحلل عقدة الخوف عن قلوبهم))[3]

وأخيراً فقد نظر الإمام إلى كون سياسة الوالي أو الحاكم، على الرعية، وعلى أي مصرٍ من الأمصار، هو عبارة عن شراكة وأمتداد بين هذا الوالي الذي يترأس مجموعة من الناس وبين الخليفة الذي يقود الأمة بمجموع أمصارها

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦٠.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٠٦.

(٣) م. ن، ج٣، ص٤٠٥.

وبلدانها، ومن هنا كانت السياسة في رؤية الإمام عبارة عن امتداد وتواصل وأشتراك في ما بين الخليفة أو الزعيم الأعلى، وبين ولاته وحكامه على الأمصار، وإن الأمور السلبية أو الإيجابية، التي تصدر عن الولاة أو وزرائهم أو خواصهم، كانت ستمثل رؤية سلبية أو إيجابية عامة عن السياسة العليا للخليفة أو الزعيم الأعلى، ولذلك أهتم الإمام بنوع هذه السياسات واتجاهاتها، محاولاً توجيهها وتصريفها، في سبيل تحقيق غاية في إرضاء الرعية والأمة بمجموعها، والحصول على الرضا الإلهي. لأن نوع السياسة التي يمارسها الوالي سواء كانت صالحة أو طالحة، إذن هي مقياس وصورة مصغرة للسياسة العليا للخليفة، أو الرجل السياسي الأول في الدولة والمجتمع.

المستوى الثاني: منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة:

لقد كانت للإمام (عليه السلام)، منهجية حكيمة في كيفية إيجاد صيغة للتغيير،صيغة للتطوير السياسي، صيغة إصلاحية فعالة تمثل منهجا صائبا يسير على هدية الحكام الساسة والولاة، ولقد آمن الإمام بفكرة مهمة جدا ملخصها (أن الإصلاح السياسي هو ما تمركز وتمحور حول تأدية الحقوق،والواجبات المشتركة بين طرفين مهمين من معادلة العملية السياسية، وأذن فالوالي أو الحاكم هو جزء مهم في هذه الروية الإصلاحية،بل هو جانب فعال منها،وفي مديات نجاحها، أو فشلها، ومن هنا كان لابد من تسليط الضوء، على هذا الجانب، وقد أخذ الإمام على عاتقه مهمة عسيرة جدا تتمثل في قيادة الدولة، ومحاولة استصلاح مجتمعها واستصلاح قادتها، وولاتها، على البلدان والأمصار الإسلامية، وكان عليه أن يهيئ هذه الطبقة الحاكمة للدخول في مرحلة جادة من قيادة الدولة، وقيادة المجتمع وصولا إلى الإصلاح الشامل والكامل، عبر منهج للإصلاح الذاتي، الداخلي للحاكم أو السياسي نفسه، فما لم يصلح القائد فلا سبيل إلى إصلاح الرعية، وإعادة الأمور إلى مجاريها الطبيعية، وكانت للإمام

منهجية في تحديد أهم النقاط، وأوضحها في سبيل تقديمها كمنهج لإصلاح الذات والتغيير، بما يتناسب مع حاجة الأمة لذلك الاصلاح،خصوصا بعد حالة الانحلال والانحراف التي أصابت الولاة والقادة والأمراء، على عهد عثمان بن عفان، ممن تواصوا على الباطل، وانحازوا عن الحق والعدالة مستسلمين لنداءات الشيطان) وللرغبات الخاصة، والأهواء والمصالح الشخصية، وللانتماءات القبلية، والحزبية آكلين أموال الرعية بالباطل، وبلا مبرر وبلا مشروعية، وقبل أن نلج في تحديد نقاط المنهج الإصلاحي الذاتي، فلابد من الإشارة إلى أمرٍ هو بغاية الأهمية، وكان الإمام غالباً ما يذكر ولاته وحكامه به، هو في (توعية الحكام والولاة على الأمصار الإسلامية، لما عليهم من وظائف، وتحديدها لهم) ولأن وظائف الوالي، تتحد في أربعة توجهات رئيسية، كان لابد من تحديدها، للولاة، وتحديد أهميتها، وأهمية تكوين خلفية معرفية وعلمية تتعلق بكل مجال وظيفي منها، ولنا أن نستخلص تلك الوظائف الأربع في نص من عهد الإمام (عليه السلام) لمالك الاشتر النخعي حين ولاه مصراً: ((هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الاشتر، في عهده أليه حين ولاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوها، واستصلاح اهلها، وعمارة بلادها))[1].

ومن هذا النص، تتوضح مهام الولاة التي تتحدد في:

١- جباية الخراج

٢- جهاد الأعداء

٣- استصلاح الرعية

٤- عمارة البلاد وتطويرها

ومن هنا تكون مهمات الوالي سياسية اقتصادية، وسياسية اجتماعية، وسياسية عسكرية، وسياسية تطويرية وإعمارية.

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، عهد الإمام للأشتر، ص٤٥٩.

ولذلك فإن هذه المهمات ذات التوجهات الكثيرة بحاجة إلى خلفية معرفية، وعلمية، وفكرية، وتشريعية، وعسكرية، وإستراتيجية تطويرية، فضلاً عن العامل الأخلاقي والسلوكي، الذي يتمثل في شخصية الوالي الاجتماعية، ومن هنا كان على الإمام أن يحدد ما للوالي في حقوق، وما عليه من واجبات، تجاه الرعية، وتجاه الدولة، لا يمكن له أن يتجاوز حدودها بأي حال من الأحوال.

منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة:

ويتلخص هذا المنهج في مجموعة من الخطوات التي لابد للسياسي الذي يود النجاح والأرتقاء من متابعتها والتواصل معها بشكل جدي نابع عن قناعة حقيقية لدى السياسي بضرورة وبأهمية التغيير، وصولاً إلى مرحلة السعادة الحقيقية المتمثلة في التصالح مع الله أولاً، ومع المجتمع والناس ثانياً.

وهذه النقاط والخطوات تندرج بما يلي:

١- الإصلاح الروحي (المبدئي) للهيئة الحاكمة.

٢- الإصلاح النفسي للهيئة الحاكمة.

٣- الإصلاح الفكري للهيئة الحاكمة.

٤- الإصلاح السلوكي للهيئة الحاكمة.

١- الإصلاح الروحي (المبدئي) للهيئة الحاكمة:

لقد آمن الإمام (عليه السلام)، بضرورة وأهمية توعية الوالي أو الحاكم للمقدمة العقائدية المبدئية ذات الخصائص الروحية والإيمانية، التي تمثل منطقاً وقاعدة له في مسيرته القيادية، المقدمة العقائدية، التي تتلخص في الإيمان (بالله، وبالوحي، وبالعدل، وبالإمامة، وبالمعاد)، وأهمية الإيمان بهذه الأصول والأسس، التي تشكل قوام الدين الإسلامي، وهذه الأصول هي (الرؤية العقائدية)، التي هي البداية والأنطلاق والمحور والرمز والتمهيد والمنهج للتقدم في

مسيرة القيادي وهي الهوية والطابع الذي يطبع شخصيته الاجتماعية بين الرعية، فضلاً عن كونها المبدأ السامي الذي ينطلق منه، ويعمل على تحقيقه وتنفيذه، في كل عمل، وفي كل قرار و وفي كل قانون أو تشريع أو اجتهاد، وبهذا تصبح المقدمة العقائدية مصدراً للنهوض، والتطور والتواصل والارتقاء الروحي الذي يفتح آفاقاً من الحكمة، والتقوى والترفق والورع،وهذا ما نرى مصداقه في نص من نصوص عهد الإمام (عليه السلام) للأشتر النخعي:

((أمره بتقوى الله، وإيثار طاعته، وإتباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا بإتباعها، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنه - جل إسمه - قد تكفل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه)) [1].

٢- الإصلاح النفسي للهيئة الحاكمة:

مثلما آمن الإمام (عليه السلام)، بأهمية المبدأ والمعتقد كنقطة انطلاق فقد آمن بضرورة التطهير الذاتي والاستصلاح الباطني النفسي للهيئة الحاكمة لما لهذه الإصلاحات من آثار سلوكية ونزعة اخلاقية تترك أثرها في التعاطي مع الرعية، يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذه الدلالة:

((وامره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله)) [2].

ومن هنا فقد أمر الإمام ولاته على محاسبة النفس ومخالفتها عند الشهوات، وكبح جماح الهوى والرغبات، فإن في الإنقياد خلف النوازع والأهواء، هو أشتغال بها عن تأدية واجباتها تجاه المجتمع والناس، وإن هذا تقصير عن تأدية

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٥٩.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٥٩.

حاجات الرعية وإنصرافاً عنها، عبر الانشغال بالأمور الخاصة، وترك الأمور العامة المتصلة بهموم الناس ومشاكلهم ولابد أن يضع الحاكم حقوق الناس نصب عينيه، فضلاً عن رضا الله، الذي هو المطلب الأول والأخير، وإن كان رضا الله يتنافى مع رضا الرعية، فليتوجه الحاكم إلى إرضاء ربه قبل كل شيء.

قال الإمام (عليه السلام) ناصحاً وموجهاً لمحمد بن أبي بكر، حين قلده مصراً:

((وأعلم يا محمد بن أبي بكر إني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي، أهل مصر، فأنت محقوق أن تخالف على نفسك، وأن تنافح عن دينك ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر، ولا تسخط الله برضى أحد من خلقه فإن في الله خلفاً من غيره وليس من الله خلف في غيره))[1].

وهنا نقع على هذه الرؤية للإمام، التي تتجسد عبر الإصرار على إرضاء الله، وأن يكون هذا هو المطلب الأول والأخير للحكام.

وحتى لو كان في هذا خسارة الخلق فالأولى في رضا الله، لأن سخط الله على الحاكم لا معوض له، أما خسارة أحد الخلق، فإن التعويض والجزاء يكون عند الله، ولم يأل الإمام جهداً في توجيه النصح والوعظ والإرشاد، محاولاً النهوض بالواقع النفسي الباطني للولاة والساسة، وها هو يجعل من نفسه رمزاً وقدوة ومناراً يهتدي به الساسة مستخدماً شتى الأساليب في محاولة تقريب هذه الصورة لهم، بأبلغ المواعظ وأرقى الإرشادات راجياً منهم الإنابة، لعل في هذه العظات والإرشادات صالحهم ونجاتهم.

يقول الإمام في معرض هذه الدلالات جاعلاً من نفسه قدوة في التهذيب والترويض النفسي ومحاسبة النفس وكبحها عن الشهوات:

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤١٥.

((وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق))[1].

فالإمام يرى أهمية وضرورة ترويض النفس، على المستوى النفسي للحاكم، ترويض النفس عن الرغبات، الشهوات، حتى لا تكون لهذا الحاكم رغبة في ما حرم الله، من أموال الرعية وحقوقهم، التي وضعها الله بأيدي الحكام ليسلموها إلى فقراء الأمة، ومحتاجيها وليقسموها بما قسم الكتاب والسنة والقانون وأن لا تغلبهم الأطماع وتستميلهم الأهواء في ما أفاء الله من نعم وعطايا، على رعية هذه الأمة، ونرى مصداق ما ذكرناه في هذا النص له (عليه السلام): ((ولو شئت لأهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع، أو أبيتُ مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى؟))[2].

إذن فالإمام في هذا النص يبتدئ بفكرة (الترويض النفسي) هو مقدمة، ومنطلق للإستشعار، بآلام الجياع، وأحوال الفقراء، وتأوهات المساكين من أبناء المجتمع، ممن حرموا من الملذات، وقمعوا عن إشباعات الحياة الكريمة، لإستئثار فئة من الناس من خاصة الحكام وحواشيهم، بهذه النعم، وهذا ما كان ممثلاً وظاهراً في الزعامات السياسية السابقة عن عهد الإمام علي (عليه السلام) وإذن فالغاية السامية من فكرة (الترويض النفسي) هي في تلك المشاركة الروحية مع الرعية، تكون هذه المشاركة والمواصلة عن طريق الاستشعار النفسي والروحي بآلامهم ومطالبهم المادية والمعنوية. فالمسؤول أو السياسي، ولكي يصل إلى مرحلة الاستشعار والاحساس بآلام الشعب لابد أن يتواصل بنوع من التزهيد الذاتي في

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤٥٠.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٥٠ .

الأكتفاء بالقليل من الملذات، والبسيط من الرغبات، وأن يرضى بنوع من المناصفة والاعتدال فيما بينه وبين الفقير، وأن يكتفي بحقه وأن لا يطالب بالكثير، وحينذاك لابد من نشوء احساس بالتساوي بين الحاكم والمحكوم، وبين الرئيس والمرؤوس، وأن لا فضل لوالٍ على مولى، ولا للخاصة على العامة،

يقول الإمام في معرض هذه الدلالات:

((أأقنع من نفسي بأن يقال: (أمير المؤمنين) ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوةلهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات، كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة، شغلها تقممها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها أو أترك سدى، أو أهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة، أو أكتسب طريق المتاهة))[1].

فالإمام يرى أن في الانحراف بالنفس إلى مستوى الشهوات الباطلة والطلبات اللا مشروعة، والحقوق المغصوبة، هو نوع من الإهانة لهذه النفس التي كرمها الله، وصانها، وحفظ لها قدرها وكرامتها، عن طريق التقوى والورع والتواضع والزهد في الطيبات من الأطعمة والأشربة وكما يقول الإمام (عليه السلام):

((اعزبي عني فوالله لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقوديني، وايم الله يمينا أستثني فيها بمشيئة الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص، إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً، ولأدعن مقلتي كعين ماءنضب معينها، مستفرغة دموعها، أتمتلي السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيهجع، قرت إذاً عينه إذا أقتدى بعد السنين المتطاولة، بالبهيمة الهاملة، والسائمة المرعية)) [2].

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٥٠-٤٥١.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٥٢.

لقد آمن الإمام بأن النفس لها في التغيير، لها في الإصلاح والاستصلاح، إذا ما سن لها صاحبها سنة للإصلاح ومنهاجاً للتغيير، وتهذيباً تصل به إلى الطاعة، إلى الإيمان والخشوع، والحاجة إلى الإحساس بالناس، بآلامهم وبرغباتهم المقموعة، وبحاجاتهم المكبوتة، وطالما كانت الشهوات والرغبات، مفتاحاً للمعاصي، وما من سبيل إلا تخويف النفس، وتذكيرها الموت والمعاد، ولأن كل ما تستلذه النفس من طيبات وشهوات، فهو إلى فناء وزوال، ولنقف الآن عند هذا الكتاب الذي بعثه الإمام إلى بعض عماله ممن استساغوا المال الحرام، واستباحوا الخيرات والحقوق، لهم ولأهليهم، متناسين فورة الحساب، وإنقضاء الحياة بالموت والفناء:

((فسبحان الله، أما تؤمن بالمعاد أو ما تخاف نقاش الحساب؟ أيها المعدود - كان عندنا - من ذوي الألباب كيف تسيغ شراباً وطعاماً وأنت تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟ وتبتاع الإماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال، وأحرز بهم هذه البلاد فأتق الله وأردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً الا دخل النار))[1].

ويقف الإمام ناصحاً بأهمية التطهير الذاتي النفسي عن النوازع النفسية، التي تمثل مدخلاً للشيطان، إيذاناً له بالسيطرة والسطوة على النفوس، ألا وهو (العجب)، يقول الإمام في معرض هذا المعنى:

((وإياك والإعجاب بنفسك، والثقة بما يعجبك منها، وحب الأطراء، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين))[2].

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٤٥-٤٤٦.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٩.

وإن صفة العجب هي من الصفات التي يستهجنها الإسلام، ولأن الإسلام هو دين التآخي والمساواة، دين الإنسانية، حيث لا فرق بين السادة والعبيد ولا بين الأغنياء والفقراء، ولأن المقياس في التفاضل عند الله، هو في التقوى وكرم الأخلاق وحسن السلوك وقد أستكره (العجب) والغرور بالنفس، لأنه يتقارب مع صفات إبليس الذي كانت من أظهر صفاته التكبر والغرور والعجب.

وللإمام (عليه السلام) تشبيه آخر ورؤية أخرى أيضاً في استهجان هذه الصفة (العجب بالنفس) للساسة والقادة، لأن فيها ضرباً من (مساماة الله) في عظمته وجبروته، يقول الإمام في ذم هذه الصفة، وضرورة تهذيب الأنفس عنها، مخاطباً الأشتر، ناصحاً إياه بالأبتعاد عنها:

((إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار، ويهين كل مختال))[1].

ولابد أن يعي الحاكم أو الوالي، أن كل إحساس بالعظمة أو الأبهة لديه، فهي أقل بكثير من عظمة الله وجبروته وله أن يستشعر بتلك العظمة التي هي فوق كل عظمة، وأعلى من كل علياء.

يقول الإمام في وصف هذا المعنى للأشتر:

((وإذا أحدث لك، ما أنت فيه من سلطانك، أبهة أو مخيلة، فأنظر إلى عظم ملك الله فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك))[2].

ويرى الإمام أن في التكبر (التكبر والغرور بالنفس) إنحرافاً عن الحفيظة والتعقل، وهو نقيض الصواب ورفعة الألباب، وإن من روادع الغرور تقوى الله

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤٦١.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦١.

ومخافته، والإستكانة إليه في كل الأحوال والمواقف، ولنا أن نقف عند هذه الفكرة من وصية له (عليه السلام) أوصى بها شريح إبن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام:

((أتق الله في كل صباح ومساء، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولا تأمنها على حال، وأعلم أنك إن لم تردع نفسك عن كثير من الضرر، فكن لنفسك قانعاً رادعاً، ولنزوتك عند الحفيظة واقماً قاصعاً)) [1].

وقد يصيب الوالي، أو الحاكم شيئا من نعم الدنيا فيأنس بها ويرتفع بنفسه عن رعيته،وتلك النعمة وذلك الخير الذي أصابه من الله، زائل، فان، ويبقى حسن الثواب وعاقبه العمل الصالح، في رضى الرعية، واستجلاء حقوقهم وتأديةواجباتهم، فمن الخير التسامي عن الغرور والترفع على عامة الناس من الفقراء والمساكين وذوي الحاجات يقول الإمام (عليه السلام)من الكتاب له إلى أمرائه على الجيوش:

((فان حقا على الوالي أن لا يغيره على رعيته فضل ناله، ولا طول خص به، وان يزيده ما قسم الله له من نعمه دنوا من عباده،وعطفا على إخوانه)) [2].

وإن الوالي أو الحاكم إذا انقاد خلف أهوائه وتوارى وراء رغباته كان ذلك ابتعادا منه عن العدل، ومنعا له عن الإنصاف يقول الإمام، في هذا المعنى من كتاب له إلى الأسود بن قطبية صاحب حلوان:

((أما من العدل فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء فانه ليس في الجور عوض من العدل، فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابذل نفسك فيما افترض الله عليك راجيا ثوابه، ومتخوفا عقابه)) [3].

---

(١) م. ن، ج٣، ص٤٨٣.

(٢) نهج البلاغة، ج٣،ص٤٥٦.

(٣) م. ن، ج٣، ص٤٨٥.

وان إنحراف النفس عن جادة الإنسانية، واماطتها عن التسامح والتصالح مع الناس والمجتمع،كفيل بان يضع النفس موضع الهلكة والتسلط والسيطرة على حقوق الناس بالظلم الاستبداد، ومن هنا كان لابد أن يستشعر الوالي أو الحاكم، بروابط الإخوة الإنسانية، وأواصر الصلات الاجتماعية، والانتماء الخلقي الواحد للرب الواحد وأن العفو عند المقدرة، أجدى من العقوبة، إذا لم يكن فيها إضرار بالمصلحة العامة للمجتمع وان الرعية،التي هي في عهدة واليها وراعيها، الذي ولاه الله أمورها،واستكفاه إدارة شؤونها ومصالحها هي أحوج ما تكون إلى العفو والصفح، وكما إن الخلق بحاجة إلى صفح الله وعفوه ورحمته، وليس من كمال العفو، والصفح الندم والتبجح بالعقوبات، فان فيهما أفساد للقلب، وإضعاف للدين، والحق، وطعن في المبادئ الإنسانية، يقول الإمام (عليه السلام) في هذا المعنى:

((ولا تندَ منّ على عفو، ولا تبجحنّ بعقوبة ولا تسرعنّ إلى باردة وجدت منها مندوحة، ولا تقولنّ إني مؤمّر أمر فأطاع فان ذلك أدغال في القلب، ومنهكة للدين وتقرب من الغير))[1].

من النوازع النفسية الخبيثة، التي كرهها الله ورسوله في ولاته وقادته، هي (صفة النفاق) وقد استهجنها الإمام، وأوصى قادته، وولاته بتجنب هذه الصفة والابتعاد عنها يقول الإمام في معرض استهجانه ومقته للوالي أو الحاكم المتصف بهذه الصفة والذي من المفترض، إن يكون قدوة للناس في اتجاهاته الذاتية، وظواهره السلوكية، قال الإمام (عليه السلام)، قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦٠-٤٦١.

((إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً: أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه، وأما المشرك فيقمعه الله بشركه، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان، عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويفعل ما تنكرون))[1].

وإن من مظاهر خبث النفس، وانحرافها عن جادة الصواب، هو في (ظلم الرعية)، ويندرج هذا الظلم تحت عدة عناوين وتحت عدة أشكال. وقد يكون في (التمييز) بين الرعية وطبقاتها الاجتماعية أو يكون في سرقة أموال الضعفاء والمحتاجين من الرعية أو قد يكون عبر سفك الدماء واستباحة الأرواح بلا تبرير ولا موجب لذلك أو قد يكون عبر استباحة الحريات وتقييد الآراء. وفي أي من هذه المظاهر، فهنا تتجلى بشاعة الجريمة والظلم والاستبداد. يقول الإمام (عليه السلام) مخاطباً الاشتر:

((أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدحض حجته وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله، وتعجيل نقمته، من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد))[2].

ثم يحذر (عليه السلام) من عاقبة (سفك الدماء) ظلماً وغدراً وعدواناً، بلا حق:

((إياك والدماء، وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لنقمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله))[3].

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤١٥.

(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦١.

(٣) م. ن، ج٣، ص٤٧٨-٤٧٩.

ولا عذر لمن ارتكب القتل العمد، أما إذا لم يكن عن عمد، بل وقع عن إفراط في عقوبة، بالسوط كانت أو بالسيف، أو باللكمة وأدت إلى القتل الخطأ، فلابد حينذاك أن تؤدى دية القتيل إلى ذويه وهذا ما نلمح دلالاته في قوله (عليه السلام):

((ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد لأن فيه قود البدن، وإن أبتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك، أو سيفك، أو يدك بعقوبة فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم))[1].

٣- الإصلاح الفكري للهيئة الحاكمة:

لقد آمن الإمام (عليه السلام) بضرورة لابد منها في سبيل إنجاح المهمة السياسية للوالي أو الحاكم، فضلاً عن الإصلاحات الذاتية (الروحية والنفسية) والتي طرحناها قبلاً، فلابد إذن من توسيع آفاق الفكر والمعرفة والحكمة لدى السياسي أو القائد لما لهذا الجانب من أهمية، كونه هو المسؤول الأول عن الرعية ومن ضمن شؤون الرعية هو في (إحياء الجانب المعرفي والجانب العلمي، وبث الوعي والحكمة وآفاق الاستبصار لدى هذه الرعية).

وبقدر ما تحتاج الرعية إلى المأكل والملبس فهي بحاجة ماسة إلى نوع من التعليم، والى نمط من التثقيف والتأديب الفكري.

وإن الراعي لم يكن ليتواصل مع الرعية ويساعدها على النهوض والارتقاء فكرياً وعلمياً ومعرفياً، ما لم تكن له خلفية معرفية، ورؤية فكرية، وأسس علمية تمثل نوعاً من الترتيب المنهجي، الذي يشكل الدافع، والوازع للتعامل الراقي مع مختلف الوظائف والمهمات والواجبات المناطة به. والملقاة على عاتقه كونه قائداً

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٩.

وقدوة للمجتمع، وهو الإداري الذي يدير الشؤون المختلفة للمجتمع، وبالتالي فهو العقل المدبر، وهو الخاصية الفكرية المسيرة للمجتمع. وهو المحور الذي تدور عليه حلقاته وطبقاته وهو السراج الوضاء الذي يمده بالغذاء الروحي والفكري،

يقول الإمام (عليه السلام): ((من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم)) [1].

وبهذا فالإمام يرى أن المقدمة المعرفية والرؤية الفكرية التي تقود السياسي، تمثل وازعاً للعمل والإقدام، ونزعة منهجية، للتدبير والإدارة، يقول الإمام في معرض هذه الفكرة:

((لا تجعلوا عملكم جهلاً، ويقينكم شكاً، إذا علمتم فأعلموا، وإذا تيقنتم فأقدموا))[2].

ولأن الفكرة هي روح العمل، كما يكون المعنى من اللفظ، فلا بد للعمل من تخطيط معرفي، تخطيط فكري وعلمي وأن السياسي الواعي العاقل، هو من يتدبر أمور الدولة، يدير شؤونها بثقة وعزم مسترسلاً بدوافعه المعرفية، ومستزيداً بنزعته الفكرية والروحية.

فالسياسي العاقل هو: ((الذي يضع الشيء مواضعه))[3].

وإن المقدمة المعرفية للحاكم هي بمثابة الذخيرة للسلوك الصحيح وخصوصاً فيما يتعلق بأمور الحكم بين الرعية، يقول الإمام في صفة الحاكم الجاهل:

((لا خير في الصمت عن الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل)) [4].

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٥١٨.

(٢) م. ن، ج٤، ص٥٦٢.

(٣) م. ن، ج٤، ص٥٤٩.

(٤) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٤١.

ويرى الإمام ضرورة إطاعة الوالي العالم، الذي يكون موضع ثقة الرعية، بحكمه ومعرفته وعلمه.

يقول الإمام:

((عليكم بطاعة من لا تعتذرون بجهالته))[1].

ثم يقول الإمام في معرض هذه الدلالة والاعتصام بحكام العلم والمعرفة، ممن لا ينطقون عبثاً، ولا يعملون شططاً:

((اعْتَصِمُوا بِالنِّعَمِ فِي أَوْتَادِهَا))[2].

ولنقف الآن عند هذا النص للإمام من عهده للأشتر، ناصحاً إياه، بمدارسة العلماء، ومنافثة الحكماء، وما لهذا من أثر في إيقاظ النزعة التوعوية لدى الحكام، وضرورة متابعة القائد أو السياسي للعلماء والصالحين، من أبناء المجتمع، والانفراج عن رموز الجهل والضلال والشبهات.

يقول الإمام (عليه السلام):

((وأكثر مدارسة العلماء، ومنافثة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك))[3].

٤- الإصلاح السلوكي للهيئة الحاكمة:

أوضحنا في مباحث سابقة، أهمية الإصلاحات الذاتية (الروحية والنفسية والفكرية، للهيئة الحاكمة، وأن هذه الإصلاحات الباطنية هي عصب الأساس، والمقدمة الإنتاجية، لنمط السلوك، والدافع الأساس والأهم في النتاجات السلوكية الظاهرية.

---

(١) م. ن، ج ٤، ص ٥٣٨.

(٢) م. ن، ج٤ ، ص ٥٣٨ .

(٣) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٦٤.

وإن تحديد نوع التصالح الروحي والنفسي والفكري مع الله، ومع المعتقدات الأساسية، وإيجاد نوع من الترابط بين هذه النوازع وبين العقيدة، كمبدأ، وكمنطلق دليل على قوة الشخصية الباطنية، ودليل على استقرار الوجود الذاتي الشخصي الاجتماعي، ولا يخفى على الجميع ما لهذه القوة الباطنية الذاتية، من آثار سلوكية، ونتائج اخلاقية محمودة، تمثل أبعاد الشخصية الاجتماعية التعاملية للسياسي مع الرعية ومع النظام المطروح كمنهج للإصلاح.

فالإمام يرى أن ذروة النجاح سياسياً هو، في إيجاد نوع من التوافق والتصالح بين الإصلاح الذاتي الباطني، وبين الإصلاح الذاتي الظاهري في السلوكيات (ألقولية والفعلية). ومن استطاع الوصول إلى هذه المرحلة، من التوافق بين البواطن والظواهر، من القادة أو الساسة، فهذا هو من أدرك السياسة الناجحة الرشيدة، التي تتجلى بأبهى صورها عبر أداء الأمانة، وتحمل المسؤولية، وخدمة الرعية بإخلاص وتفان.

يقول الإمام في معرض هذه الفكرة ومن كتاب له إلى بعض عماله:

((أمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيات عمله، حيث لا شهيد غيره، ولا وكيل دونه، وآمره أن لا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر، ومن لم يختلف سره وعلانيته، وفعله ومقالته، فقد أدى الأمانة، وأخلص العبادة))[1].

وينطلق الإمام بهذا الاستنتاج، عن فكرة كون المسؤول، يتعامل، مع مجتمع، مع أفراد، مع بشر، بالدرجة الأولى، وهم ذوو أحاسيس ومشاعر، واحتياجات اقتصادية وثقافية ومعنوية وإنسانية وبالتالي فإن تلك الملامح السلوكية، والآثار

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤١٢.

الأخلاقية، الماثلة في الشخصية الظاهرية الطافية على سطح الواقع السياسي، الذي يتفاعل ويتعامل مع الرعية.

تمثل الأبعاد الحقيقية للسياسة الرشيدة، التي أداها الإمام. لأن السياسي الذي يعمد إلى إصلاح وتطهير بواطنه الذاتية، يعمل على تهذيبها والارتقاء بها روحياً وفكرياً ونفسياً، لابد من أن يحقق نجاحاً ملحوظاً على مستوى سلوكياته الاجتماعية، وبالتالي نجاح سياسته مع المجتمع، ومع الأنظمة، والقوانين، أي نجاح العملية الإدارية في تنظيم المجتمع والسير به نحو الصلاح.

الفصل الرابع

رسالة الإصلاح الاقتصادي
بين الواقع النظري والواقع العملي

- المبحث الأول: الإصلاح الاقتصادي والواقع النظري
- مذهب الإسلام الاقتصادي والنظام الاجتماعي
- الإصلاح الاقتصادي في رؤية الإسلام
- الإمام (ع) ورؤية الإصلاح الاقتصادي

- المبحث الثاني:- الإصلاح الاقتصادي والواقع التطبيقي
- سياسة التطوير الاقتصادي بين الإنتاج والتوزيع
- المستوى الأول:- الإنتاج
- ١- الإنتاج الزراعي
- ٢- الإنتاج الصناعي والتجاري
- المستوى الثاني:- التوزيع
- سياسة التوزيع والبعد الروحي
- سياسة التوزيع ومبادئ التعادل والتكافل الاجتماعي
- الزكاة والصدقات وإبعادها الاجتماعية
- سياسة الإمام في إصلاح الهيئة القائمة على إستحصال الإيرادات وتوزيعها.
- منهج الإمام في استحصال الإيرادات (الجباية)
- سياسة الإمام الاقتصادية والإصلاح الاجتماعي

المبحث الاول:

مذهب الإسلام الاقتصادي والنظام الاجتماعي:

لو أردنا إن نضع عبارة أو تعريفاً موجزاً للإسلام في فلسفة واحدة، أو فكرة واحدة، أو كلمة واحدة، وباختصار وإيجاز، فنحن نعتبر الإسلام عبارة عن ثورة شاملة في مختلف مراحل الحياة، وعلى كل الأنظمة الوضعية، التي كانت تحكم العالم الإنساني، ولا زالت برؤية ناقصة، وبأطروحة جزئية، غير واضحة وغير متكاملة.

جاءت هذه الثورة كأطروحة تكاملية، وكتعبير شامل، بنظام شامل جديد يعمل على تسيير الحياة، وتنظيم الوضع الاجتماعي،وفق رؤية شمولية تتناسب مع تفاصيل الواقع، بكل متعلقاته وجزئياته.

وكانت الغاية سامية ونبيلة، وفي خلق مجتمع أنساني بمعنى هذه الكلمة الكبيرة العميقة في دلالاتها ومعانيها. فالإسلام أراد أن يخلق الإنسان من معطيات الإنسان، الذي تلاشت واضمحلت معالم إنسانيته في غياهب الثورة المادية. إن يصنع فيه حضارة جديدة، وفق أفكار جديدة، وفق مبادئ وقيم وأخلاق وسلوكيات جديدة مثالية، تسمو إلى درجة الكمال والانسجام، في أن الإنسان لابد أن يكون إنساناً، إنساناً في روحه، وفي تفكيره، وفي تنظيم حياته، وترتيب علاقاته، وفي انتقاء ثقافاته، وفي طرائق كسبه، واستحصال معاشه وغذائه، وفي كل مرافق حياته.

ومن هنا كان التغيير الاقتصادي مطلوباً جدا في هذه الثورة، لما لهذا الجانب من آثار في الارتقاء بالأفراد، ورفع مستوى التفكير والتعليم والاكتساب الأخلاقي لديهم، فلا يمكن الوصول إلى مرحلة رقي اجتماعي، بلا إيجاد رؤية اقتصادية تنظّم الحياة ألمعاشيه للأفراد، وتمنحهم الطريقة الاكتسابية، ومن هنا و((على هذا الأساس لا يمكن أن نتصور مجتمعا دون مذهب اقتصادي لأنّ كل

مجتمع يمارس إنتاج الثروة وتوزيعها لابد له من طريقة يتفق عليها في هذه العمليات الاقتصادية، وهذه الطريقة هي التي تحدد موقفه المذهبي للحياة الاقتصادية)) (١).

وكانت للإسلام رؤيته في إيجاد مذهب اقتصادي، يتجسد كأطروحة، وكمنهج، وكتنظيم، وكطريقة، تتبع من قبل الساسة والحكام والولاة، وكرؤية عملية تطبيقية لهذا المنهج من قبل الرعية والإفراد، الذين يمثلون المجتمع الإسلامي بكل طوائفه ومستوياته واتجاهاته، ومما لاشك فيه ((أن اختيار طريقة معينة لتنظيم الحياة الاقتصادية ليس اعتبارا مطلقا، وإنما يقوم دائما على أساس أفكار ومفاهيم معينة، ذات طابع أخلاقي عملي أو أي طابق آخر. وهذه الأفكار والمفاهيم تكون الرصيد الفكري للمذهب الاقتصادي القائم على أساسها)) (٢).

ولهذا جاء الإسلام حاملا لأطروحة نظام اقتصادي (تحدد فيه واجبات الدولة الإسلامية تجاه المجتمع وتجاه الفرد في مجال (مستوى المعيشة) أو مجال ضمان الحد المطلوب للنسبة بين مستويات معيشة الأفراد في المجال الاقتصادي)(٣).

واعتمد المذهب الاقتصادي للدولة الإسلامية على ((أساسين رئيسيين تقوم عليهما سياسة الدولة الإسلامية، هما (التكافل والتعادل))) (٤).

التكافل والتعادل الاجتماعيين، مبدأين أساسيين ورئيسيين في سياسة العمل الاقتصادي النابعة من واقع الإسلام، ورؤيته المتوازنة للحياة، وبعمومية تفاصيلها، ودقة مفاصلها. وجاء العمل بهما كقوام للاقتصاد، وهيكل، للتنمية

---

(١) اقتصادنا، للسيد محمد باقر الصدر، ج ١، ص ١٩.

(٢) م. ن، ج ١، ص ١٩.

(٣) ينظر الدولة الإسلامية دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية، محمد علي التسخيري، ص ١٩٦.

(٤) م. ن، ص ١٩٦ - ١٩٧.

والتطوير،وجاء العمل بهذين المبدأين كمنهج، يشكل منطلقاً للعمل الاقتصادي، واسع النطاق، عميق الأهداف، وجاء العمل بهما متصلا إذ لا يمكن الفصل بينهما كمنطلق نظري، وكمستوى عملي، وهما ينبعان عن رؤية موحدة، ويهدفان إلى غاية موحدة، رؤية موحدة في ضرورة إيجاد حل عادل للمشكلات الاقتصادية، التي تواجه المجتمع، وغاية موحدة تهدف إلى صنع مجتمع متكامل ومتوازن اقتصاديا، متكافئ اجتماعيا.

والتكافل الاجتماعي، هو الركن الأول المهم من واجبات الدولة، يتخلص في فكرة كون (الدولة ضامنة نيابة عن المجتمع في توفير الحاجات الضرورية والعرفية للأفراد حتى يصلوا إلى مستوى الغنى وتامين أفضل الحالات الممكنة للحياة الاجتماعية) [1].

وكانت هذه هي حقيقة العمل الاقتصادي في عهد الرسول، الذي آمن بضرورة إيجاد حل اقتصادي، تتكفل به الدولة الإسلامية، لمواطنيها، وأفراد مجتمعها، في توفير فرص العمل، وتهيئة العطاء اللازم لكل فرد من إفراد المجتمع، وصولا إلى إيجاد صورة اقتصادية لامعة للمجتمع الإسلامي، صورة واحدة، صورة منسجمة بين الأفراد، صورة خالية من التمايز الطبقي، والتباين الاجتماعي، وهذا هو مبدأ التعادل الاجتماعي وهو الركن الثاني المهم من واجبات الدولة.

وان من أهم المبادئ، التي اعتمد عليها الاقتصاد الإسلامي، هو حق الناس، في التنعم بأموال الله المتوفرة في الطبيعة، واستغلالها والاستفادة منها، وان الأموال التي في أيدي طبقة معينة من الناس، ما هي ألا حق من حقوق الله، ولابد من تمكينها لهم، وإيصالهاإليهم.

---

(١) ينظر الدولة الإسلامية، دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية، ص ١٩٧ - ١٩٨.

الإصلاح الاقتصادي في رؤية الإسلام:

كان من أولويات الدولة الإسلامية، هو في إحياء الجانب الاقتصادي، ومحاولة إنعاش الرعية اقتصاديا، عن طريق عدة وسائل واتجاهات تكفل التوازن الاقتصادي بين إفراد المجتمع، وفي كل البلدان والأمصارالإسلامية، فالإسلام ينظر إلى ((أن الاقتصاد له الأهمية الكبرى في السياسة، وكلما كان التوازن الاقتصادي اقوى كانت السياسة أكثر سدادا ورشدا)) [1]. وقد كانت لسياسة التوازن الاقتصادي، التي أنتهجهاالإسلام في عهد الرسول أثرها البالغ في تحسين الوضع الاقتصادي للدولة، والوضع ألمعاشي للأفراد، وكان من أهم مبادئ السياسة الاقتصادية في الدولة الإسلامية، هو في إيجاد نوع من المساواة في العطاء، أي إحياء مبادئ العدالة الاجتماعية، في إيرادات الخراج، الزكاة والصدقات، وتوزيعها بشكل متساوٍ، وكان هذا هو أهم مبدأ فضلا عن مبدأ التكافل الاجتماعي بين الأفراد، فللفقراء حق في أموالالأغنياء، والتي هي من نعم الله عليهم، وكان عليهم أخراج بعض منها للفقراء، والمساكين، والأيتام، من إفراد المجتمع، يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذه الدلالة: { إن لله في كل نعمة حقا، فمن أداه زاده منها، ومن قصر فيه خاطر بزوال نعمته }[2]. فكانت هذه هي رؤية الإسلام للأموال، التي في أيدي الطبقة القوية من الرعية، الطبقة المتنفذة المتزعمة، وإنها مال صرف لله، وهي من حقوق الله، التي لا ينبغي احتكارها عند طبقة معينة، وإذن فالمال الذي بين المؤتمنين، ما هو ألا ودائع ادخرها الله لديهم، وأمرهم بصرفها أو صرف بعضا منها إلى فقراء الأمة، ومحتاجيها، وذوي العاهات، والمساكين، وان الظروف الاقتصادية، التي عصفت بالأمة بعد وفاة

---

(١) السياسة من واقع الإسلام، السيد صادق الشيرازي، ص ١٥٤.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٥٠.

الرسول، إلى حين تولي الإمام زعامة الأمة، ما هي ألا ضربٌ من إهمال هذه السياسة الرشيدة في اقتسام الأموال، وتصريفها بالحق، وبما أمر الكتاب والسنة النبوية، فضلا عن إهمال مبادئ التكافل الاجتماعي بين إفراد الرعية، وان حالة الفقر، التي شهدها العالم الإسلامي وعلى الخصوص في عهد عثمان، ما هي ألا نتيجة استئثار طبقة معينة من الناس، من ولاة وحكام، وأمراء، ومتنفذين، في أموال الدولة، واقتطاع الأراضي والاستزادة منها، والانتفاع بخيراتها، دون الطبقة الفقيرة العامة من المجتمع الإسلامي - يقول الإمام (عليه السلام) في معرض التأكيد على هذه المعاني وأهمية إيجاد نوع من التكافل الاجتماعي، بين الأغنياء والفقراء، في سبيل إحياء حالة التوازن الاقتصادي بين الطبقات الاجتماعية، وإزالة الفوارق الاقتصادية. يقول (عليه السلام):

{ إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير ألا بما متع به غنيّ، والله تعالى سائلهم عن ذلك }[1]. ومن هنا فان الإمام يرى ((أن عدم التكافل والتكافؤ استرسال الأغنياء بالمتع والكماليات مع وجود الفقراء الذين لا يستوفون حاجياتهم الضرورية)) [2].

ومن هنا فـ ((ليس لله في مال الفرد أن يستخلصه لنفسه، ولكن الإسلام اعتبر حق الله هو كل ما فرضه الشرع للمجتمع من ضرائب، وهي لبيت المال توزع على الرعية بالعدل)).

وكانت هذه هي خلاصة الرؤية الإسلامية، في مبادئ التكافل الاجتماعي الذي يحقق نوعا من التوازن ألمعاشي، وبالتالي هو إحقاق لنوع من التساوي الاجتماعي، الذي يقضي على مبادئ الطبقية، والتمايز التي كانت سائدة في عصر ما قبل الإسلام، وكان من أهم أهداف السياسية الاقتصادية في الإسلام،

---

(١) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٧١.

(٢) ملامح من عبقرية الإمام، ص ٧٩.

هو في القضاء على هذه المبادئ الجاهلية، والنهوض بالمجتمع ككتلة واحدة، ومستوى واحد، ومعاش واحد، بلا تفاضل وبلا تمييز وبلا ألقاب وبلا طبقية.

الإمام (عليه السلام) ورؤية الإصلاح الاقتصادي:

كانت للإمام علي (عليه السلام) رؤية اقتصادية مستمدة من واقع الإسلام، وفي ضوء الرؤية الإسلامية للمذهب الاقتصادي وللتطوير والإصلاح والنهوض بالواقع الاجتماعي، عبر الارتقاء بالواقع المعاشي للأفراد. وصولا إلى المجتمع. والى أعلى المستويات، وفي كافة المجالات (الصحية والثقافية والفكرية) على اعتبار أن هناك قاعدة معروفة تقول: ((الكرامة الاقتصادية تورث الكرامة الاجتماعية))[1].

وتجسدت هذه الأطروحة في مختلف أبعدها، في هذه العبارة الحكمية للإمام (عليه السلام):

{ الفقر الموت الأكبر }[2]. ومن طرائف حكم الإمام في مقت الفقر قوله (عليه السلام): { الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة }[3]. وطالما كان الفقر حالة من التخلف عن الركب، التخلف عن سير المجتمعات النامية المتطورة، لان الفقر حالة من الركون إلى مستوى واحد، وعلى نمط واحد، تكون معه الأمور غير قابلة للنمو، والتطور غير قابلة للتغير، أو تكون قابلة للتغير لكن إلى الأسوأ. وطالما كانت حالة الانتعاش الاقتصادي للبلدان وللمجتمعات، مستوى تطوري وواقع توعوي، وارتقاء فكري، ورقي اجتماعي، وطالما أعقب الفقر حالات اجتماعية، وانحرافات سلوكية، يستهجنها الإسلام والعرف الاجتماعي. وغالبا ما تقترن حالة الفقر عند الشعوب بحالات الجهل، والنقص الفكري، والنقص الأخلاقي، والانحراف السلوكي لان المادة لها موقعها من الواقع، لها علاجاتها لها حلولها، واعتبارها فالمادة كفيلة بان تضع الحياة الحرة الكريمة للمرأة ولليتيم وللمساكين وللضعفاء، وخصوصا إذا ما اقترنت هذه المادة بالعمل

---

(١) السياسة من واقع الإسلام، ص ١٥٩.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٣٩.

(٣) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥١٧.

الصالح، وبالعمل الصائب المدفوع بدفعة إسلامية، وبنزعة إنسانية كانت النتائج المطلوبة كانت الصورة المطلوبة، الصورة التي تقترن فيها المبادئ مع الانتعاش الاقتصادي، المبادئ والقيم الروحية والإيمانية والفكرية والإنسانية، مع المال الذي يكفل النهوض بالإنسانية وعلى كافة المستويات.

يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذا المعنى لابنه محمد بن الحنفية:

{ يا بني إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فان الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت) [1].

(١) م. ن، ج٤، ص ٥٩٦.

المبحث الثاني:
الإصلاح الاقتصادي والواقع التطبيقي:

كانت لقيادة الإمام علي (عليه السلام) للأمة الإسلامية وتولي زمام السلطتين التشريعية والتنفيذية دورهُ الفعال في إحياء سنن الإصلاح، وبيّنا في مباحث سابقة دور الإمام الفعال في إحياء سياسة التغيير وعلى كل المستويات (الروحية، والنفسية، والسياسية) واستطاع الإمام عبر تسلم الوظيفة القيادية في نواحيها السياسية والاقتصادية، وبوصفهما المنفذ الأساس والأسلوب الأكثر فعالية الذي تمارس من خلالهما الوظائف الأخرى (الروحية، والنفسية، والأخلاقية، والثقافية، والفكرية). فقد استطاع الإمام بواسطة وظيفته السياسية إن ينفذ إلى المجتمع، ويتصل به اتصالا مباشرا أو غير مباشر، معاينا ومقوما ومعالجا، مستفيدا من إمكانياته القيادية والروحية والشخصية مستغرقا في فكره الإصلاحي التقويمي، ولعل أهم هذه الجوانب الإصلاحية يتجسد في تحسين ورفع المستوى الاقتصادي للبلاد الإسلامية ولعل الإمام نجح في توجيه سياسته الإصلاحية ودفعها نحو الإمام. والتقدم بها في سبيل إحياء مجتمع متماسك ملتزم بالقوانين، متجاوب مع النظام الجديد، متوازن فكريا وروحيا ومثاليا في سلوكياته وأخلاقياته الحميدة الفاضلة.

وقد كانت الوظيفة القيادية للإمام علي في تسيير الأمور الاقتصادية تمثل ((مسؤولية ضخمة خصوصا إذا لوحظ الدور الاجتماعي العام الذي يجعله الإسلام على عاتق الإمام أو الدولة الإسلامية في لزوم قيامه برعاية كل الشؤون المادية والمعنوية التكاملية للمجتمع الإسلامي. وحينئذ فان هذه المسؤولية الضخمة التي تحملها الدولة الإسلامية تحتاج إلى إمكانات ضخمة أيضا)) [1].

---

(١) الدولة الاسلامية دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية، ص ٢٠٨.

ومثل الإمام في فترة خلافته مركزا للتوجيه الاقتصادي، فكان يضع المخططات ويرسمها بما أوتي من قدرات فكرية، وآفاق روحية عقائدية، فضلا عن الإمكانات التشريعية والقانونية المتوفرة لدية ومن ثم الاستفادة من الإمكانيات المادية والمالية المستحصلة عن طريق الإيرادات.

وقد استفاد الإمام من كل هذه الإمكانيات المتاحة في سبيل تحقيق توازن اقتصادي يمحو الفوارق الاجتماعية ويمثل رؤية مصغرة لقوانين العدالة الإلهية، التي ابتغى الإمام تطبيقها وإحياءها في نهجه الإصلاحي الاقتصادي وانصب عمله الإصلاحي على محو الآثار الانحرافية التي كانت موجودة قبل تولي الإمام زمام السلطة، آثار الانهيار الاقتصادي الذي اجتاح المجتمع الإسلامي وعبر تفشي حالة الفقر والمجاعة التي تجسدت في خلافة عثمان، والتي كان من أهم نتائجها ومظاهرها الاجتماعية، هو في نشوء ظاهرة (الطبقية) هذه الظاهرة التي استهجنها الإسلام، لما تجسده من تمايز طبقي اجتماعي بين فئات المجتمع الإسلامي، وقد نشأت هذه الظاهرة وتولدت نتيجة استئثار بعض الفئات الاجتماعية بالحقوق والمكاسب المادية والمعنوية، على حسابات فئات أخرى، وكانت هذه الفترة عودة جاهلية لمقررات نفاها واستهجنها الإسلام لما لها من خطوط تمييز وتفريق بين طبقة وأخرى. أو بين مستوى ومستوى آخر.

ولعل من أهم الخطوات، التي اتخذها الإمام في سبيل القضاء على ظاهرة (الطبقية) والتمايز الاقتصادي بين إفراد المجتمع هو في إحياء مبدأ مهم جدا ينص على التعادل والتكافؤ الاجتماعي بين الأفراد عن طريق مبدأ (التسوية في العطاء) وكان من أولويات السياسة الاقتصادية الإصلاحيةللإمام في إحياء هذا المبدأ وكان الإمام يروم بهذا أن يحيي سياسة المساواة والأنصاف بين الرعية هذا فضلا عن آثاره المعنوية والنفسية لدى الفقراء والمساكين والطبقة العامة من المجتمع، حين يستحصلون على حقوقهم وتكون لهم الأولوية على الطبقات الخاصة من المجتمع، فيمنح هذا المبدأإحساسا بالتساوي بين الجميع والحسار التمايز الطبقي،

وإحلال مبادئ المساواة الإنسانية لا فرق ين سيد وعبد، أو بين غني وفقير، أو بين عربي وأعجمي، ولنقف ألان عند هذه الخطبة التي خطبها الإمام (عليه السلام) حينما عوتب من قبل البعض على إحياء مبدأ (التسوية في العطاء) يقول الإمام:

((أتأمروني أن اطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله ما ا طور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجما. لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله!!))[1].

سياسة التطوير الاقتصادي بين الإنتاج والتوزيع:

وكان قوام عمل الإمام في مجال التطوير الاقتصادي ورفع المستوى ألمعاشي للمجتمع الإسلامي ينصب، ويندرج في مستويين وهما:-

المستوى الأول: الإنتاج

المستوى الثاني: التوزيع

المستوى الأول: الإنتاج:

كانت من أوائل اهتمامات الإمام في تشجيع الاقتصاد وتطويره والانفتاح به، هو في تشجيع ظاهرة الإنتاج واعتنى به عناية تفوق الجباية، واستلام الواردات. لان الإمام نظر إلى الإنتاج على انه مصدر الواردات، وهو الوسيلة الاستصلاحية الأكثر جدوى، والأولى بالاهتمام والرعاية. وكان الإمام يعمق روح العمل، روح الإنتاج، روح الإخلاص في نفوس أبناء المجتمع مستغلا موقعه، كقائد، إنسان، وكإمام، محاولاً أن يودع في هذا المجتمع حب العمل، حب الإنبات، حب الإيجاد، بدلا من الاستعطاء والاستجداء الذي تتبعه الكثير من السياسات الفاشلة. محاولا أن يوجد النظام عن طريق المجتمع وللمجتمع مؤمنا أن ((العقيدة

---

(١) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٢٠٩.

الإسلامية توفر أروع جو لتطبيق المذهب الحياتي المنسجم معها))[1]. لان العقيدة ((تدفع المسلم إلى التكيف وفقا للمذهب بوصفه نابعا من تلك العقيدة وتضفي على المذهب طابعا إيمانيا وقيمة ذاتية، بقطع النظر عن نوعية النتائج الموضوعية التي يسجلها في مجال التطبيق العملي))[2]. أراد الإمام أن يوظف الإحساس العقائدي والاستشعار الروحي لدى الشرفاء من أبناء المجتمع الإسلامي في سبيل إحياء بذرة العمل وإنضاجها وإثمارها، بما يكون كفيلا في الاكتفاء الذاتي الاكتفاء الذي يمنح الأمور استقرارها وتوازنها وثقتها بالواقع وبالعدالة وبالسلطة السياسية الحاكمة. أراد الإمام أن يضع بين يدي هذا المجتمع الذي فقد الثقة بنفسه فقد الثقة بحكامه ممن استساغوا أموالهم في سبيل السلطة والجاه والترف الدنيوي متجاهلين حقوق العامة من الفقراء لقد أراد الإمام أن يذيق هذا المجتمع طعم العدالة والاطمئنان المعيشي بالعمل الجاد، والإخلاص والتفاني لا بالتقاعس والجلوس وانتظار الحقوق والفرج وهو الذي يحث على العمل في سبيل الغاية: يقول الإمام (عليه السلام):

{ الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر }[3]وهو الذي يقول في أهمية العمل: {للمؤمن ثلاث ساعات، فساعة يناجي بها ربه، وساعة يرم بها معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل}[4].

ومن هنا كان الإنتاج هدفا اقتصاديا مهما ورئيسيا أراد به الإمام تقويم الواقع الاقتصادي للمجتمع، وتوجيهه وجهته الصحيحة في سبيل ((الاستفادة القصوى من الإمكانات المادية والبشرية المتوافرة وتوجيه كل الطاقات الفعالة

---

(١) الدولة الإسلامية، دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية، ص ٢٠٩.

(٢) اقتصادنا، ج ١، ص ٢٠٧.

(٣) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٧٢.

(٤) م. ن، ج ٤، ص ٥٨٤.

لغرض توفير كل ما يحتاجه المجتمع ليحيا حياة إنسانية كريمة وليقوم بواجباته الحضارية الإنسانية بل ليؤدي دورا طبيعيا في مختلف المجالات }[1].

(١) الدولة الإسلامية دراسات، ص ١٨٦ - ١٨٧.

مجالات الإنتاج بين التشجيع والتطوير:

١ـ الإنتاج الزراعي.

٢ـ الإنتاج الصناعي والتجاري.

١ـ الإنتاج الزراعي:

نظر الإمام (عليه السلام) إلى الزراعة على إنها العامل الإنتاجي الأهم والأوفر حظا بين المجالات الإنتاجية الأخرى، لان الزراعة هي الباب الأكثر توفيرا والأكثر إيرادا بما تزدان به من ثروات وكنوز فيما لو أستصلحت وتوجهت عناية العاملين لها، في استصلاحها والاهتمام بها وبعمارتها.

واعتبر الإمام إن رعاية الأرض واستصلاحها عمليا أمرٌ بالغ الأهمية ويكاد يكون أهم وأمر من الاهتمام بجمع المال والإيرادات المادية، كالخراج، لان الخراج والإيرادات المادية لا تكون ألا في عمارة الأرض والاهتمام بها.

ولنقف ألان عند هذا النص من عهد الإمام للأشتر يوصيه فيه بضرورة الاهتمام باستصلاح الأراضي والعناية بها لان هذا الاستصلاح هو السبيل، وهو الطريق إلى الإيرادات المادية (الخراج) فلا يكون الخراج واردا ألا باستصلاح الأرض وعمارتها:

{ وليكن نظرك في عمارة الأرض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لان ذلك لا يدرك ألا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، واهلك العباد ولم يستقم أمرهُ إلاّ قليلا } [1].

ثم يسترسل الإمام في نصحه بضرورة الاهتمام بحوائج المزارعين وتوفير المستلزمات الضرورية لهم وتسهيل الأمور عليهم بما هو المرجو لصالح أمر

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٧٠.

زرعهم وإنباتها واستصلاحها ويوصيه بان لا يستثقل مساعدتهم وتوفير ما ألزم لهم لان عمارة الأرض واستصلاحها إنما هو ذخر للدولة، وعمارة للبلاد، وتزيين للولاية، وحسن ظن الرعية بالوالي، والحكومة عموما وهذا في قوله (عليه السلام) مسترسلا في عهده للأشتر:

{ فان شكوا ثقلا، أو علة، أو انقطاع شرب، أو بالة، أو إحالة ارض أغتمرها غرق، أو أحجف بها عطش، خففت بها المؤونة عنهم، فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجحك باستضافة العدل فيهم، معتمدا فضل قوتهم }[1]. وإن الاهتمام بمستصلحي الأرض وزراعها أمر هو في غاية الأهمية لما يعود بالخراج، والإيرادات للدولة ولهم، فضلا عن كونهم ذخرا وقوة للوالي. وبما سيكون من حسن الظن والوفاء المتبادل بين الوالي وبينهم، وكلما قدّم الوالي من تسهيلات مادية ومعنوية وتموينية، فان الأمور ستعود بالنفع والفائدة على المجتمع والدولة ولان خراب الأمور يكون في ضنة الولاة على مستصلحي الأراضي وإعوازهم مما يصعب الأمور عليهم لما في نفوس الولاة من رغبات واتجاهات في جمع المال والاستحواذ عليه بدلا من تموينه لعمارة الأراضي ومستصلحيها وهذا ما ينتهي إلى قوله (عليه السلام):

{ معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم فربما حدث من الأمور، ما إذا عولت فيه عليهم من بعد، احتملوه طيبة أنفسهم به، فان العمران محتمل ما حملته، وإنما يؤتي خراب الأرض من اعوازأهلها، وإنما يعوزأهلهالأشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر } [2].

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٧٠.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

٢ـ الإنتاج التجاري والصناعي:

اعتبر الإمام أن التجارة والصناعة، من المجالات الإنتاجية المهمة، لأهميتها في تهيئة المستلزمات الاجتماعية الضرورية، ومن ثم تحقيق منافع اقتصادية، ولنقف ألان عند هذا النص للإمام من عهده للاشتر ألنخعي، يوصيه فيه بالتجار، وذوي الصناعات يقول الإمام (عليه السلام):

((ثم استوصي بالتجار وذوي الصناعات: وأوصى بهم خيرا: المقيم منهم، والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه فأنهم مواد المنافع وأسباب المرافق، وجلاّ بها من المباعد والمطارح، في برك وبحرك، وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس، لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فأنهم سلم لا تخاف بائقتهم، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك، وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك إن في كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا، واحتكارا للمنافع، وتحكما في البياعات، وذلك باب مضرة للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه واله منع منه، وليكن البيع بيعا سمحا، بموازين عدل، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكره، بعد نهيك إياه، فنكل به وعاقب في غير إسراف)) [1].

ومن هذا النص وفي ضوء ما جاء فيه من وصايا، واعتبارات لنا إن نخلص إلى مجموعة من النقاط المتعلقة بالإنتاج الصناعي والتجاري:

١- إن الإمام (عليه السلام) قد أولى الإنتاج الزراعي والصناعي أهمية كبيرة، بما لهذين المجالين الإنتاجيين، من أهمية في توفير المستلزمات المهمة وغير المتوفرة في مجتمع الأمة، والسفر عبر البلدان، وبما يتحملونه من مخاطر ومتاعب وجهود في سبيل إستحصال هذه المواد وتوفيرها للناس ممن لا طاقة لهم في السفر،

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٧٢ - ٤٧٣.

ولا إمكانية لهم في الحصول على هذه المواد، لذا كان للتجار والصناع دورٌ مهم في تأمين المواد والمستلزمات الاقتصادية المهمة للمجتمع.

٢- إن الإمام (عليه السلام)((ربط أولا بين الصناعة والتجارة وهي نظرية حديثة ومهمة جدا في مجال التخطيط الاقتصادي كما جعل الصناع والتجار من باب واحد وهو باب المدد الاجتماعي لتحقيق المنافع الاقتصادية إذ يضيف التاجر إلى السلعة إضافة إنتاجية حينما يجعلها في متناول الناس))[1].

٣- إن التجارة المنتجة والصناعة المثمرة هي ما يكون فيه منفعة للعامة، حين يكون الابتياع عملية عادلة ووفق أسعار لا تجحف بالبائع أو المبتاع، أما إذا تحولت التجارة والصناعة إلى منفعة خاصة لأصحابها من تجار وصناع عن طريق التلاعب بالأسعار واستغلال الناس واستغفالهم، حينما تتحول عملية المنفعة إلى (احتكار خاص) وهو من الأمور المحرمة شرعيا، افترض الإسلام عقوبات على من يتداولونها، ويصرفون أعمالهم بها وكان على الإمام في ظل الانحراف الاحتكاري، الذي يتداوله بعض التجار لكي يتوافروا على منافعهم الخاصة، إن يستوصي فرض العقوبات على ممارسيها، لكن بلا إسراف أو إجحاف بحقوقهم.

المستوى الثاني: التوزيع:

والمستوى الثاني الذي تتجسد به سياسة الإصلاح والتطوير الاقتصادي للإمام (عليه السلام) هو (التوزيع).

والتوزيع في ابسط معانيه هو اعتماد خطة اقتصادية تهدف إلى رفع مستوى المعيشة للفرد وبالتالي للمجتمع عموما. عن طريق القيام بتوزيع الإيرادات المالية والعائدات المادية، التي تستجمعها الدولة عن طريق الجباية، ومن ثم القيام بتوزيعها وفق آلية يحددها الإمام أو الوالي أو الهيئة الحاكمة. (والإيرادات المالية،

---

(١) الدولة الإسلامية، دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية ص١٩٠.

بما تشتمل عليه من أموال الزكاة، والخمس، والفيء، والجزية، والخراج) والعائدات المادية الأخرى، كالمستحبات والأنفال.

فالتوزيع هو آلية تتكفل بها الدولة (الهيئة المسؤولة عن توزيع العطاء) ولا تعنينا هنا مسالة الانخراط في تحديد آليات واستراتيجيات التوزيع المتبعة من قبل الدولة الإسلاميةآنذاك ولا النظر إلى سياسة الاقتصاد من جوانبها التنفيذية البحتة أو جوانبها الإستراتيجية البحتة، وما تبغي الوقوف عنده في سياسة التوزيع هو في توظيف الاقتصاد كوسيلة في بناء المجتمع والنهوض به وتطويره عن طريق رفع المستوى الاقتصادي وألمعاشي له.

وكيف اختلفت الرؤية الاقتصادية في سياسة التوزيع اختلافا جوهريا عن الخطط والاستراتيجيات والأهداف للسياسات السابقة عن الإمام في الوقت الذي تنهل وتستلهم وتهتدي بسياسة الرسول الاقتصادية مع بعض الاجتهاد والتطوير المتناسب مع عصر الإمام مجتمع ما بعد الانقلابات العقائدية والانحرافات النفسية والفتن الحزبية والطائفية.

سياسة التوزيع والبعد الروحي:

في ضوء ما تقدم فان الإمام كان يواكب جملة من التحديات الاقتصادية وقفت عائقا وحاجزا عن إحياء سياسة العدل الاقتصادي التي ابتغى الإمام توجيهها وتوظيفها في سبيل إيقاظ المجتمع عن غفوته وتكاسله واستغراقه في اللاّنظام اللاّمشروعية اللاّحقوقية.

وإذن فالمشكلة الحقيقية التي واجهت الإمام تمحورت على سبب واحد ألا وهو (انحراف المجتمع) نفسه هذا المجتمع المترامي الإطراف، المشتت، المقسم، كل يتبع سياسة هواه ورغباته الخاصة طائفة من الناكثين، طائفة مع معاوية، طائفة من متمردي الخوارج، ولم تبق ألا طبقة واحدة تقف مع الإمام في مسيرته التنموية التطورية، ولم تكن تلك الجماعة بمستوى طموحات الإمام أيضا، ولا بمستوى

خطط الإمام أو فكره الاستراتيجي التنموي، كان الإمام بحاجة إلى وقفه شجاعة من أبناء الأمة الشرفاء، كي تنجح الثورة، ينجح التغيير، وبالتالي فان المهمة الاقتصادية للإمام فضلاعن اهدافها في إحلال مبدأ التوازن الاقتصادي فهي تسعى إلى إحياء سياسة نفسية، وسياسة روحية، وسياسة عقائدية. لان المجتمع لن يتعادل ولن يتكافأ اجتماعيا ما لم يتحسس الواقع الروحي ما لم يستشعر الإخوة الإنسانية والفطرة الائتلافية أن المجتمع لن يتغير ما لم يسمح هو للتغيير، وان كان العمل وقفا على الإمام فلن يجدي نفعا. ولن يعطي نتائجه وثماره،الإمام أراد من المجتمع التواصل الروحي قبل التواصل المادي والتعاطف الإنساني قبل البذل المتكلف المادي المحسوب وفق حسابات المصالح والرغبات الشخصية الخاصة. وأن ينخلع الإحساس الاقتصادي عن الواقع المهني إلى الواقع الروحي والأخلاقي وأن لا يكون العمل الاقتصادي عبارة عن جباية أموال الأغنياء إجبارا وتكليفا شرعيا فقط بل يكون عن قناعة نفسيه وتسامح روحي وعن تكامل إيماني يوقن بان العدالة لابد أن تكون موجودة بين إفراد المجتمع الواحد، والدين الواحد، والإله الواحد، وأن يصبح المقياس هو التعادل هو التناصف هو المبادرة للعطاء هو التواضع للفقراء هو البذل الابتدائي لا أن تؤخذ الأموال عن طريق التنكيل والعقوبة والتهديد. أن تصبح الحياة مثالية في نظامها، الذي يسمو إلى التكامل والتلاحم والتواصل إلا إن الإمام كان يرى حجم الانحراف الذي استشرى الواقع في العهود السابقة عن خلافة الإمام حتى أضحت الرؤية ضبابية معتمة وبالغة الصعوبة لدى الكثير من أبناء المجتمع الإسلامي فتها ووا مع تيار الباطل متفرقين عن توجيهات الحقيقة والحق وذلك لان السلطة الحاكمة في عهد عثمان وما قبله انحرفت عن الجادة الصحيحة منحرفة بأبناء المجتمع حيث أقعدتهم مقاعد الضلال وألزمتهم درجات الباطل كما ألزمت نفسها به.

حيث كانت الأمة تعتاش ديناميكية الاستسلام للأهواء الشيطانية، والنزعات الانحرافية، والرغبات الذاتية، وكان من الصعب استجلاؤها عن هذا الواقع

الموبوء، واستقلاعها عما هي فيه من تآلف وتلاحم مع الباطل وإنماطه وتوجهاته والتباساته التي تشعبت وانبتت جذورها ومزارعها في كل مكان وفي كل بلاد من البلدان الإسلامية. وحتى لو تضافرت عوامل التغيير في (الهيئة الحاكمة) فكانت الصعوبة موجودة في بواطن النفوس ومفاصل القلوب وكان من الصعب انتزاع الحق من أنفس وضمائر جبلت على الانحراف واعتادت عليه.

يقول الإمام (عليه السلام) واصفا الهيئات الحاكمة المنحرفة قبل مرحلة تولي الإمام الزعامة:

{ أما بعد فإنما أهلك مَن كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروهُ وأخذوهم بالباطل فأقتدوهُ } [1].

وان المجتمع الذي أعتاش هوامش الحقيقة منحرفا عن الوقائع مختلفا إلى الولاة والقادة والأمراء والمنحرفين عبر التملق والتذلل في سبيل الحصول على المكاسب المادية أو المعنوية ما كان ليطأ أو ليعتلي منصة التغيير بين ليلة وضحاها وكانت المهمة بحاجة إلى وقت والى استقراء وعمل وجهود.

يقول الإمام (عليه السلام) واصفا المجتمع الإسلامي:

{ فان الناس قد تغير كثير منهم عن كثير من حظهم فما لوا مع الدنيا ونطقوا بالهوى، واني نزلت من هذا الأمر منزلا معجبا اجتمع به أقوامٌ عجبتهم أنفسهم فاني أداوي منهم قرحا أخاف أن يكون عَلَقا }[2].

سياسة التوزيع ومبادئ التكافل والتعادل الاجتماعية:

كانت لسياسة التوزيع التي اتبعها الإمام ديناميكية تهدف إلى إيصال الواردات المالية إلى أكثر عدد ممكن من أبناء المجتمع الإسلامي من ذوي الحاجة

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص ٥٠٣.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٥٠٢.

والفقراء والمساكين والأيتام والغارمين وابن السبيل، ولنا أن نستوثق هذا المعنى في قوله (عليه السلام) من كتاب له إلى بعض عمالة على الصدقات:

{ وان لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا وحقا معلوما، وشركاء أهل مسكنة، وضعفاء ذوي فاقة، وإنا موفوك حقك فوفهم حقوقهم، وإلا تفعل، فانك من أكثر الناس خصوما يوم القيامة، وبؤسا لمن خصمه عند الله الفقراء والمساكين والسائلون والمدفوعون والغارمون وابن السبيل }[1]. ونجد مصاديق هذه السياسة أكثر وتأكيدها في هذا الكتاب للإمام (عليه السلام) إلى قثم بن عباس وهو عامله إلى مكة:

{ وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله، فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة، مصيبا به مواضع الفاقة والخلات، وما فضل عن ذلك، فاحمله إلينا، لنقسمه في من قبلنا }[2]. وكانت من أولويات سياسة التوزيع، التي أنتهجا الإمام، إحياء مبدأي التكافل والتعادل الاجتماعيين وإيجاد حل لمشاكل الطبقة السفلى من طبقات الرعية، وكما وصفهم بهذا الوصف الإمام (عليه السلام) من (الفقراء والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى) وكان الإمام يوصي ولاته بضرورة الاهتمام بهذه الطبقة ورعايتها ماديا ومعنويا، وكان يوصي ويطالب بضرورة التواضع لهم والتجاوب مع مآسيهم ومناقشتها معهم وإيجاد الحلول الفعالة في استصلاحها، والاجتهاد في تأدية حقوقهم وأسهمهم و هذا ما نجد دلالاته واضحة في هذا النص من نصوص عهده للاشتر ألنخعي يقول فيه (عليه السلام): ((ثم الله الله في ألطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى فان في هذه الطبقة قانعا ومعترا، وأحفظ لله ما أستحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤١٣.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٩٥.

صوافي الإسلام في كل بلد فان للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر فانك لاتعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم لهم)) [1].

الزكاة والصدقات وإبعادها الاجتماعية:

وتكاد تكون مبادئ التكافل والتعادل، التي اعتمدها الإمام في تنشيط الاقتصاد الإسلامي للدولة وللرعية من أهم وأعظم المبادئ الاجتماعية ومن خلال التواصل بها حتى الانخراط في مرحلة التساوي النسبي بين الطبقات الاجتماعية. ومن هنا كان من اكبر أولويات الإمام هو تشجيع الطبقات المتمكنة اقتصاديا على إحياء وتحقيق هذا المبدأ عن طريق استخلاص شيءٍ من المال الخاص بها وتفعيله في سبيل إغاثة الطبقات الفقيرة، والمعوزة اقتصاديا وتكاد تكون الزكاة والصدقات من أهم أركان هذا المبدأ ومن أهم المجالات التي تتيح الفرصة للتكافل الاجتماعي، لما لها من آثار اقتصادية وآثار معنوية وآثار نفسية، ذلك حين اعتبرها الإمام قربانا للمجتمع الإسلامي، وكفارة عن الذنوب وحجازا واقيا عن نارجهنم فضلا عن الآثار الأخرى، المتحصله عنها والتي تكفل تحقيق ولو جزء بسيط، من ميزان التعادل، ميزان التساوي، والقضاء على مبادئ التمايز الطبقي، والناجم جراء اكتناز الأموال لدى جماعة أو طبقة معينة، وافتقارها وانعدامها، عند الطبقات الأخرى المعوزة اقتصاديا والمنبوذمنه اجتماعيا

يقول الإمام (عليه السلام):

{ ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قربانا لأهل الإسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها، فإنها تجعل له كفارة، ومن النار حجازا ووقاية، فلا يتبعنها احد نفسه،

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٧٣- ٤٧٤.

ولا يكثرن عليها لهفه، فان من أعطاها، غير طيب النفس بها، يرجو بها ما هو أفضل منها، فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر، ضال العمل، طويل الندم }[1].

ومن هنا كانت الزكاة هي ((كثرة الطية والطهارة أو كثرة الخير وزيادته يعني كثرة أي شيء يمثل جانب الخير في هذا الكون)) [2]. ولهذا كانت آثارها اقتصادية ومعنوية ونفسية.

فالإمام (عليه السلام) يرى في الزكاة مردودات نفسيه تتجسد في كون الزكاة سبيلاً لإخراج التكبر عن قلوب الناس، فضلا عن البغي والظلم، ويعتبر إن في فرض الزكاة على المسلمين، وجعلها ركنا من أركان الإسلام هدفا ألهيا وغاية تتلخص في كونها نوعاً من التطهير، تطهير النفس عن البغي، عن الظلم عن الكبر وعن الفخر وخصوصا فيما يتصل بالأغنياء والطبقة المترفة من المجتمع. لان الغني لابد له من قوة جاذبة قوة تمنحه بعض الإذلال والتواضع الذاتي والانكسار النفسي قوة تمنحه بعض الخشوع في الله، وخلع جلباب الكبرياء والقسوة والجبروت. ولذلك أصبحت الزكاة بابا من أبواب الابتلاء الإلهي، والاختبار الذي تختبر فيه طاقات الناس الإيمانية حيث يميز الخبيث من الطيب وبهذا تكون الزكاة نوعا من أنواع المجاهدات والابتلاءات الدنيوية التي فرضها الله على الناس إخراجا للتكبر من قلوبهم وإحياء للتواضع في نفوسهم.

ولنقف ألان عند هذه الخطبة للإمام نجد فيها مصداقاً ودلالة واضحة على الأفكار التي طرحناها بخصوص أهمية الزكاة وكما يقول الإمام (عليه السلام)

{ ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكارة، أخراجا للتكبر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواب فتح إلى فضله، وأسبابا ذللا لعفوه }[3].

---

(١) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٢) فقه الأخلاق، السيد محمد محمد صادق الصدر، ج ٢، باب الزكاة، ص ٣.

(٣) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٢١.

فيكون في تأدية الزكاة جهاد للنفس وتطهير لها وكما يقول الإمام (عليه السلام):

{ فالله الله في عاجل البغي، وآجل وخامة الظلم، وسوء عاقبة الكبر، فأنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى التي تساور قلوب الرجال مساورة السموم فما تكدي أبدا، ولا تشوي أحدا، لا عالما لعلمه، ولا مقلا في طمره، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات تسكينا لأطرافهم، وتخشيعاً لإبصارهم، وتذليلا لنفوسهم، وتخفيضا لقلوبهم، وإذهابا للخيلاء عنهم، لما من ذلك من تعفير عتاق الوجوه بالتراب تواضعاً، والتصاق كرائم الجوارح بالأرض تصاغرا، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللا، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الأرض، وغير ذلك إلى أهل المسكنة والفقر }[1].

وبالتالي فان الزكاة تمثل بابا من أبواب تواضع الأغنياء للفقراء ونوعا من التجاوب معهم واستشعارا بمعاناتهم[2].

يقول الإمام في معرض هذه الدلالة:

{ ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله }[3].

فضلا عن هذا فان الزكاة والصدقات هما من أبواب التجارة مع الله، وأبواب التعامل والثقة بما يعطيه الله من جزاء وثواب للمتصدقين، ويكون عندها الغنى في الثواب، والاطمئنان والراحة النفسية. يقول الإمام:

{ إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة }[4].

---

(١) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) وقد ناقشنا هذا الموضوع في مبحث الإصلاح النفسي.

(٣) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٨٥.

(٤) م. ن، ج ٤، ص ٥٥٣.

وأخيرا: فان المال الذي بين أيدي الأغنياء ما هو ألا أمانة وضعها الله بين أيديهم وهو من حقوق الله وللفقراء والمحتاجين حق في هذه الأمانة.

يقول الإمام:- { إن لله في كل نعمةٍ حقا، فمن أداه زاده منها، ومن قصر فيه خاطر بزوال نعمته }[1].

سياسة الإمام في إصلاح الهيئة القائمة على إستحصال الإيرادات وتوزيعها:

لم ينظر الإمام (عليه السلام) إلى الإصلاح الاقتصادي على انه استراتيجية وخطط اقتصادية هيكلية فقط كما ينظر إليها القادة السطحيون بل كان ينظر نظرة عميقة يتوصل بها إلى ضرورة إيجاد بعد إنساني بعد ذاتي ونفسي استصلاحي للهيئات القائمة على استحصال الإيرادات أو توزيعها ونكاد نلمح تلك النظرات في كتب الإمام ورسائله إلى عماله وولاته في الأمصارالإسلامية المختلفة القائمين على استحصال الإيرادات المادية من الرعية وتوزيعها عليهم.فقد كانت للإمام سياسة أصلاحية للهيئات القائمة على الإيرادات لا تعتمد هذه السياسة على مبدأ العقوبة والإقصاء للمقصرين والخائنين من العمال فقط بل اعتمد الإمام على أسلوب ومبدأ الحوار والنقاش ومحاولة امتصاص الأسباب الدافعة إلى خيانة المجتمع والإمام، ذلك قبل أن تكون للإمام خطوة عملية من قبيل الإقصاء والمحاسبة لان الإمام وكما هو معروف رجل موضوعي وعادل ولم يكن يحاسب امرءاً على عمل بلا تحذير أو مناقشة موضوعية أو استبيان، وما وقعنا عليه من كتب ومخاطبات كتبها الإمام إلى عماله على الصدقة والزكاة لهو دليل على إتباعه سياسة الحوار وسياسة النقاش والبحث الموضوعي عن الأسباب والدوافع مع المقصرين والمسرفين والخائنين. ونقف ألان عند هذا الكتاب للإمام بعثه إلى

---

(١) م. ن، ج ٤، ص ٥٥٠.

مصقلة بن هبيرة الشيباني وهو عامله على (أرد شير خُرّه){ بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك وأغضبت إمامك: انك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رحامهم وخيولهم وأريقت عليه دماؤهم فيمن إعتامك من أعراب قومك فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقا لتجدن بك على هوانا ولتخفن عندي ميزانا فلا تستهن بحق ربك ولا تصلح دنياك بمحق دينك فتكون من الاخسرين أعمالا }[1].ومن هنا كانت للإمام وقفات مع عماله في الوعظ والإرشاد والتوجيه والتوبيخ محاولة منه (عليه السلام) إرشاد الهيئات العاملة إلى سلوك السبيل الصحيح في أدارة الأعمال الاقتصادية للبلاد. والالتفات إلى حق الله وحقوق الرعية عبر تأديةالأمانات إلى أهلها بلا تمييز أو تفريق وعبر مبدأ الأنصاف والعدالة يقول الإمام (عليه السلام):

{ ألا وان حق من قِبَلك وقِبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء يردون عندي عليه ويصدرون عنه }[2].

وكان جوهر ما أراد الإمام من عماله استشعار الجانب الروحي في عملهم والانقياد بدافع نصرة الحق ومؤازرة الإمام ومؤازرة الإنسانيةومبادئ العدل والإنصاف والمساواة بلا فروق بلا اختلافات بلا تمييز والاندفاع بقوة العقيدة والاندفاع بهاجس الخوف من الله بهاجس الطاعة للمبادئ بهاجس الوفاء والنصيحة للأمة الإسلامية التي تكالب عليها المتكالبون وخذلها الكثير من أبنائها فكفى تضييعاً لحقوق الفقراء والأيتام والأرامل والمساكين. وهذه الصرخة التي صرخ بها الإمام حين خانه بعض عماله بعد إن كان موضع ثقة ومحل التزام:{ أما بعد: فاني كنت أشركتك في أمانتي وجعلتك شعاري وبطانتي ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي لمواساتي وموازرتي وأداءالأمانة إليّ فلما رأيت الزمان

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٤٧.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٤٤٧.

على ابن عمك قد كلب والعدو قد حرب وأمانة الناس قد خزيت وهذه الأمة قد فنكت وشغرت قلبت لابن عمك ظهر المجن ففارقته مع المفارقين وخذلته مع الخاذلين وخنته مع الخائنين فلا ابن عمك أسيت ولا الأمانةأديت وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك وكأنك لم تكن على بينة من ربك وكأنك إنّما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم وتنوي غرتهم من فيئهم فلما امكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأزاملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله غير متأثم من أخذه كأنك ـ لا أبا لغيرك ـ حدرت إلى اهلك تراثا من أبيك وأمك }[1].

وكان الإمام يرى في عمل هذه الهيئات المسؤولة عن إيراد الخراج وتوزيعه على الرعية مسؤولية غاية في الأهمية لما لها ما آثار في إحياءمبادئ العدالة الاجتماعية وفي كونهم خزان الرعية ووكلاء الأمة وسفراء الإمام إلى المجتمع إذن فهم الواجهة الحكومية التي تعمل وتتعامل مع المجتمع وهم إتباع الإمام ومن المفترض تحليهم بصفات وسلوكيات تمثل امتداداً لصفات الإمام وسلوكياته في التعامل مع المجتمع ولذا كان الإمام يوصي عماله بوجوب تهيئة السلوك الرفيع المتوازن مع الأخلاق وبصورة السياسة العادلة المنصفة مع الناس بلا تمييز بلا تفريق بين فرد وآخر أو بين طائفة وأخرى أو بين طبقة وأخرى فضلا عن التحلي بصفات الصبر وقضاء حوائج الناس وتلبية مطالبهم بلا منة أو تهكم أو تجريح وأن تتجلى في سلوكيات العمال روح الأخوة والبعد الإنساني، لا أن يتغلب منهج القوة والطغيان والاستبداد والتسلط.

وهذا ما نلمح دلالاته في قوله (عليه السلام) إلى عماله على الخراج:

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

{ فأنصفوا الناس من أنفسكم، واصبروا لحوائجكم، فأنكم خزان الرعية ووكلاء الأمة وسفراء الأئمة، ولا تحسموا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعُن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبدا، ولا تضربن أحدا سوطا لمكان درهم، ولا تمسن مال أحدٍ من الناس مصلىً ولا معاهدٍ، ألا أن تجدوا فرسا أو سلاحا يعدى به على أهل الإسلام فانه لا ينبغي للمسلم أن يدع ذلك في أيدي أعداءالإسلام فيكون شوكة عليه }[1].

وكان الإمام يحث عماله على محاسبة أنفسهم والنظر في ما صدر منهم من قول أو فعل، يكون فيه معصية لله وأذى لرعيته في الأرض وأن لا يدخروا النصح لأنفسهم أو لغيرهم، يقول الإمام:

{ ولا تدخروا أنفسكم نصيحة، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة، وابلوا في سبيل الله ما استوجب عليكم، فان الله سبحانه قد اصطنع عندنا وعندكم أن نشكره بجهدنا، وأن تنصره بما بلغت قوتنا، ولا قوة ألا بالله }[2].

وكان يوصي عماله أيضا بالتواضع للناس وترك التكبر والاغترار وهذا ما نلمح دلالاته في هذا الكتاب للإمام، إلى زياد ابن أبيه، وهو عامله على البصرة:

{ أترجوا أن يعطيك الله اجر المتواضعين، وأنت عنده من المتكبرين }[3].

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٥٨.

(٣) م. ن، ج ٣، ص ٤٠٧.

منهج الإمام في استحصال الإيرادات (الجباية):

فضلا عما تقدمنا به من توصيات ونصائح وإرشادات قدّمها الإمام ووضعها بين يدي الهيئة الحاكمة القائمة على استحصال الإيرادات وتوزيعها كانت للإمام منهجية وطريقة حكيمة في جباية الصدقات واستحصال الواردات فالإمام لم يترك هذه المسالة تجري وتسير كيفما اتفق بل كانت للإمام خطة منظمة ومنهجية حكيمة وسياسة رشيدة بثها لعماله وإتباعه القائمين على هذه العملية. يتلخص أو يتجوهر هذا المنهج في أهميةإتباع سياسة (الروح الإنسانية) في جباية الإيرادات وأهميةإتباع أسلوب متحضر أسلوب يدلل على قيمة الإنسان، وعلى أهمية هذا الإنسان، أهمية التعامل الأخلاقي الإنساني.

ويتلخص هذا المنهج في مجموعة من النقاط ندرجها بما يلي:

١ـ الابتداء بالتحية والالتزام بالسكينة والوقار والابتعاد عن الترويع والتخويف واجتياز ما كان مكروها من قبل أصحابه والاكتفاء بأخذ الحق بلا إكثار أو زيادة.

{ انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تروّعَنّ مسلما، ولا تجتازنّ عليه كارها، ولا تأخذَنّ منه أكثر من حق الله في ماله، فإذا قدمَت على الحيّ فانزل بمائهم من غير أن تخالف أبياتهم، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم، فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم }[1].

٢ـ التعامل بالرفق واللطف مع الرعية ممن عليهم حقوق في أموالهم أو مواشيهم بأسلوب إنساني بلا ترويع أو تخويف أو إرهاق أو تعسف أو توعد وان امتنع البعض عن تأدية الحقوق فلا تثريب عليه ولا تقريع وان انعم البعض فالاستئذان منهم قبل ولوج المراعي، ذلك مانرى دلالاته واضحة في قوله:

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤١٠.

{ فان قال قائل ((لا)) فلا تراجعه وان انعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فان كان له ماشية أو ابل فلا تدخلها إلا بإذنه فان أكثرها له }[1].

٣ـ الرفق بالماشية والدخول عليها بلا تعنيف أو تنفير أو تفزيع. وهذا ما نراه مثالا في قوله (عليه السلام):

{ فإذا اتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه، ولا عنيف به ولا تنفرن بهيمة، ولا تفزعنّها ولا تسوءن صاحبها فيها }[2]. ثم يقول ناصحا بضرورة الرفق بالبهائم وتوكيل الناصح الشفيق بها:

{ ولا توكل بها ألا ناصحا شفيقا وأمينا حفيظا غير معنفٍ ولا مجحفٍ ولا ملغبٍ ولا متعبٍ } [3].

وهو يوصي عامله بان لا يحول بين ناقة وفصيلها ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بوليدها ولا يجهدها ركوبا وليعدل بينها وبين صواحباتها ويوردها ما تمر به من الغُدُر وليمهلها عندالنطاف والأعشاب وذلك ما نلمح دلالاته في هذا النص:

((فإذا أخذهاأمينك فأوعز إليه ألا يحول بين ناقة وبين فصيلها ولا يمصر لبنها فيضر ذلك بولديها ولا يجهدنها ركوبا وليعدل بين صواحباتها في ذلك وبينها وليرفّه على اللاغب وليستأن بالنقب والظالع وليوردها ما تمر به من الغُدُر ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطريق وليروحها في الساعات وليمهلها عند النطاف والأعشاب، حتى تأتيناباذن الله بدناً، منقيات غير متعبات ولا مجهودات لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه)) [4].

---

(١) م. ن، ج ٣، ص ٤١١.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤١١.

(٣) م. ن، ج ٣، ص ٤١١.

(٤) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤١١ ـ ٤١٢.

وإذن فالإمام كانت له رؤية حكيمة في جباية الخراج والصدقات تمثل هذه الرؤية منهج إصلاح إنساني في استلام الحقوق وهو عبارة عن ((سلوك منطقي خلقي سليم يعتمد على المناظرة والأقرار بهدوء واحترام، وماعلى الجابي ألا أن يقوم بواجبه فإذا اقر الفرد بما وجب عليه من حق في ماله دفعه وإلا فليس للجابي أن يعنت في الطلب أو أن يجبر أحدا على الدفع بل للدولة ماتراه في من رفض الدفع وعليها أن تقرر حسب الأحوال)) [1].

سياسة الاقتصاد والإصلاح الاجتماعي:

ومن المبادئ المهمة التي اهتم بها الإمام كمنهج وكمنطق وكمبدأ وكتطبيق، نظري وعملي هو (سياسة الاقتصاد) ومنع الإسراف وترك التبذير واتضحت هذه السياسة في مذهب الإمام الاقتصادي نظريا وعمليا لما لها ما آثار في إنعاش ورفع المستوى الاقتصادي للبلاد وللمجتمع الإسلاميين واتضحت معالم تلك الرؤية الاقتصادية في قوله (عليه السلام):

{ فان لم يحذر ما هو صائر إليه لم يقدم لنفسه ما يحرزها }[2].

وقد تكون هذه النظرية فيها شيء من التعميم أو أنّ تطبيقها ممكن في كل المجالات الحياتية إلاّ أن أظهرَ ما تنطبق عليه هو في المجال الاقتصادي. و ((لم يؤمن الإمام بالسياسة الاقتصادية المرتجلة بل وضع سياسة اقتصادية تأخذ المستقبل بالحاضر وتعد للظروف الاستثنائية عدتها)) [3].

وتتضح هذه السياسة في بعدها النظري وعمقها التطبيقي العملي في وصايا الإمام وتعليماته التي وجهها إلى عماله على الخراج والصدقات والى ولاته وأمرائه وقادة جيوشه بوجوب انتهاج سياسة الاقتصاد في مال الله والناس وترك

---

(١) ملامح من عبقرية الإمام، ص ٨٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٥٧.

(٣) ملامح من عبقرية الإمام، ص ٨٥.

الإسراف والابتعاد عن التبذير قدر المستطاع مؤمنا بفكرة كون الاقتصاد وسياسة الاحتراز ضرورية جدا في سبيل خلق ظروف اقتصادية ملائمة ومتوائمة مع كل الأجواءوالأحداث والمواقف إذ أن الإسراف لا موجب له فضلا عن الاستغراق في الكماليات الزائدة عن الحاجة والترف والبذخ اللا ضروري وقد ((استهل رسالته بحكمة استيفاء الضرائب وبالمبررات القانونية والعقلية لخير الحاضر والمستقبل. فإذا لم تحذر الدولة نوائب المستقبل واختلاف الظروف وتُبقِ لديها فائضا من اعتمادها المالي فسوف تضايقها الأزمات في تغير الأحوال، ولا حول لها ولا قوة على درء ذلك)) [1].ولعل من أبلغ ما وصل إلينا من شواهد على سياسته الاقتصادية وفي لزوم الحاجات الضرورية ونبذ الإسراف هو ما جاء في كتابه (عليه السلام) إلى زياد بن أبيه عامله على البصرة والذي يقول فيه:-{ فدع الأسراف مقتصدا، واذكر في اليوم غدا، وامسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك }[2]. وبقدر ما في هذا الكلام للإمام من دوافع ونظرات في الإسهام في إنعاش الاقتصاد، فان فيه بعدا واضحا للحق المضاع للرعية ولان الإمام كان على ثقة أن الترف والبذخ والتبذير عند بعض الولاة والقادة والأمراء ما هو ألا تضييع لحقوق العامة من الفقراء والمستضعفين وهذا ما نلمح دلالاته واضحة في هذا الخطاب والنداء الذي بعثه (عليه السلام) إلى زياد بن أبيه أيضا يقول فيه: { وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف والأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين! وإنما المرء مجزي بما أسلف وقادم على ما قدم }[3]. ومن هنا فان الإمام يلخص نظريته الاقتصادية برؤية اجتماعية عمومية في قوله:

---

(١) ملامح من عبقرية الإمام، ص ٨٥.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٠٧.

(٣) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٠٧.

{ ولا كنز أغنى من القناعة، ولامال اذهب للفاقة من الرضى بالقوت، ومن اقتصر على بلغة الكفاف فقد انتظم الراحة، وتبوأ خفض الدعة }[1].

(١) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٧٩.

الفصل الخامس

رسالة الإصلاح والجهاد

- فلسفة الجهاد والبعد الإصلاحي
- مستويات الجهاد والبعد الإصلاحي
- المستوى الأول:- جهاد الكلمة والحوار
١- الحوار مع أصحاب الجمل (الناكثين)
٢- الحوار مع الخوارج (المارقين)
٣- الحوار مع معاوية (القاسطين)
- نتائج الحوار وأهدافه

- المستوى الثاني:- الجهاد المسلح والمجابهة العسكرية
- الجهاد المسلح بين المنطلقات والأهداف
- الجهاد المسلح والموقف الاجتماعي

رسالة الإصلاح والجهاد فلسفة الجهاد والبعد الاصلاحي:

كانت فلسفة الإمام علي (عليه السلام) للجهاد مستوحاة ومستقاة من الرؤية الإلهيةالإسلامية للجهاد التي تتجوهر في كون الجهاد حاجة ضرورية لابد منها إذا كانت الظروف الاجتماعية والمعطيات الأخرى للحياة تتعارض مع المسيرة الإسلامية سواء أكانت في نشر دعوة أو في افتتاح بلدان أو في نهضة إصلاحية. ولربما يكون ((الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحافظ على الأمن والسلام وهو الذي يحافظ على النفوس والأموال والحقوق أكثر من أي دين آخر وابغض شيء عند الإسلام هو إراقة دماء البشر وسلبهم نعمة الحياة بغيرحق ولكن الشرع والعقل والقانون يسمح بإراقة دم كل من يقف حجر عثرة في سبيل إسعادأبناء البشر)) [1].

والجهاد قبل أن يكون حالة من الولوج في قتال أو مجابهة عسكرية في سبيل الله هو حالة إيمانية ورؤية استشعارية عميقة الباطن عميقة الغور للعقيدة فالجهاد حالة مرئية ظاهرة أو باطنة من حالات القوة العقائدية ومن حالات الارتباط الإيماني الصلب ونوع من التواصل الذاتي الباطني الروحي أو الظاهري السلوكي مع الله وفي سبيل الله وباتجاه طاعة الله حيث يتحول الإيمان العقائدي إلى قوة ملموسة قوة شاخصة قوة موجهة في الباطن تنحدر إلى سلوك جهادي يتجسد عبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد إذن دعامة إيمانية مهمة ونمط من أنماط التعاطي مع الخالق وصورة علنية للإصلاح والتصالح وطالما ارتبط الجهاد في الإسلام برؤية الدفاع عن الإسلام الدفاع عن المعتقد الدفاع عن التوحيد وعن المبادئ الأساسية وعن الحقيقة وبالتالي فهو إحقاق للحق، وإنكار للباطل، عن طريق المجابهة الصريحة العلنية، والجهاد كما هو استئصال للشرك والكفر

---

(١) علي من المهد إلى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني، ص ٥٧.

والمعتقدات الفاسدة التي كانت موجودة في عصر ما قبل الإسلام. فهو أيضا امتداد وتطبيق لهذه الأهداف، في رحلة جهاد الإمام (عليه السلام) ولان الإمام لم ينظر إلى الجهاد على انه حالة سفك دماء طلبا للسلطة والمال والجاه بل كانت حاجة عملية لإحقاق الحقوق من بين يدي الباطل الذي عاث ولعب وافسد الحياة الإسلامية وكان الانقلاب العقائدي والانحراف الروحي الذي أستزل الأمة عن مبادئها الأساسية، هذا فضلا عن الانحراف النفسي والاستسلام للأهواء والنزوات والرغبات التي انحرفت بالمجتمع عن جادة الصواب، وألقته بين مخالب الشيطان وأحزابه، وأعوانه، ولاننسى آثار الفساد الذي محق الحياة الاجتماعية بكل مستوياتها، وبكل مفاصلها، فالفساد الاقتصادي والفساد الفكري والفساد السلوكي كان يمثل صورة من صور هذا العصر وكان تولي الإمام لزمام الأمور والزعامة الدينية والاجتماعية، استفزازا لقوى الفساد وما تجسده من رؤى إنحرافية، وتوجهات مشبوهة، لان الإمام في شخصه وتكوينه وسلوكياته، يمثل استفزازا للباطل وللانحراف، ولكل ما هو ضد الصواب هو جانب من جوانب الحقيقة، التي تستجلي بوضوحها ونصاعتها، أوهام وخيالات وتزييف الفساد، وتكشفها على حقيقتها ومن هنا، فطالما شكل الإمام قاعدة للخطر، الخطر الحقيقي المحيق بهؤلاء الضالين، وبمخططات الباطل والشر والتي كانوا يحيكونها ضد الإسلام والمسلمين، وبإمبراطورية الفساد التي كان يحلم بتأسيسها بنو أمية ومن لفّ لفهم.

ولما كان الإمام يمثل مصدر تهديد لمصالح قوى الشر والضلال في العالم الإسلامي، فقد شُنت عليه الحروب، ومن كل الاتجاهات، وعمدت هذه القوى إلى محاربة الإمام وإشغاله بالحروب والنزالات عن مواصلة مسيرة الإصلاح والبناء التي كانت من ضمن مخططاته (عليه السلام) هذا فضلا عن الحرب النفسية والتضليلية، التي شنها هؤلاء في محاولة لتحريض المجتمع ضد الإمام، والتأليب عليه مستخدمين لهذا الغرض شتى السبل، ومختلف أساليب الغدر

والخداع والمكر وتشويه الحقائق، وتزييف الأحداث، وصولا إلى الأهداف والغايات الذاتية لهم في إقصاء الإمام عن منصة الحكم وممارسة دوره القيادي، يرومون بهذا صرف الإمام عن أحياء وبناء وتشييد دولة العدل دول الإصلاح التي كانت من أهم أهداف الإمام، التي رام القيام بها، أليس هو القائل (عليه السلام): { وما أردت ألا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي ألا بالله عليه توكلت واليه أنيب }[1].

وإذن إن فكرة الإمام عن الجهاد تتلخص في قوله (عليه السلام) {أيها المؤمنون انه من رأى عدوانا يعمل به ومنكرا يدعى إليه، فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ومن أنكره بلسانه فقد اجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الظالمين هي السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وقامَ على طريق ونور في قلبه اليقين }[2]. فالجهاد بكلمة واحدة ((إنكار الباطل وإحقاق الحق)) وهذا ما يقودنا إلى العمل على صعيد إنكار الباطل وإحقاق الحق فهناك من يعمل على إحقاق الحق وإنكار الباطل في قلبه وضميره فيرفض هذا الباطل في كيانه وروحه وعقله، وهذه درجة من درجات الجهاد، وهناك من يعمد إلى هذا الإحقاق بقلبه ولسانه وهو من يستحصل على درجة أعلى من صاحبه الأول. ومن عمد إلى هذا الإحقاق والإنكار بالسيف لتستوضح كلمة الله، وتكون هي العليا فهذا من استحصل أفضل الدرجات وهو من سلك السبيل وامتاز على اليقين، وله كلمة أخرى في هذا الشأن، يقول فيها (عليه السلام):

{ فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه، فذلك المستكمل لخصال الخير، ومنهم المنكر بلسانه وقلبه، والتارك بيده، فذلك متمسك بخصلتين من خصال

---

(١) نهج البلاغة، ج٣ ص٤٢٠.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٨٠.

الخير، ومضيع خصله، ومنهم المنكر بقلبه، والتارك بيده ولسانه، فذلك الذي ضيع اشرف الخصلتين من الثلاث، وتمسك بواحدة، ومنهم تارك لإنكار المنكر، بلسانه وقلبه ويده فذلك ميت الأحياء وما إعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله، عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثةٍ في بحر لجي وان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من اجل ولا ينقصان من رزق وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند أمام جائر }[1].ومن هنا كان الإنكار هو الجهاد سواء كان قلبيا أو كان قلبيا ولسانيا، أو كان قلبيا ولسانيا وعمليا باليد، ولما كانت فحوى الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذن فهو حاجة اجتماعية تتقدمها ضرورة إيمانية وقوة اعتقادية بوجوب إطاعةالأوامرالإلهية والانصياع لها وإعلائها حين يكون هناك تنافس دنيوي في سبيل محقها والتضليل عليها والتعتيم على قيمتها العلياني إصلاح الإنسانية عموما والمجتمع الإسلامي خصوصا ومن هنا يكون الجهاد إنكارومنافحة للباطل ومجابهة للطغاة والمفسدين والمضلين والضالين في سبيل إيجاد نظام وإيجاد منهج إنساني عادل تحكم به البشرية جمعاء والأمةالإسلامية.

فالجهاد هو القوة والإرادة وهو التزام سلوكي عملي تجاه الرب يقول الإمام في معرض هذه الدلالة:

{ أول ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم بألسنتكم، ثم بقلوبكم فمن لم يعرف بقلبه معروفا ولم ينكر منكرا قُلِبَ فَجُعِل أعلاه أسفله، وأسفلهُ أعلاه }[2]. وإذن فالجهاد يكون حين يستشعر المؤمن حالة نفسية راقية حالة عميقة من التجاوب، من التواصل مع الله من الثقة العمياء بجزاء الله وبثوابه فيسلم ما بين يديه من قدرة وطاقة وعطاء ويقدمها قرابين بين يدي الله واثقا بما في هذا التفاني والإيثار من جزاء وثواب يبتدئ برضوان الله وينتهي برضوان الله يقول

---

(١) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٨٠ - ٥٨١.

(٢) نهج البلاغة، ج ٤، ص ٥٨١.

الإمام (عليه السلام): { لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده }[1]. ولهذا أصبح الجهاد بابا من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة اوليائة وكما يقول الإمام (عليه السلام): { أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسهُ الله ثوب الذل وشمله البلاء وديث بالصغار والقماء وضرب على قلبه بالأسداد وأديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف ومنع النصف}[2].فالجهاد باب من أبواب الرضوان والثواب الأخروي فضلا عن اهدافة الدنيوية السامية والتي هي من أهم الغايات والأهداف فالجهاد هو باب لإقامة الحق وإحياء سنن العدل والإنصاف والمساواة بين الناس فضلا عن كونه سبيلاً لأحياء الكرامة الإنسانية، ولان السكوت على الظلم والجور والتنكيل والاستبداد والركون إلى الصمت تجاه تجاوزات العدو هو باب ذلة، وهو باب من أبواب الشيطان. لان السكوت عن الحق هو نوع من الاستسلام والخنوع والإذلال.

مستويات الجهاد والبعد الإصلاحي:

الإمام صاحب نظرية أصلاحية شمولية الرؤية، واسعة الأهداف وقد اتضح للإمام أن تطبيق هذه النظرية بجزئياتها وتفصيلاتها لن يتحقق كليا أو اقل من الكلي ما لم تتوفر عملية استئصال واجتثاث لبعض العناصر المنحلة اجتماعيا، الضالة والمضلة، وكانت للإمام رؤية في هذا الشأن تتلخص في مبدأ (الجهاد) ومناوأة هذه الفئات الخارجة عن مبادئ الدين والمعتقدات الإسلامية ومحاولة القضاء عليها وعلى أهدافها التخريبية، الانحرافية الرامية إلى هدم كيان الإسلام

---

(١) م. ن، ج ٤، ص ٥٦٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ٦٤.

والتعتيم على ملامح ومعالم الشخصية الإسلامية التي كانت واضحة المعالم بارزة في عهد الرسول حيث وجدت الفئات الضالة متسعا للعمل والتخريب أبان الخلافات الثلاث المتعاقبة بعد وفاة الرسول، وقبل خلافة الإمام. واستطاعت هذه الفئات سَبْر أغوار المجتمع الإسلامي وتضليله والانحراف به.وكان تولي الإمام {علي} الخلافة وقيادة المجتمع الإسلامي استفزازا صارخا لهذا الجهات وتقليصها لمساحة السلطة التي أتاحتها لها الخلافات المتعاقبة بعد الرسول وقد يتصور البعض أن هذه الفئات وليدة عهد الإمام {علي} بل أن في معارضتها للإمام دليل على أنها كانت موجودة وتعمل على تضليل المجتمع قدر ما استطاعت إلاّ أن ظهورها ومعارضتها كانت بارزة جامحة معلنة أبان تولي الإمام مقاليد السلطة. ولأنها وجدت في خط الإمام خطا مخالفا مغايرا لأهدافها وطموحاتها المشبوهة الرامية إلى طمس الشخصية الإسلامية والتعتيم على ملامح المذهب الإسلامي الذي يتمثل في محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقد كانت هذه الفئات مواكبة للخلافات السابقة ومتوائمة معها لأنها كانت على منهج واحد ورؤية واحدة وانقياد واحد وأهداف واحدة.

وانطلق الإمام في جهاد هذه الفئات، ولم يكن هذا الجهاد على مستوى القتال والمجابهة العسكرية فقط،بل اشتمل على جهاد الكلمة و الحوار والحِجاج الذي سبق القتال أو توازى معه أحيانا أو تبعه. لان الإمام لم ينظر إلى الجهاد على انه عملية أجبار وتسلط واخذ البيعة بالقهر والتنكيل واستنزاف الدماء والأرواح بل نظر إليه على انه عملية إصلاحية شمولية أراد بها الإمام أن يقوّم الاعوجاج ويصلّح الأود ويجمع شمل ما افترق من المجتمع وان يجمع كلمة الأمة على طاعة الله والوفاء للرسول.

ومن هنا لنا إن نقيّم جهاد الإمام على مستويين:

١ـ المستوى الأول:ـ جهاد الكلمة والحوار.

٢ـ المستوى الثاني:ـ جهاد القتال والمجابهة العسكرية.

١ـ المستوى الأول: جهاد الكلمة والحوار:

الإمام هو صاحب مبادئ وقيم روحية وإنسانية لم ينظر إلى الحياة نظرة سطحية ولم ينظر إلى الدين نظرة سطحية بل أراد أن تكون الحياة تابعة للدين، لان الدين هو الأساس هو المنطلق هو الدنيا مع الآخرة.

ونظرة الإمام إلى الإصلاح على انه نقطة ابتداء من الصفر، نقطة تقويم وتغيير داخلي ذاتي وباطني، وكانت هذه هي جوهرة سياسته الإصلاحية، التي تناول بها التغيير، وعلى كافة الاصعدة وبلا أدنى شك أن الإمام اعتبر وآمن أن الإصلاح لن تقوم له قائمة ولن يعطي نتائج ما لم تحصل عملية تغيير واستئصال لمنابع الخراب والفتنة والشبهة في المجتمع. التي تعد عائقا من عوائق الإصلاح ولان من أهم أهداف هذه الفئات هي في إعاقة تجربة الإصلاح والتطور التي أراد الإمام بها رفع المستوى الاجتماعي وعلى كل الأصعدة وفي كافة المجالات.

وإذن فالجهاد هو ركن مهم من أركان العملية الإصلاحية وان مناقشة العمليات الإصلاحية مع وجهات النظر ورؤى الإمام التطويرية. ستكون ناقصة فيما لو لم تناقش مسالة الجهاد ولكونها جزءاً لا يتجزأ من رسالة الإصلاح، وعلى الرغم من أن الإمام كان على ثقة بان هذه الجهات الضالة التي أستهواها الفساد وركبها الزلل وعاشرها التيه والشيطان، لم تكن لترعوي ولتتعظ بمواعظ وعبر ونصائح الإمام إلاّ أنّ الإمام لم يبخل بهذا الوعظ وهذا النصح، واتجه إلى أسلوب الحوار والنقاش والحجاج المنطقي في محاولة لانتزاع أطراف الحوار والنقاش بين الطرفين وتوضيح فلسفة الحوار والحجاج التي ألتزمها الإمام في مجاهدة هذه الفئات الضالة، ولنا أن نقع على أهداف الإمام ومنطلقاته وغاياته التي رمى إليهاوقد كانت لنا بعض الوقفات عند خطب ورسائل الإمام التي ستكون محطة لاستخلاص بعض التوجهات الحوارية التي وجهها الإمام إلى هذه الفئات وتركز الحوار عند ثلاثة محاور أو نقاط أساسية هي:

١ـ الحوار مع أصحاب الجمل (الناكثين)
٢ـ الحوار مع الخوارج (المارقين)
٣ـ الحوار مع معاوية (القاسطين)

الحوار مع اصحاب الجمل (الناكثين):

لقد كانت للإمام عدة محاورات والكثير من الخطابات التي بعثها إلى جماعة الناكثين ممن بايعوا الإمام وعاهدوه في المدينة (كطلحة والزبير) ثم ما لبثوا أن نكثوا البيعة محتجين في المطالبة بدم عثمان بن عفان مسترسلين في قتاله ومنابذته والانسياق في عداوته. ولا يعنينا من هذه الحوارات الأمور أو الأحداث التاريخية أو إحصاؤها أو تسجيلها بقدر ما نعني بواقع الحوار ومضامينه وأهميته في منطلقاته وغاياته الإصلاحية ووظيفته في توجيه الحقائق واستخلاصها من بين الزوائد والخدائع والتزييف التي كان يتبعها أصحاب الجمل (الناكثين) عن بيعة الإمام المعصوم وما ننوي التعلق به هو في أهمية المضمون وأثره في الإصلاح وإبعاده الاجتماعية ولنا أن نستخلص المضامين الحوارية التي جرت بين الإمام وأصحاب الجمل:

١ـ من المضامين الحوارية المهمة التي دارت بين الإمام وبين أصحاب الجمل هو في رد الاتهامات والابتداعات التي ابتدعها أصحاب الجمل وشنعوا بها ضد الإمام على خلفية اتهامه (عليه السلام) بقتل عثمان وقد كانت للإمام رسائل وخطب يرد فيها على هذه الاتهامات وعبر حوار حجاجي، ونقاش منطقي وأسلوب دفاعي تتوضح في ضوئه حقائق الأحداث ونستخلص منه قوة الإمام في توجيه الحق والتركيز عليه وإنكار الباطل ونستلهم تلك الرؤية والدلالات وذلك الإصدار في هذه الخطبة للإمام (عليه السلام):

{ ألا إنّ الشيطان قد ذمر حزبه، واستجلب جلبه ليعود الجور إلى أوطانه، ويرجع الباطل إلى نصابهِ، والله ما أنكروا عليّ منكرا، ولا جعلوا بيني وبينهم

نصفا، وأنهم ليطلبون حقا هم تركوه، ودما هم سفكوه، فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه، ولئن كانوا ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم، وان أعظم حجتهم لعلى أنفسهم يرتضعون أما قد فطمت، ويحيون بدعة قد أميتت. ويا خيبة الداعي! من دعا وإلامَ أجيب! واني لراض بحجة الله عليهم، وعلمه فيهم، فان أبوا أعطيتهم حد السيف، وكفى به شافيا من الباطل وناصرا للحق }[1].وفي نص آخر للإمام يتبرأ فيه من دم عثمان بأسلوب منطقي حجاجي نستوضح فيه قوة التبيان ورصانة التحقيق:

{ لو أمرت به لكنت قاتلا، أو نهيت عنه لكنت ناصرا غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول نصره من هو خير مني، وأنا جامع لكم أمره: استأثرفأساءالأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع ولله حكم واقع في المستأثر والجازع }[2]. انظر إلى هذا الحجاج المنطقي في إلزام الخصوم الحجة عليهم مما هم استندوا كأدلة صارخة على براءته من دم عثمان، براءة الذئب من دم يوسف.

٢ـ من المضامين الحوارية الأخرى بين الإمام وأصحاب الجمل هو في الاحتجاج عليهم بقبيح وسوء فعلهم في نكث البيعة بعد أن بايعوا طائعين غير مكرهين. وهذا هو المعنى والدلالة التي تتوضح في هذا الكتاب الذي أرسله الإمام إلى طلحة والزبير، مخاطبا إياهما قائلا:

{ أما بعد: فقد علمتما ـ وان كتمتما ـ إني لم أرد الناس حتى أرادوني ولم أبايعهم حتى بايعوني وأنكما ممن أرادني وبايعني وان العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرف حاضر فان كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب وان كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما

---

(١) نهج البلاغة، ج ١، ص ٥٨.

(٢) نهج البلاغة،ج ١، خطبة ٣٠، ص ٧٠ ـ ٧١.

الطاعة وأسراركما المعصية ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان وان دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما بعد إقراركما به }[1].

٣- إن الإمام أراد أن يوضح للناس الصورة الحقيقية لهذه الجماعة التي ادعت الإسلام والإيمان، في الوقت الذي كانت تعاني من انحراف عقائدي وخلل مبدئي وضعف نفسي وانحراف سلوكي وأخلاقي وقع فيه هؤلاء حين انحرفوا عن الحقيقة الإيمانية المتمثلة في الإمام وأهل بيته وراحوا يتنازعون معه مطالبين بما ليس لهم ومتكالبين على دابة ليس لها حول ولا قوة ليتخذونها يعسوبا وإماما لهم منحرفين بهذا السلوك عن جادة الإسلام وعن مبادئه التوحيدية وهذا ما نلمح دلالاته واضحة في هذا الخطاب للإمام يذم فيه أهل البصرة الذين انقادوا خلف دعوات الجهل مساندين وداعمين لهم { كتتم جند المرأةوإتباع البهيمة رغا فأجبتم وعقر فهربتم أخلاقكم دقاقٌ وعهدكم شقاقٌ ودينكم نفاقٌوماؤكم زعافٌ والمقيم بين أظهركم مرتهنٌ بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه }[2].

الحوار مع الخوارج (المارقين):

لقد كانت لفتنة الخوارج الذين كانوا ضمن جيش الإمام (عليه السلام) اثر كبير وبالغ في أحداث الانشقاقات في معسكر الإمام ثم استنزافه طاقة الجيش بعد أن بلغ مبلغا ووصل حد الانتصار على معاوية وأهل الشام في صفين وكانوا أن مرقوا عن طاعته (عليه السلام) مستحبين لابتداعات ومكر معاوية وصحبه في دعوى التحكيم متناسين أنهم مع الحق وفي سبيل الحق منخدعين بدعوى معاوية الضالة التي اتخذت من القرآن قناعا زائفا لتتستر به على هزيمتها النكراء أمام

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٨١.

(٢) م. ن، ج١، خطبة ١٣، ٤٦.

الإمام في (صفين). ومن هنا فقد شنعوا على الإمام طالبين منه الاستجابة لمطالب معاوية في رفع المصاحف ودعوى التحكيم. وما كان على الإمام إلا أن ينهاهم عن أمر هذه الحكومة إلاّ أنهم ازدادوا إصرارا منقادين خلف هذه الدعوى مارقين عن رغبته (عليه السلام) ولا يعنينا هنا الانخراط في أحداث هذه الوقائع ومتاهاتها بقدر ما نهتم بواقع الخطاب الذي وجهه الإمام لهؤلاء ولنقف ألان عند بعض المضامين الإصلاحية التي استنتجناها في ضوء الخطاب والرسالة:-

١- لقد حاول الإمام أن يرسم الطريق أمام الخوارج ويرجعهم عما هم متوجهون إليه. ويبين لهم خطأ ما وقعوا فيه وما هم مقدمين عليه. وكان عليه أن يوجه خطاباته الداعية إلى التزام جانب الحق والانفلات عن منعرجات الباطل موضحا أن كلمة أن (لا حُكمَ إلاّ لله) التي رفعها معسكر معاوية ما هي ألا كلمة حق يراد بها باطل. وذلك ما نلمح دلالاته في ضوء هذا الخطاب { أما بعد: فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة وتُعقب الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري وخلت لكم مخزون رأيي ولو كان يطاع لقصير أمر فأبيتم عليَ آباء المخالفين الجفاة والمنابذين ألعصاة وحتى ارتاب الناصح بنصحه وضنَ الزند بقدحه }[1].

٢- لقد حذر الإمام جماعة الخوارج، وطالما وعظ وارشد قبل إن يبدأ القتال في(النهروان)، المعركة التي دارت بين الإمام والخوارج على مقربة من الكوفة.

(فانا نذيرُكم إن تصبحوا صَرعى بإثناء هذا النهر، وباهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم ولا سلطان مبين معكم، قد طوحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار، وقد كنت قد نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتم علي آباء

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٧٨.

المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيي إلى هواكم، وانتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام، ولم آت الا أبا لكم ابجرُا، ولا أردت لكم ضرا)[1].

٤- لقد أراد الإمام عن طريق الحوار، أن يناقش الخوارج ويدحض ترهاتهم في تكفير الإمام، ومحاولة تضليل الأمة بهذه التفاهات والاقتراحات، التي ليس لها أساس من الصحة يقول الإمام مخاطبا الخوارج:

(فان أبيتم إلاّ إن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة امة محمد (صلى الله عليه وآله) بضلالي و تأخذونهم بخطأي، وتكفرونهم بذنوبي سيوفكم على عواتقكم تضعونها على مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم، إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع السارق، وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الغيءِ، ونكحا المسلمات، فأخذهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءَهم من بين أهله) [2]

فالإمام يقف في مواجهة الخوارج، محاورا ناطقا بالحق مستجلبا للحجج، داعما كلامةبالأدلةوالأسانيد، مستشهدا بسنة رسول الله، التي لايمكن لأحد تفنيدها أو التبجح بما يخالفها، حين يقف متسائلا، متعجبا من سوء مقالهم وريب أفعالهم، حين يكفرون بحرمة الإمام، محاولين التعتيم على صورته الاجتماعية الناصعة، والانحراف بالمجتمع الإسلامي، عن صراطه المستقيم، وهم الذين اخذوا الإمام بذنب الكفر كما يزعمون. لِمَ يكفرون أنصار الإمام، ويأخذونهم بذنوب لم يجترئوا عليها؟ وان كان حقا ما يزعمون، لما إذن لاينتهجون سنة الرسول، الذي ساس العالم الإسلامي بالتي هي أحسن، فعفا عن المذنب وصفح عن

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص ٧٩ - ٨٠.

(٢) نهج البلاغة، ج١، ص٢٠٩ - ٢١٠.

الجاني، ولم يؤاخذ الناس بذنوب بعضهم البعض، حتى لو كانوا من بيت واحد، أو من عشيرة واحدة؟ وإذن فهذا هو أسلوب الحوار وهذا هو منطق الحوار والنقاش الذي أراده الإمام والذي انتهجه ناصحا مرشدا واعظا مبلغا أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فماذا بعد هذا من حجة عليه وماذا قصّر به الإمام في إبلاغ الأمر والنزول عند رغبة الله في توعية المجتمع وتثبيته على الإيمان.

الحوار مع معاوية (القاسطين):

لقد كانت للإمام إستراتيجيةإصلاحية، ورؤية تقويمية للمجتمع والأمةالإسلامية، وحين ولي الإمام زعامة الأمة كان عليه إن يطبق أسس واتجاهات النظر الإصلاحي في المجتمع، وكان من اخطر المعوقات، واكبر الفتن التي وقفت حجر عثرة في طريق الإمام الإصلاحي، ومسيرته التطويرية، هو (بنو أمية) والعدو التقليدي للإمام (معاوية بن أبي سفيان) وكانت للإمام خطابات كثيرة، ووقفات وقف فيها محذرا المجتمع الإسلامي من فتنة بني أمية، وعلى الأخص معاوية رأس الخطيئة، ومنبع الضلال، ولاننوي في هذا البحث، التعريف بمعاوية، وأدراج صفاته وفعاله، ولسنا بحاجة إلى تتبع هذه الأمور، وما نود التركيز عليه في هذا البحث، هو في تتبع الخطاب، والرسائل واستخلاص نتائج هذا التحاور، والتراسل مع معاوية، التي عمد إليها الإمام، في سبيل التوجيه والإصلاح، وقد يكون للمحتوى المضموني الذي جاء في خطاب الإمام، رؤية تنظيرية وجانب توثيقي مهم جدا للمستوى العسكري للجهاد، لان المعارك والحروب، التي خاضها الإمام حتى لو استوثقتها المصادر التاريخية، وتحصّل على بعض معلوماتها وأحداثها المؤرخون فقد لاتمثل فكرة صحيحة عن هذه المعارك، وقد تتداخل معها الكثير من المؤثرات، فتأتي المعلومات وقد يشوبها الكثير من التحريف أو التشويه المتعمد من قبل بعض المؤرخين فضلا عن العوامل الأخرى التي قد تتداخل مع هذه المعلومات.

أما الأمور والاستنتاجات، والاستنباطات، التي نقع عليها في ضوء هذه الحواريات، والرسائل والمخاطبات فهي تكاد تكون الصورة الأنصع تاريخيا، والأعمق والأكثر تمثيلا للحقائق والمواقف التاريخية للجهاد العسكري للإمام ولربما وضعنا هذا التوثيق في الصورة الكاملة وفي الرؤية الواضحة لبواطن وخوافي الأمور.

حيث كانت للكلمة الجهادية والحجاج اثر واضح في توثيق الكثير من المعلومات التي تصب في مصلحة الإصلاح، وكما رآه الإمام (عليه السلام) وسوف نعمد إلى استخلاص أهم المضامين الحوارية التي جاءت ضمن الخطاب والرسالة العلوية بما يأتي:

١ـ انحراف معاوية عن طاعة الإمام، والانصراف عن (البيعة) وقد بعث الإمام إلى معاوية بمجموعة من الكتب والرسائل، التي يدعوه فيها إلى تبني الموقف الصحيح، والرؤية الصحيحة، والانفلات عن قبضة الشيطان، يقول الإمام ردا على كتاب بعثه معاوية إلى الإمام: { أما بعد: فقد أتتني منك موعظة موصلة، ورسالة محبرة، نمقتها بضلالك وامضيتها بسوء رأيك، وكتاب أمرئ ليس له بصر يهديه، ولا قائد يرشده، قد دعاه الهوى فأجابه وقاده الضلال فاتبعه، فهجر لا غطا وضل خابطا }[1] ثم يدعوه (عليه السلام) إلى لزوم البيعة والتخلي عن الخيارات الأخرى: { لأنها بيعة واحدة لا يثنى فيها النظر ولا يستأنف فيها الخيار الخارج منها طاعن والمروّي فيها مداهن }[2].

٢- إن الإمام أراد وعبر هذه الحواريات أن يوضح للمجتمع خطأ معاوية وانحرافه وضلاله وانقياده خلف الشهوات والرغبات، والانقياد للدنيا وبهجتها وزينتها، وان رغبته في قيادة الشام هو في سبيل الجاه والسلطان والثروات، يقول

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩٧.

الإمام في معرض هذه الدلالة: { ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة؟ بغير قدم سابق، ولا شرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء، وأحذرك أن تكون متماديا في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة }[1].

٣- احتجاج الإمام على معاوية بأحقيته في زعامة الأمة، عن طريق الحوار، والحجاج المنطقي، والمستند على الدلائل والوثائق، فمن كتاب له (عليه السلام) في معرض هذه الاحتجاج: { انه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر، وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والانصار، فان اجتمعوا على رجل، وسموه اماما، كان ذلك لله في رضىً، فان خرج بامرهم خارج بطعن، أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فان ابى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى }[2].

٤- إن الإمام لم يبخل في الوعظ والنصح على (معاوية) وكان له من الحوار الانساني والخطاب الاصلاحي، ماله بعد عميق في الرؤية الانسانية، الاصلاحية التي لم يقتصر بها الإمام على صحبه واتباعه، بل امتدت الرؤية الاصلاحية لتشمل الاعداء والمنافسين، ولنقف عند هذا الكتاب الذي ينصح فيه معاويه: {فاتق الله فيما لديك، وانظر في حقه عليك، وارجع إلى معرفة ما لا تعذر بجهالته، فان للطاعة اعلاما واضحة، ومحجة نهجة، وغاية مطلوبة يردها الاكياس، ويخالفها الانكاس، من نكب عنها جار عن الطريق، وخبط في التيه، وغير الله نعمته، واحل به نقمته، فنفسك نفسك فقد بين الله لك سبيلك، وحيث تناهت بك امورك، فقد اجريت إلى غاية خسر، ومحلة كفر، وان نفسك قد اولجتك شرا واقحمتك غيا، واوردتك المهالك، واوعرتْ عليكَ المسالك }[3] ثم يبعث الإمام إلى معاوية كتابا ينصحه فيه بوجوب الاعتبار من الحياة الدنيا التي

---

(١) م. ن، ج ٣، ص ٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩٦.

(٣) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

تغر الناس وتدفعهم إلى الانزلاق في مغرياتها، وبهارجها ثم يذكره بالله، وبالحساب وبالعقاب الاخروي وان لا يعقل سمعه عند الغواة والشياطين والمنحرفين وأن يرعوي لنداء العقل نداء العقيدة الاسلامية يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذا الوعظ: { وكيف انت صانع، إذا تكشفت عنك جلابيب ما انت فيه، من دنيا قد تبهجت بزينتها، وخدعت بلذتها، دعتك فاجبتها، وقادتك فاتبعتها، وامرتك فاطعتها، وانه يوشك أن يقفَك واقف على ما لا ينجيك منه مجن فاقعس عن هذا الأمر، وخذ اهبة الحساب، وشمر لما قد نزل بك، ولا تمكّن الغواة من سمعك، وإلا تفعل اعلمك ما اغفلتَ من نفسك، فانك مترف قد اخذ الشيطان منك مأخذه، وبلغ فيك امله، وجرى منك مجرى الروح والدم }[1].

٥ـ ولربما يكون من أهم المضامين التي قصدها الإمام في خطابه وكتبه هي في توعية المجتمع وتحذيره من معاوية ومن اثار سياسته المتسمة بالمكر والدهاء والخداع، التي كان معاوية يتبعها في سبيل خداع المجتمع الاسلامي وخداع اتباعه وخداع اهالي الشام، واستطاع معاوية بهذه السياسة أن يجمع معه عدداً غير قليل من الناس، ممن ناصروه وساندوه في حربه، اللامشروعة ضد الإمام (عليه السلام) منخدعين بسراب اقواله، ومنقادين إلى افعاله الشيطانية ومن كلام له (عليه السلام) تتضح فيه دلالات ما ذكرنا يقول الإمام: { والله ما معاوية بادهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من ادهى الناس ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة، والله ما استغفل بالمكيدة، ولا استغمز بالشديدة }[2].

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

(٢) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤٦.

وقد وظف الإمام ذلك الخطاب في سبيل تنبيه المجتمع والناس في أن الاّ ينخدعوا بسياسة هذا الرجل المنحرف الضال، الذي يمكر ويغدر في محاولة لاستجماع الناس حوله، وثنيهم عن طاعة إمام زمانهم، وتلك المعاني نلمحها في هذا الكتاب للامام (عليه السلام):

{ وارديت جيلا من الناس كثيرا خدعتهم بغيك، والقيتهم في موج بحرك، تغشاهم الظلمات، وتتلاطم بهم الشبهات، فجازوا عن وجهتهم، ونكصوا على اعقابهم، وتولوا على ادبارهم، وعولوا على احسابهم، إلاّ من فاء من أهل البصائر، فانهم فارقوك بعد معرفتك، وهربوا إلى الله من موازرتك، إذ حملتهم على الصعب، وعدلت بهم عن القصد }[1].

٦ـ ومن المضامين الحوارية المهمة، التي اراد الإمام بثها للمجتمع الاسلامي، هي في تفنيد ورد الاتهامات الباطلة، التي احتج بها معاوية ضد الإمام في قضية، مقتل عثمان بن عفان. وفي سبيل توضيح الأمور وتبيين الحقائق للعالم وللمجتمع الاسلامي، فقد استخدم الإمام تلك الخطابات والرسائل، التي بعث بها إلى معاوية لكشف الغموض والتضليل، الذي حاول معاوية أن يضلل به الناس واتخاذ هذه القضية في سبيل انكار البيعة للامام عبر الاحتجاج بهذه المسالة ملزما نفسه بضرورة الاقتصاص من القتلة وطالبا من الإمام تسليم القتلة إليه، وسنجد دلالات ما ذكرنا في هذا الكتاب للامام (عليه السلام):

{ فسبحان الله ما اشد لزومك للاهواء المبتدعة، والحيرة المتبعة، مع تضييع الحقائق، واطراح الوثائق التي هي لله طلبة، وعلى عبادة حجة، فاما اكثارك الحجاج في عثمان وقتلته، فانك انما نصرت عثمان حيث كان النصر لك، وخذلته حيث كان النصر له والسلام }[2]. واما جواب الإمام على سؤال معاوية

---

(١) م. ن، ج ٤.

(٢) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٤٢.

أن يدفع له بقتله عثمان: { وأمّا ما سألتَ من دفع قتلة عثمان اليك: فاني نظرت في هذا الأمر، فلم اره يسعني دفعهم إليك، ولا إلى غيرك، ولعمري لئن لم تنزع عن غيك وشقاقك لعرفنّهم عن قليل يطلبونك، لا يكلفونك طلبهم في بر، ولا بحر، ولا جبل، ولا سهل، إلا انه طلب يسوؤك وجدانه، وزور لا يسرك لقيانه }[1]. وكان يحض معاوية على الاستبصار بعقله، لا بهواه وللتمييز بين الأمور {ولعمري يا معاوية! لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنّي كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنّى فتُجَنّ ما بدالك والسلام }[2].

نتائج الحوار واهدافه:

بعد مراحل الحوار والخطاب التي التزمها الإمام في مجاهدة الفئات المناوئة، لنا أن نستخلص مجموعة الاهداف والمنطلقات والغايات، التي رمى اليها الإمام:-

١- إن الإمام اراد أن يوضح الخطوط والمسارات الصحيحة من الخاطئة أمام المجتمع الاسلامي، حيث كان في توجيه هذه الكلمة والحوار الحجاجي، والنقاش الموضوعي، توضيح وتحديد للامور الضّبابية في هذه الحرب، ولكي تكون الامة الاسلامية على بينة من امرها، فتختار على وفق وهدي هذا الحوار وهذا الحجاج، بين الإمام أو مناوئيه. بين الحق أو الباطل.

٢- إن الإمام اراد أن يضع الفئات المنشقة الضالة، على بينة من امرها، ذلك حين يحدد لها السبيل، ويحدد لها خطورة ما هي مقدمة عليه، فيكون في هذا الحوار (توعية قبل فوات الاوان).

---

(١) نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٩٩.

(٢) م. ن، ج ٣، ص ٣٩٧.

٣- إن الإمام اراد أن يعظ هذه الفئات، وينصحها ويرشدها، هذه الفئات الجاحة الطامحة، المنافقة خلف الاهواء، والسائرة بدوافعها الشيطانية، متناسية منهج الله ورسوله، فاراد الإمام أن ينصحهم ويوجههم إلى العدول عما حملوا أنفسهم عليه، مذكرا إيّاهم بالموت والحساب والعقاب.

٤- إن الإمام اراد أن يقيم عليهم الحجة ملتزما بواجبه كإمام تجاه هؤلاء الضالين في ضرورة وأهمية التزام الإمام بواجباته كقائد ديني للمجتمع الاسلامي، ولكي لا يكون لهم حجة على الإمام فيه كونه تركهم في غيهم يعمهون.

٥- إن الإمام اراد بهذا الحوار والنقاش والحجاج، أن يؤرخ لهذه الاحداث، يؤرخ لهذا الوجود الضال الذي تجسد في معاوية، واصحاب الجهل والخوارج كان لابد من تحديد ومن استيفاء وتفصيل لهذه الحقائق التي كانت ستبقى محض اوهام، لو لم يؤرخ لها مؤرخ. وبما يتوافق وحقيقة الواضع الذي التزمت به قبل الف واربعمائة عام. كان لابد من وجود حقيقة وأفق يواكب التاريخ، وكان لابد من وجود مؤرخ صادق العهد، حسن النية، متفان في سبيل الحق، بارع في توثيق المواقف بلغة وجيهة صريحة واضحة لا يشوبها خلل ولا يخالطها شك، ولا تقتربها ريبة ولا تتقمصها البواطل والاوهام والخيالات.

فالامام اراد أن يضع بين يدي العالم الماضي، والحاضر، والمستقبل، اطروحة الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة، منطلقا من صميم رسالته العالمية الموجهة للانسانية جمعاء. الخالدة ما شاء الله.

المستوى الثاني: الجهاد المسلح والمجابهة العسكرية:

كان على الإمام في تلك المرحلة، وفي تلك الظروف أن يتخذ موقفا، وأن يواجه الناكثين والقاسطين والمارقين، مواجهة مسلحة، ومجابهة عسكرية. وقد نظر الإمام إلى تلك المرحلة وتلك الظروف نظرة خاصة لم يستشعر بها احد، ولم

يتعرف عليها احد، بقدر ما استشعر الإمام وبقدر ما تجاوب فكانت الظروف التي عركت المجتمع، واستمالته، واطاحت به لم تكن هذه الظروف بقساوتها، غريبة أو جديدة على الإمام لان الإمام لم ينظر إلى الجهاد على انه نصر دنيوي يقود إلى تدعيم مركزه السيادي، والسلطوي على عرش الدولة والاخلاقية الاسلامية، بل نظر إليه على انه مرحلة، ومهمة لابد من القيام بها، وليتطور على انه مرحلة اختبار وامتحان الهي وتمييز وفرز، بين القوى الخيرة عن القوى الشريرة، فرز الحق عن الباطل فرز القوة عن الضعف فرز الاستقامة عن التهاون وفرز العدالة عن الجور والظلم، وتكاد تكون هذه المرحلة حاسمة، مرحلة فارقة في حياة الامة، الامة التي وضعت موضع التمحيص، وابتليت بالامتحان والاختبار الالهي. منذ رحيل الرسول وحتى هذه اللحظة. يقول الإمام في معرض هذه المعاني:

{ ولعمري ما علي من قتال من خالف الحق وخابط الغي من ادهان ولا ايهان، فاتقوا الله عباد الله، وفروا إلى الله من الله، وامضوا في الذي نهجه لكم وقوموا بما عصبهُ بكم، فعليَّ ضامن لفَلَجِكم آجلاً إن لم تمنحوهُ عاجلا }[1]

الجهاد المسلح بين المنطلقات والاهداف:

إن جهاد الإمام (عليه السلام) هو بمقتضى الارادة الالهية وهو تطبيق لامر رباني يقتضي مواجهة قوى الضلال، التي تعمل على الاطاحة بشخصية الإسلام، وطمس الكيان والهيكل والصورة الاسلامية المشرقة. وان مقاتلة هذه الفئات الضالة من ((ناكثين، وقاسطين، ومارقين)) هو استجابة لله واطاعة لحدوده، التي افتى بها لولي الامة واميرها، علي ابن أبي طالب (عليه السلام):

---

(١) نهج البلاغة، ج ١، ص ٦٠ - ٦١.

{ ألا وقد قطعتم قيد الاسلام، وعطلتم حدوده وأمتّم احكامه، ألا وقد امرني الله بقتال أهل البغي والنكث والفساد في الارض،فاما الناكثون فقد قاتلت، واما القاسطون فقد جاهدت، واما المارقة فقد دوخت، واما شيطان الردهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه ورجة صدره وبقيت بقية من أهل البغي، ولئن اذن الله في الكرة عليهم، لاديلن منهم، إلا ما يتشذر في اطراف البلاد تشذرا }[1].

ولان الحكمة الالهية التي وسعت كل شيء واحاطت علما بكل خافية وظاهرة، اقتضت على الإمام أن يحارب قوى الفساد والضلال، التي اضرت بهذا المجتمع، فكان لابد من قوة ضاربة، قوية رادعة، تطيح بالباطل، وتسقط مكوناته ودعائمه وقياداته وتمنح الحياة صورة صحيحة، صورة مع الكرامة لا بمقتضى الذل والاستسلام والخضوع والتواطؤ مع المبطلين، والمضلين والضالين وهو رد على اعتداءات المعتدين وهوتفعيل للجانب الحقوقي الاجتماعي للانسان في الحياة الحرة الكريمة، وما دام هناك من يحاول الاعتداء على هذه الحرية والكرامة الانسانية كان لابد من مواجهته والاقتصاص منه ومن امن العقاب اساء الادب، كان لابد من وجود ردود لابد من وجود قوة رادعة ومجابهة مسلحة.
يقول الإمام (عليه السلام):

{ ألا واني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا واعلانا وقلت لكم:((اغزوهم قبل أن يغزوكم فو الله، ما غزي قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا)) فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الاوطان، وهذا اخو غامد قد وردت خيلة الانبار وقد قتل حسان بن حسان البكري، وازال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المراة المسلمة، والاخرى المعاهدة، فينتزع حجلها، وقلبها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع منه إلا

---

(١) نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٢٧.

بالاسترجاع والاسترحام ثم نصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم كلم، ولا اريق لهم دم فلو أن امرءا مسلما مات من بعد هذا اسفا ما كان به ملوما بل كان به عندي جديرا. فيا عجبا! عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم فقبحا لكم وترحا، حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تُغيرون وتُغزَون ولا تُغزَون ويعصى الله وترضون }[1].

ومن هنا يكون الجهاد ضرورة اجتماعية لابد منها في احياء دولة العدل والحق، والامارة التي تنتظم بها شؤون المجتمع وتنصلح فيها احوالهم وتؤمن فيها معائشهم، وبما يرضي الله. ولنقف ألان عند هذا النص للامام الذي جاء ردا على تخرصات الخوارج، لما سمع قولهم { لا حكم إلا لله }. يقول الإمام (عليه السلام):

{ كلمة حق يراد بها باطل، نعم انه لا حكم إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله: وانه لابد للناس من أمير برّ أو فاجريعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الاجل، ويجمع به الفيء، ويقاتل به العدو، وتأمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح، به بر، ويستراح من فاجر}[2].

وقد نظر الإمام في أمر هذا المجتمع وفي حاجته الماسة إلى الصلاح والاصلاح فلم ير إلا الجهاد وسيلة في اخراس ألسنة المعاندين عن الحق المتكالبين على الباطل الضالين والمضلين وخيرّ نفسه بين اثنتين إما قتال واما كفر لابد من القتال لابد من إحياء سنة الحق والعدل لابد من القضاء على الثالوث الارهابي (الناكثين والقاسطين والمارقين). ولان القضاء عليهم وتطهير العالم الاسلامي منهم احياء للعقيدة احياء للدين احياء للشخصية الاسلامية احياء للشخصية

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، خطبة ٢٧، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ٧٧.

الاجتماعية يقول الإمام (عليه السلام) في معرض هذه الدلالات وطرح الخيار بين القتال والكفر، عبر هذا النص حيث يقول: { ولقد ضربت انف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أرَ لي فيه ألا القتال أو الكفر، بما جاء به محمد (صلى الله عليه وآله) إنّه قد كان على الناس والٍ أحدثَ أحداثا، وأوجدَ للناس مقالا، فقالوا ثم نَقَموا فغيّروا }[1].

وقد ادعت الفئات الضالة من (الناكثين والقاسطين والمارقين) إن الإمام (عليه السلام) غير جدير بخلافة الدولة الاسلامية، وزعامة الامة، وكانت لهم حجج واباطيل ادّعوها، وزعموا إن الإمام لا حق له في هذه الزعامة فيأتي جواب الإمام حاضرا في بطلان حججهم حين يقول (عليه السلام) مخاطبا الامة الاسلامية:

{ ايها الناس! إن أحقّ الناس بهذا الأمر اقواهم عليه واعلمهم بامر الله فيه، فان شغب شاغب استعتب فان ابى قوتل، ولعمري لئن كانت الامامة لاتنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل ولكن اهلها يحكمون على من غاب عنها، ثم ليس للشاهد إن يرجع ولا للغائب إن يختار } [2].

واذن، فان من أهم اهداف القتال، والجهاد هو في اثبات القضية العقائدية (الامامة) وهي من أهم اسس الايمان واصول، ومن دعائم الدين، التي انكرها البعض كالناكثين والقاسطين والمارقين منحرفين عن مبدأ مهم جدا من مبادئ العقيدة الاسلامية، ألا هو امامة الإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام) وعن جادة الاسلام، المتظاهرين بانهم على قبلة الاسلام، وبيعة محمد (صلى الله عليه وآله) ولآن التواني عنهم، والنكوص عن جهادهم يعني تضييعاً لمعالم القضية العقائدية، وتضييعاً لاهم معالم وملامح الدين الاسلامي، وتمهيداً للباطل واهل

---

(١) نهج البلاغة، ج ١، ص ٨٥.

(٢) نهج البلاغة، ج ٢، خ ١٦٣، ص ٢٧٣.

الباطل يقول (عليه السلام) واصفا هذه الدلالات والمعاني في هذا النص من خطبة له يخاطب فيها المجتمع الاسلامي:

{ ألا واني اقاتل رجلين، رجلا ادّعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه، اوصيكم بتقوى الله فانها خير ما تواصى العباد به، وخير عواقب الأمور عند الله، وقد فتح باب الحرب بينكم وبين أهل القبلة، ولا يحمل هذا العلم ألا أهل البصر والصبر والعلم بمواضع الحق، فامضوا لما تؤمرون به وقفوا عندما تنهون عنه، ولا تعجلوا في أمر حتى تتبيّنوا، فان لنا مع كل أمر تنكرونه غيرا }[1]

(١) نهج البلاغة، ج ٢، خ ١٧٣، ص ٢٧٣.

الجهاد المسلح والموقف الاجتماعي:

كان الإمام (عليه السلام) يرى في الجهاد (مسؤولية عظيمة) أنيطت بالامام، وبالامة الاسلامية، اذن فهي مسؤولية مشتركة وهي جهاد مسلح وكفاح واحد، ينصب على عاتق المجتمع الاسلامي اجمع، ولكن ما حصل بالفعل، وبواقعه الفعلي هي في انقسام المجتمع، ما إن تولى الإمام الزعامة حيث خرج البعض من اهالي المدينة يقودهم طلحة والزبير وعائشة ناكثين البيعة، قاصدين البصرة، حيث وجدوا النصرة واذن هنا الانشقاق الاول عن الإمام يتمثل بالمجتمع المدني والمجتمع البصري، الذي ساند الناكثين وحاربوا الإمام في موقعة الجمل، والانشقاق الثاني عن الإمام، كان في تخلف معاوية عن الإمام، يسانده اهالي المجتمع الشامي الذي وقف مع معاوية ضد الإمام.

ومن هنا و بعد إن تفرق عن الإمام عناصر وجهات مهمة كالمجتمع المدني، والمجتمع البصري والمجتمع الشامي، لم تكن مع الإمام في مسيرته الجهادية سوى المجتمع الكوفي، فما إن نكث بعض اهالي المدينة ومكة بيعتهم للامام، مقدمين الدعم والنصرة لطلحة والزبير وعائشة، حتى قرر الإمام (عليه السلام) إن يخرج من المدينة إلى العراق قاصدا الكوفة حيث الشيعة والانصار، وحيث اصبحت الكوفة قاعدة وعاصمة للاصلاح والجهاد، وقاتل اهالي الكوفة مع الإمام، وانتصروا على أصحاب الجمل، ثم قاتلوا في صفين والنهروان.

واذن، فالامة التي كانت تحتفظ بجاهلية العهود الفائتة لم تستطع إن تتخلى عن جاهليتها، وهاهي تتمزق بسبب ذلك الانحراف، وتلك الروح الجاهلية التي لا زالت تتقمص شخص الامة.

الإمام لم يطلب منهم سوى الطاعة، طاعة المبدأ طاعة المعتقدات، طاعة الحق، طاعة الله، وكان لابد للأمة من حبل تعتصم به، وكان لابد من تجمع للامة على حقها وحقوقها.

فبقدر ماكان الجهاد هو تفنيد للعقائد الزائفة، والاحكام البالية الجاهلية، هو ترسيخ للعقيدة، هو تشريع لقانون، الحكم الاسلامي، قانون العدالة الاجتماعية، التي ارادت هذه الفئات التعتيم عليه، والغائه من حيز الوجود، لتتمادى في سلطاتها، وامتدادات مصالحها الخاصة، واذن فالامام أراد لهذه الامة إن تتوحد، وان تصطف صفا واحدا ضد القوى التي تسعى لتشويه سمعة الاسلام وصورة العقيدة المشرقة.

يقول الإمام (عليه السلام) مخاطبا هذه الامة المتفرقة المتهاونة مع اعدائها المتخاذلة عن نصرة الحق والامام:

{ واني والله لأظن إن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم امامكم في الحق وطاعتهم امامهم في الباطل، وبادائهم الامانة إلى صاحبهم وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم، فلو أئتمنت احدكم على قعب لخشيت إن يذهب بعلاقته، اللهم اني قد مللتهم وملوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيرا منهم وابدلهم بي شرا مني }[1]

واذن فإن الأمة كانت غير مستعدة للتضحية، غير مقبلة على العطاء والنضال، لم تكن على قدر هذه المسؤولية العظيمة، اللهم إلاّ القليل منهم ممن وفى لرعاية الله ورسوله، كان على الامة إن تطيع الإمام وتثق بتوجهاته، وتستنير بخطواته في الجهاد لا إن تخالف وتمرق عن الطاعة حين اغترت بالحياة فلا رادع لها، ولا حاكم عليها إلاّ الأهواء والرغبات الخاصة ولنقف الآن، عند هذه الخطبة للامام (عليه السلام) وهو يستنفرالناس والامة إلى مجابهة وقتال اهالي الشام بعد إن توالت غاراتهم، وانتهاكاتهم على ابناء المجتمع الابرياء وذلك حين يقول:

{اف لكم! لقد سئمت عتابكم، ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟ وبالذل من العز خلفا إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت اعينكم، كأنكم من

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٦٢.

الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة، يرتج عليكم حواري فتعمهون، فكأن قلوبكم مألوسة، فانتم لاتعقلون، ما انتم لي بثقة سجيس الليالي، وما انتم بركن يمال بكم ولا زوافر عز يفتقر اليكم، ما انتم ألا كابل ضَلّ رعاتها فكلما جمعت من جانب، انتشرت من آخر }[1].

اذن فالامة كانت في سبات، وفي غفلة عما يحصل كانت في استتار عن الصواب لا تدري بمالها وما عليها يقول الإمام في معرض هذا المعنى:

{ والله إن امرءا يُمكّن عدوّ من نفسه يعرقُ لحمَه ويهشم عظمه ويفري جلده لعظيم عجزه ضعيف ما ضمنت عليه جوانح صدره }[2]. وكان هذا هو استغراق الامة في الامال وتضييع الواجب والمسؤولية العظيمة الجليلة التي اناطها الله لها أما هذا الموقف اللامبالي من الامة تجاه الجهاد وهذا التغافل اللامبرر عن الواجب والمسؤولية لا هذا ولا غيره يثني الإمام عن عزمه، واصراره على تطهير الارض والمجتمع الاسلامي خاصة من ارجاس الكفر المشبوهين والمنحرفين ولم يتوان الإمام لحظة في إهمال هذه المسؤولية ولم تستوقفه الاغراءات ولا التكالبات، ولا الانشقاقات التي وجدها في اتباعه، واصحابه بعض الاحيان وهو يخاطب هذا المجتمع الذي ضل قائلا:

{ انت فكن ذاك إن شئت فاما انا فوا الله دون أن اعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه فراش الهام وتطيح السواعد والاقدام ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء}[3].

ولم يكن الإمام بعد أن وثق بما في يدي الله، من النصر والغلبة لاوليائه أن يخذله حاشا، ولم يكن ليتهاون بامر هذا الجهاد بعد أن أقتنع به كفكرة وكمبدأ وكحقيقة وضرورة اجتماعية لابد منها ورؤية موثوقة لابد من تطبيقها وتفعيلها على ارض الواقع من اجل الاصلاح والتقويم ولم يكن ليتابع هذه الامة المسلوبة

---

(١) م. ن. ج١، ص ٧٦- ٧٧.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ٧٧.

(٣) م، ن، ج ١، ص ٧٧.

الارادة المتخاذلة عن نصرة الحق المتجاوبة مع الاهواء والرغبات لانه لو تابع هذه الامة فيما ترى وتعتقد فانه بهذا يساوم على خسارة نفسه الكريمة خسارة لمبدئه وايماناته التي امن بها:

{ انكم - والله - لكثير في الباحات قليل تحت الرايات واني لعالم بما يصلحكم ويقيم اودكم ولكني لا ارى اصلاحكم بافساد نفسي. اضرع الله خدودكم واتعس جدودكم لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل ولا تبطلون الباطل كابطالكم الحق }[1].

وفي ذروة تلك الظروف القاسية والعصيبة على الإمام يرى الامة متفرقة تعاني من الانقسام والتحزّب والتفرق المذهبي كان اهالي الكوفة والمجتمع العراقي يقفون إلى جانب الإمام وهم الذين حملوا اعباء الجهاد وتواصلوا مع الإمام طول مسيرته الجهادية ضد الناكثين والقاسطين والمارقين وهم الذين قادوا حملات الانتصار والفخر، ضد اعداء الإمام وكان الإمام في الوقت الذي يقف معاتباً ابناء المجتمع الاسلامي عن نصرته والقتال معه كان يشيد بابناء الكوفة من صحبه واتباعه بعد ملاحم الانتصار التي سطروها في صفين.

ولنقف ألان عند هذه الخطبة للامام يشيد بها بمواقف اتباعه وانصاره من المقاتلين في صفين:

{ وقد رايت جولتكم والحيازكم عن صفوفكم تحوزكم الجفاة الطغام واعراب أهل الشام وانتم لهاميم العرب ويآفيخ الشرف والانف المقدم والسنام الاعظم ولقد شفى وحاوح صدري أن رايتكم بآخرةٍ تحوزونهم كما حازوكم وتزيلونهم عن مواقفهم كما ازالوكم حسا بالنضال وشجرا بالرماح تركب اولاهم اخراهم كالابل الهيم المطرودة تُرمى عن حياضها وتُذاد عن مواردِها }[2].

---

(١) نهج البلاغة، ج ١، ص ١٠٤.

(٢) نهج البلاغة، ج ١، ص ١٧٧.

المحتويات:

مقدمة الأمانة ٧
المقدمة ١١
تمهيد ١٥
الإصلاح من واقع الإسلام ١٥

الفصل الأول: رسالة الإصلاح والواقع الإجتماعي ٢٣
المبحث الأول: أستراتيجية الإمام الإصلاحية والرؤية الشمولية ٢٥
أستراتيجية الإمام الإصلاحية بين الرؤية المكانية والرؤية الزمانية ٣٠
الكوفة قاعدة الإصلاح بين الدوافع الآنية والأبعاد المستقبلية ٣٠
المبحث الثاني: رسالة الإصلاح والواقع الإجتماعي ٣٥
الواقع الإجتماعي أبّان وفاة الرسول وشخصية الإمام (عليه السلام) ٣٧
المجتمع الإسلامي والإنقلاب العقائدي بعد وفاة الرسول (ص) ٤٢
المجتمع الإسلامي والإنحراف عن الإمامة ٤٨
أسباب إنحراف الأمّة عن الإمامة ٥١
الإنحراف العقائدي وآثاره الإجتماعية ٥٥
المبحث الثالث: الواقع الإجتماعي أبّان خلافة الإمام علي (عليه السلام) ٦٥
الإنحراف العقائدي للمجتمع الإسلامي أبّان خلافة الإمام (عليه السلام) ٦٧
إنحراف المجتمع الروحي والنفسي والأنقياد خلف الفئات الضالّة (الناكثين، والقاسطين، والمارقين) ٧٥

مظاهر الإنحراف الروحي والنفسي والإنسياق خلف دعوات بني أميّة (القاسطون)........................ ٧٦
٣ ـ مظاهر انحراف المجتمع الروحي والنفسي والانسياق خلف دعوات الفئة الضالة الخوراج (المارقين) ٧٩
إنحراف المجتمع الفكري ٨١
خلاصة الفصل الأول ٨٨

الفصل الثاني: رسالة الإصلاح والواقع النظري ٩١
نظرية الأمام الإصلاحية بين التصور الكوني والتطيبق الأيديولوجي (العلمي) ٩٣
المبحث الأول: نظرية الإصلاح العقائدي ١٠٩
فلسفة الاعتقاد والضرورة الاجتماعية ١١١
ثوابت الاعتقاد والنظام الاجتماعي ١١٦
مستويات الاعتقاد واتجاهات السلوك الاجتماعي........................ ١٢٣
منهج الإصلاح العقائدي ١٢٨
المبحث الثاني: نظرية الإصلاح النفسي ١٣٣
فلسفة الإصلاح النفسي........................ ١٣٥
منهج الإصلاح النفسي ١٤٢
مظاهر الإصلاح النفسي والضرورة الفردية والإجتماعية ١٤٦
نوازعُ النَّفس وأبعادها السلوكية والأخلاقية........................ ١٥٥

الفصل الثالث: رسالة الإصلاح السياسي بين الواقع النظري والواقع العملي.... ١٦٩
فلسفة الإصلاح السياسي من واقع الإسلام ١٧١
الإمام ومنهج الإصلاح السياسي النظري المبدئي ١٧٦
صفات القائد وشخصيته الاجتماعية ١٧٧

السياسة الحقوقية بين الراعي والرعية ١٨١
المبحث الثاني: النظرية السياسية في حقوق الرعية وأبعادها التطبيقية ١٨٧
المستوى الأول: منهج الإصلاح السياسي النوعي ١٨٩
سياسة العدل والإنصاف والمساواة ١٩٠
سياسة الحوار المشترك بين الراعي والرعية ١٩٤
سياسة التعاطف والتسامح والتراحم الإنساني بين الراعي والرعية ١٩٩
المستوى الثاني: منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة ٢٠١
منهج الإصلاح الذاتي للهيئة السياسية الحاكمة ٢٠٣

الفصل الرابع: رسالة الإصلاح الاقتصادي ٢١٩
المبحث الاول: مذهب الإسلام الاقتصادي والنظام الاجتماعي ٢٢١
الإصلاح الاقتصادي في رؤية الإسلام ٢٢٤
الإمام (عليه السلام) ورؤية الإصلاح الاقتصادي ٢٢٧
المبحث الثاني: الإصلاح الاقتصادي والواقع التطبيقي ٢٢٩
سياسة التطوير الاقتصادي بين الإنتاج والتوزيع ٢٣١
المستوى الأول: الإنتاج ٢٣١
مجالات الإنتاج بين التشجيع والتطوير ٢٣٤
١ـ الإنتاج الزراعي ٢٣٤
٢ـ الإنتاج التجاري والصناعي ٢٣٦
المستوى الثاني: التوزيع ٢٣٧
سياسة التوزيع والبعد الروحي ٢٣٨
سياسة التوزيع ومبادئ التكافل والتعادل الاجتماعية ٢٤٠
الزكاة والصدقات وإبعادها الاجتماعية ٢٤٢
سياسة الإمام في إصلاح الهيئة القائمة على إستحصال الإيرادات وتوزيعها . ٢٤٥

منهج الإمام في استحصال الإيرادات (الجباية) ٢٤٩
سياسة الاقتصاد والإصلاح الاجتماعي ٢٥١

الفصل الخامس: رسالة الإصلاح والجهاد ٢٥٥
رسالة الإصلاح والجهاد فلسفة الجهاد والبعد الاصلاحي..... ٢٥٧
مستويات الجهاد والبعد الإصلاحي ٢٦١
١ـ المستوى الأول: جهاد الكلمة والحوار ٢٦٣
الحوار مع اصحاب الجمل (الناكثين) ٢٦٤
الحوار مع الخوارج (المارقين) ٢٦٦
الحوار مع معاوية (القاسطين) ٢٦٩
نتائج الحوار واهدافه ٢٧٤
المستوى الثاني: الجهاد المسلح والمجابهة العسكرية ٢٧٥
الجهاد المسلح بين المنطلقات والاهداف ٢٧٦
الجهاد المسلح والموقف الاجتماعي ٢٨١

المحتويات ٢٨٥